لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الإسراء والكهف

(١٥ - ١٦)



تأليف

أ. د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الإسراء والكهف

(١٥ - ١٦)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي الإسراء والكهف (15-16).

المؤلف: أ.د.حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (384 صفحة).

الطَّبعة: الأولى، 1447هـ - 2026م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الإسراء والكهف

(١٥ - ١٦)

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبّر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عددٍ من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يوميٍ بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصياً من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض

النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، **وسميته: "لطائفُ البيان في تفسير القرآن"**.

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب الثامن من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (الإسراء والكهف (15-16).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعًا، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

1 رجب 1447هـ

تفسير جزء الإسراء

(15)

تفسير سورة الإسراء

تفسير المقطع الأول من سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ
نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي
الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي
بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ
لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ
وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۚ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)﴾.

شخصية السورة:

سورة الإسراء؛ سورة مكية[1]، **والمقصد العام لهذه السورة هو** تثبيت النبي

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 5).

ﷺ وتأييده بالآيات البينات، وتسليته مما حصل له من قومه وتبشيره بالنصر والتمكين.

ابتدأت بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾، **سبحان:** اسم موضوع في موضع المصدر[1]، سبَّحتُ الله تسبيحاً وسبحاناً، **التسبيح:** هو التنزيه والتمجيد، فنزّه الله نفسه عما لا يليق به، ومجّدها وعظّمها لقدرته المطلقة، فهو الذي يفعل ما لا يفعله غيره من الأمور العظيمة، فقد أسرى بعبده محمد ﷺ، وأتى بالاسم الموصول والفعل بعده للتدليل على أن حادثة الإسراء أمر عظيم، يليق بعظمة محمد ﷺ، **والإسراء:** هو السير ليلاً، أي سيّر عبده محمداً ﷺ بجزءٍ من الليل من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في فلسطين، وكانت المسافة بينهما تقطعها القوافل في مدة شهر، وذكر نبيه محمداً ﷺ بوصف العبودية، وهي أعظم درجات الكمال البشري، فإن أراد العبد أن يترقى في منازل الكمال البشري؛ فليزداد عبوديةً لله تعالى، والإضافة إليه إضافة تشريف، لا إضافة تعريف، فإن كل الخلق عبيدٌ لله تعالى[2]، **والمقصود بها هنا** عبودية خاصة بلغ درجتها رسوله محمد ﷺ، ونكّر "ليلاً"، لتقليل الوقت الذي استغرق في هذه الرحلة، أو لتعظيم ما كان فيه من رحلة مباركة[3]، و(**مِن**) للابتداء، فقد كانت من المسجد الحرام، وهو الكعبة وما حولها من فناءٍ يُصلى

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 329).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 12).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 12).

ويُسجَد فيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسُمي حراماً؛ لأنه ممنوع من الإغارة عليه والحرب فيه، **كما قال**: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾[القصص:57]، و(**إلى**) تُفيد الغاية والانتهاء، فقد كان الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى، **وسُمي الأقصى؛ أي**: الأبعد عن المسجد الحرام[1]، فلا يوجد مسجد أبعد منه آنذاك، وقد بناه إبراهيم الخليل في بلدة إيليا بعد أن بنى المسجد الحرام بأربعين سنة، **كما في الحديث**: "**أول مسجد بناه إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **المسجد الحرام، ثم بنى بعده المسجد الأقصى بأربعين سنة**"[2]، وقد بارك الله في الأرض التي حوله، فأرض الشام وفلسطين كلها أرض مباركة، والبركة فيها بكثرة الزروع والثمار والأمطار، وبركة بِعثة الأنبياء فيها، فأكثر الأنبياء بُعثوا في أرض فلسطين[3]، **والبركة**: هي زيادة الخير ونماؤه، ولا تكون إلا من الله، ولذلك البركة توقيفية، لا تنسب البركة لشيء إلا بدليل، واللام للتعليل، والضمير يعود لرسول الله ﷺ، أي لكي نُري رسولنا محمداً ﷺ مجموعة من الآيات العظيمة والمعجزات الدالة على قدرتنا، وقد جاء حديث الإسراء والمعراج في الصحيحين[4] وفي غيرهما تفاصيل أخرى، فقد أُتي له بالبراق، وهو دابةٌ بيضاء فوق البغل ودون الحمار، كان يركب عليها الأنبياء، فلما أراد النبي ﷺ أن يركب عليه نفر منه وتوحّش، وكان لا يعرفه، فقال له جبريل: "**أبمحمدٍ ﷺ يُفعَل**

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 226).

(2) صحيح مسلم: (1/ 370)، برقم: (520).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 877).

(4) صحيح البخاري (9/ 149)، برقم: (7517)، وصحيح مسلم: (1/ 145)، برقم: (162).

هذا؟!"، قال: فاستحى حتى تبلّل عرقًا، فقال له جبريل: **"ما ركبك أحدٌ أفضل على الله من محمد ﷺ"**[1]، فركب عليه فكان يضع حافره عند مد بصره، **أي:** يمشي بسرعة الضوء التي تسمعونها اليوم، فلما وصل إلى بيت المقدس؛ دخل النبي ﷺ المسجد وربط البراق حيثما كانت الأنبياء تربط خيولها، وصلى، ثم عُرج به ﷺ من المسجد الأقصى إلى السماء، فالإسراء: المشي ليلاً على الأرض، **والعروج:** الارتفاع من الأرض إلى السماء؛ فصعد جبريل بالنبي ﷺ إلى السماء، وكان جبريل يستفتح له كل سماء يصل إليها، فتقول خزنة السماء: من معك؟ فيقول: محمد، فيقولون: وقد بعث إليه؟ فيقول: نعم، فيقولون: مرحبًا به، ثم يفتحون له الباب، فيُسلم على أهلها ومن يجد فيها من الأنبياء، حتى انتهى إلى السماء السابعة، ثم إلى سدرة المنتهى، فتجاوز ووصل إلى مكانٍ لم يصل إليه أحدٌ من الرسل قبله، فأوحى إليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما أوحى، ومما أوحاه إليه في هذه الرحلة فرض الصلوات الخمس، وقد كانت خمسين صلاة، فنصحه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يعود إلى ربه ويطلب منه التخفيف، فعاد حتى خفّف الله عنه إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، ورأى الجنة والنار، ورأى البيت المعمور، ورأى بعض الأنبياء وسلّم عليهم، ورأى سدرة المنتهى، ورأى ما يغشاها، وغير ذلك من الآيات العظيمة التي ورد ذكرها في الأحاديث الصحيحة، أو ما أشارت إليه سورة النجم، ثم عاد ﷺ من السماء إلى بيت المقدس، وجمع الله له الأنبياء في بيت المقدس، ثم أمره أن يُصلي بهم إمامًا ركعتين، ثم عاد إلى

(1) مسند أحمد: (20/ 107)، برقم: (12672)، سنن الترمذي: (5/ 152)، برقم: (3131)، وإسناده صحيح.

مكة من بيت المقدس قبل أن يطلع الفجر، ولذلك لما كذّبته قريش سألوه عن بعض القوافل المسافرة في الطريق، وعن أشياء أخرى، فأخبرهم بها، **وذيّلت الآية بقوله:** ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وهما اسمان عظيمان من أسماء الله الحسنى، جاءا على صيغة المبالغة من السمع والبصر، لبيان أن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الذي أسرى بعبده وأراه الآيات الكبرى، يسمع ما يقوله له الخلق، ويُبصر ويرى أحوالهم، وسوف يجازيهم على أعمالهم.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾، والمناسبة بين ذكر قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد ذكر قصة الإسراء والمعراج واضحة، فكما منّ الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على محمد ﷺ برحلة الإسراء والمعراج، وأظهر مكانته في الملكوت الأعلى، **فإن الله** سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد منّ على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأكرمه بنعم أخرى، فقد واعده إلى الطور وتكلّم معه، وجعله في مكانةٍ عالية عنده، وأعطاه الله التوراة وضمنها أسباب ووسائل الهداية والاستقامة لبني إسرائيل، وأمرهم فيها بأن لا يتخذوا من دون الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أحداً يُفوضون أمورهم إليه ويعتمدون عليه، فالتوكل على غير الله لا يجوز، وهذا مما أوحاه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في التوراة، وأمره أن يبلغها بني إسرائيل للعمل به.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾، ونُصبت ذرّية على أنها مُنادَى[1] بحرف نداء محذوف، **والتقدير:** يا ذرّية من حملنا، فبنو

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 248).

إسرائيل من ذرّية أحد أبناء نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الثلاثة المؤمنين الذين حملهم معه في السفينة، وهم: سام، وحام، ويافث[1]، ولم يحمل معه ولده الرابع لأنه كان كافراً، وناداهم بهذا الوصف لتنبيههم على النعمة العظيمة التي نجى الله بها آباءهم من الغرق بسبب إيمانهم به سبحانه، ثم وصف الله نوحاً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالعبودية، وهي أعلى مرتبة يرقى إليها الخلق، فترتفع مكانتهم بها عند الله، ووصفه بأنه شكور، وهي صيغة مبالغة من شاكر، فقد كان كثير الشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تقع له نعمة، ولا يأكل أكلة، ولا يشرب شربة، إلا شكر الله وحمده عليها[2].

ثم قال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾، وأخبرْنا بني إسرائيل في كتابهم التوراة[3] ما سيجري منهم من انحراف وفساد وبُعد عن الله وترك لدينه، فالألف واللام في الكتاب للعهد، واللام لام القَسَم، **والإفساد في الأرض يشمل** إفساد العقيدة وتحريفها، وفسادهم في فعل ما لا يجوز لهم فعله من المحرمات وأكل حقوق الناس وظلمهم، **والمقصود بالأرض هنا** هي أرض الشام التي كانوا يسكنون فيها، وسيكون منهم الفساد مرتين، كل مرة على حِدة، ويزداد فسادُهم بالظلم والانحراف ويتكبرون على غيرهم من المظلومين من بني إسرائيل وغيرهم.

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 878).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 245).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 47).

قـــال الله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾، فإذا حصل منهم الفساد الأول في الأرض بالظلم والانحراف وفعل المنكرات وأذية الخلق؛ فإن الله يبعث عليهم خلقـًا من عبيده، والمقصود بالعبودية هي العبودية العامة، فكل الخلق عبيدُ الله، خاضعون لأمره الكوني ولا يستطيعون أن يخرجوا عنه، فالقوم الذين أدَّبوا بني إسرائيل لم يكونوا مؤمنين، بل هم من الآشوريين الوثنيين من أهل بابل، بقيادة بختنصر[1]، وقد كانوا أصحاب بطش وقوة شديدة وعتاد كبير، فحاربوا اليهود وهزموهم ودمروا مُلكهم، ودخلوا ديارهم واستولوا على بيت المقدس، وكانوا يترددون بين ممرات البيوت يبحثون عن اليهود لقتلهم أو أسرهم، والجَوْسُ: التردد والتحرك داخل الممرات وبين البيوت[2]، وكان هذا الوعد من الله كائن وواقع بهم لا محاله، لأن الله قدّره عليهم وربطه بأسبابه، فإن تحققت الأسباب؛ تحقق ما رُبط بها، وقد حصل لهم ذلك ولم يتخلف.

وقولـــه: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾، ثم منّ الله عليكم بالنصر والتمكين بعد ذلك، ولم يتركـكم في مرحلة ضَعف وتشتت وانهيار وهزيمة، بل أعطاكم الله فرصة أخرى وأعاد لكم الملك ودخلتم بيت المقدس مرة أخرى، وكان ذلك حينما سلّط الله الفرس على الآشوريين[3]، فهزموهم هزيمة مُنكرة، وسمحوا لليهود أن يعودوا

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 31).

(2) ينظر: تهذيب اللغة (1/ 521).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 32).

إلى بيت المقدس وغضوا الطرف عنهم، فمدّ الله اليهود بالأموال والبنين، حتى صاروا أكثر عدداً من أعدائهم الذين هزموهم في المرة الأولى، وذلك بسبب كثرة القتل والسَّبْي الذي وقع للآشوريين من الفرس حتى صار بنو إسرائيل مع قِلّتهم أكثر من عدوهم.

وقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾، ثم وعظهم ودعاهم إلى إحسان العمل مع الله ومع الخلق، فمن أخلص وأتقن في عمله فثواب ذلك عائد إليه، ومن أساء بفعل المعاصي وارتكاب المُنكرات فإثم تلك الإساءة وعقوبتها عائدة عليه وواقعة له، وهذه قاعدة عامة من قواعد الشريعة، ليست خاصة ببني إسرائيل، بل هي عامة لكل الخلق، فمن فعل الحسنات والطاعات والقربات فأجر ذلك وثوابه راجع إلى نفسه في الدنيا والآخرة، ومن أساء في العمل في اعتقاده وعمله وتعامله مع الخلق؛ فعقوبة إساءته راجعة على نفسه في الدنيا والآخرة، فإذا جاء موعد فسادكم في المرة الثانية؛ سلّط الله عليكم قوماً آخرين يهزمونكم ويدخلون دياركم، فيظهر على وجوهكم السوء من الهزيمة والقهر حين يدخلون بيت المقدس ويحتلون المسجد الأقصى مرة أخرى، وهؤلاء القوم الذين سلطهم الله على بني إسرائيل في المرة الثانية هم الرومان، حيث فعلوا بهم مثل ما فعل بهم الآشوريون في المرة الأولى، حين هزموهم ودمروا ديارهم واحتلوا المسجد الأقصى، وقد ظل الرومان محتلين له حتى حرره المسلمون في خلافة

عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[1]، **والتتبير**: هو شدة الإهلاك والفساد للأشياء، فقد دمروا كل ما بناه اليهود في بيت المقدس تدميراً كاملاً حين تغلبوا عليه فلم يبقى فيه شيء يذكر لليهود.

ثم ختم الله القصة بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾، **الخطاب** لبني إسرائيل، وهو وعد لهم من الله بالرحمة بعد هذا الانتقام الشديد الذي حصل لهم إن تابوا واستقاموا على دينه، وتركوا الإفساد في الأرض، وإن عادوا إلى الإفساد في الأرض عادت لهم العقوبة عليه من الله في الدنيا، وفيه إشارة إلى ما سيفعله بهم المسلمون في آخر الزمان وطردهم من المسجد الأقصى وتحريره منهم بسبب فسادهم في الأرض، وتوعدهم في الآخرة بعذاب جهنم التي صيّرها لهم فراشاً ومِهاداً وسِجناً لا يخرجون منها[2].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- في رحلة الإسراء إلى بيت المقدس دليل على استحقاق المسلمين له؛ لأن الأرض المقدسة كتبها الله لعباده الصالحين، واليهود والنصارى لم يعودوا صالحين، فنُزعت منهم.

2- بيان انتقال قيادة البشرية إلى محمد ﷺ وأمته، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ودينه خاتم الأديان.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 38).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 228).

3 – بيان أن المسجد الأقصى وقفٌ إسلامي، وليس خاصـًا بالفلسطينيين، وجعل الله حمايته واجبًا على جميع المسلمين.

4 – بيان فضل ومكانة محمد ﷺ عند ربه، فقد أكرمه وقرّبه وبلغ مرتبة لم يصل إليها أحد من الخلق.

5 – بيان سوء عاقبة المفسدين في الأرض حين تنتهي سنة الإمهال لهم.

6 – بيان العظة والعبرة من قصة هلاك بني إسرائيل، والتحذير لأمة محمد ﷺ من عملهم وطريقتهم.

7 – إطلاق الله التهديد لليهود إن عادوا إلى الفساد في الأرض، فإنهم سيتعرضون للهلاك على أيدي عباد الله المُؤمنين.

تفسير المقطع الثاني من سورة الإسراء

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ
لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ
ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ
ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ
ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا
مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ
خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ
جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ
عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

قــول الله تعــالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾، **يُخبر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآيات عن عظمة القرآن الكريم، وأنه كتابُ هداية للبشرية كلها، وأن هدايته عامة لأحسن السبل، وأحسن الطرق، وأحسن المناهج، وهو دين الإسلام، فلا أعدل وأرشد وأصوب منه؛ ولا يوجد هداية أكمل ولا أفضل من هداية القرآن الكريم، وهو الكتاب الخاتَم للكتب السماوية السابقة، وهو المهيمن عليها والناسخ لها، فمن أخذ به دلّه إلى طريق التمكين والنصر في الدنيا، وفيه البشارة للمؤمنين العاملين للصالحات في الدنيا، وجمع بينهما؛ لأن من لوازم الإيمان العمل الصالح، فلا فائدة من إيمانٍ بلا عمل صالح، ولا عمل صالح بلا إيمان، حيث بشرهم الله بالأجر الكبير، وهو الثواب العظيم الذي يمنحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم في الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾، **ومن عادات القرآن وطرائقه وأساليبه** أنه كتاب هداية لمن اتبعه، وكتاب إنذار وتخويف لمن خالفه، فلما بشّر المؤمنين بالأجر الكبير في الآخرة، بيّن أنه كتابُ إنذار للذين لا يُؤمنون بالآخرة، وهم الكفار، وخصّهم بوصف عدم الإيمان بالآخرة؛ لبيان أنهم يُنكرون البعث والنشور، مع شركهم بالله، وأن الله قد أعد لمن مات منهم على ذلك العذاب الأليم في نار جهنم في الآخرة التي ينكرونها.

وقوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾، ثم بيّن أن من طبيعة الإنسان أنه إذا تضجّر وغضب دعا على نفسه وولده بالشر، مثل ما

يستعجل الدعاء بالخير يستعجل الدعاء بالشر، لجهله، ولكن من رحمة الله به أنه لا يستجيب له دعاءه بالشر في هذه الحالة؛ لأنه يعلم ضعفه وتعجله، **كما قال:** ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾، [يونس:11]، **وقد نهى النبي** ﷺ عن أن يدعو الإنسان على نفسه وأولاده بالشر وقت الغضب، **كما في الحديث:** **"لا تدعو على أنفسكم ولا على أولادكم فتوافقوا ساعة إجابة فيستجيب الله لكم"**(1)، بل يجب على المسلم أن يعوّد نفسه عند الغضب بالدعاء لمن يغضب عليه بالهداية والصلاح، ثم بيّن أن سبب استعجاله الدعاء بالخير والشر؛ بأن جنس الإنسان طُبع على العجلة(2)، **كما قال:** ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾[الأنبياء:37]، غير أن المؤمن الصادق في إيمانه وتقواه يُهذب هذه العجلة في نفسه، ويلتزم توجيهات الشرع بضرورة التخلق بالأناة والتحمل والصبر، **فإن:** "التأني من الله، والعجلة من الشيطان"(3)، وكلما كان الإنسان أكثر إيمانًا وتقوى وصلاحًا؛ كلما كان أكثر رزانة وتصبراً وتحملاً وأناةً في المواقف، وكلما كان الإنسان بعيداً عن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ضعيف الإيمان به؛ كلما كان أكثر استعجالاً وهلعًا.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾، وصيّر

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 2304)، برقم: (3009).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 251).

(3) مسند أبي يعلى الموصلي: (7/ 247)، برقم: (4256)، مكارم الأخلاق للخرائطي: (2/ 2)، برقم: (225)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (3011).

الله الليل والنهار علامتين واضحتين دالتين على قدرة الله سبحانه وعظمته، **وهل المقصود بالآيتين الليل والنهار أنفسهما، أم المقصود جعل فيهما آيتين؟**، **قولان للمفسرين**[1]، **فالأول**: أن الليل علامة وآية في تقلّبه ودخوله وخروجه، وكذلك النهار، **والثاني**: أن علامة الليل هي القمر، وعلامة النهار هي الشمس، **فعلى القول الأول**: أن الله محا نور الليل فجعله مظلماً، وأبقى النهار مضيئاً، ليتبين الليل من النهار، **وعلى القول الثاني**: أن الله محا نور القمر في الليل، وأبقى نور الشمس في النهار، والقولان متقاربان، وكلاهما يدل على عظمة الله وتنوع آياته، فالليل والنهار آيتان، والشمس والقمر آيتان، وقد طمس نور القمر في الليل فلا يُضيءُ إلا بضياء الشمس له، فصار الليل ظلاماً ليرتاح الناس ويناموا فيه، **كما قال**: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾[النبأ:10]، وأبقى النهار مضيئاً بالشمس ليكون وقتاً للعمل وطلب المعاش، **كما قال**: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[النبأ:11]، فيتحرك الناس ويعملون ويزرعون ويُتاجرون في النهار فهو وقت طلب الرزق، فهذه هي الحكمة من بقاء آية النهار مبصرة، وأما الحكمة الأخرى فهي مستفادة من تعاقب الليل والنهار، أو من حركة الشمس والقمر[2]، حيث جعل القمر مخالفاً للشمس ليعلم به العدد من السنين والحساب للأشهر وللأيام، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة القمر لا من جهة الشمس[3]، فالأحكام الشرعية كلها مرتبطة بحساب الأشهر القمرية، وهي العربية، والحساب لفظ يشمل حساب

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 272).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 883).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 442).

الأيام والشهور والفصول، وعطفه على عدد السنين من باب عطف العام على الخاص للاهتمام به، وكل شيءٍ خلقه الله في هذا الكون فالتفصيل فيه كائن في علم الله، ومن جملة ما فصله للناس دعوتهم إلى التوحيد وصالح الأعمال، وتحذيرهم من الكفر والعصيان، على لسان أنبيائه ورسله[1].

وقوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾، وكل إنسان خلقه الله جعل عمله المكتوب له في اللوح المحفوظ ملازماً له كملازمة القِلادة للعنق[2]، فإن من عادات القرآن استعمال معهود العرب في الخطاب، فقد كان العرب إذا أخبروا عن شيءٍ ملازم للشخص، أضافوه إلى عنقه[3]، والطائر يطلق على الحظ من العمل، فكل ما قدر للإنسان من عمل في الدنيا يصبح ملازماً له لا ينفصل عنه[4] حتى يموت، فإذا مات وبعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للحساب تحوّل هذا العمل وظهر وخرج لصاحبه في صورة صحائف مكتوب عليها أعماله من خير أو شر، تُوضع بين يديه ويجدها أمامه مفتوحَة ومنشورَة غير مُغلقة، ويؤمر بقراءتها، فيرى فيها الحسنات والسيئات، فيقرأها سواءً كان قارئاً في الدنيا أو غير قارئ، فإنه يُعطى قدرة القراءة لما كتبته الملائكة في صحائف أعماله من حسنات أو سيئات، ويطلب منه أن يحاسب نفسه بنفسه، وهذا من أعظم العدل والإنصاف معه.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 46).
(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 249).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 399).
(4) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 82).

وقولـه: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾، ثم بيّن النتيجة من نشر أعمال العباد، **وهم ينقسمون بسببها إلى فريقين: فريق** كان في الدنيا من المهتدين إلى الإيمان والعمل الصالح؛ فكان ثوابُ هدايته وأجرها راجعاً إلى نفسه ومكتوباً له في ميزان حسناته، **وفريق** ضل عن الهداية وابتعد عنها؛ فكان جزاء ضلاله وانحرافه على نفسه ومكتوباً له في ميزان سيئاته، **وهذه القاعدة الأولى** من القواعد الدالة على عدل الله المطلق، وجاء التعبير في جزاء الهداية باللام؛ لبيان أن منفعة الاهتداء راجعة إليه، وفي جزاء الضلال بعلى؛ لبيان أن مضرة الضلال واقعة عليه، **ثم ذكر القاعدة الثانية، وهي**: أن العقوبة شخصية، فلا تتحمل نفس ذنوب وآثام نفس أخرى ما لم تكن متسببة فيها، والوزر هو الإثم[1]، **ثم ذكر القاعدة الثالثة، وهي**: أن الله لا يُعذب أحداً من الخلق في الدنيا أو الآخرة بسبب كفره حتى تبلغه الحجة ببعثة الرسل، وهنا تأتي مسألة حكم أصحاب الفترة الذين ماتوا في فترة انقطاع الرسل، ويلحق بهم المجنون والمعتوه وأطفال المشركين، فإن القلم عنهم مرفوع حتى يبلغوا، فهؤلاء ما هو حكمهم؟ **للعلماء فيهم أقوال**[2]، **أرجحها عندنا** أنهم يُختبرون يوم القيامة، فإن وُفقوا للجواب دخلوا الجنة، وإن خُذلوا في الجواب دخلوا النار، كما ورد بذلك الحديث[3].

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 254).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 53).

(3) ينظر: مسند أحمد: (26/ 228)، برقم: (16301)، مسند أبي يعلى الموصلي: (7/ 225)، برقم: (4224)، وإسناده صحيح.

وقولـه: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾، **وإذا أراد الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يُهلك أهل قرية، وهي المكان الذي يتجمع الناس للسكن فيه، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، وقد يُعبّر أحيانًا عن القرية بالمدينة، وعن المدينة بالقرية، والغالب في الاستعمال القرآني أن القرية تذكر مع أهل الكفر والفساد، وأن المدينة تذكر مع أهل الإيمان والصلاح، **و"أمرنا" فيها قراءتان**[1]**: بتخفيف الراء، وتشديده، والتخفيف فيه معنيان**[2]**،** **الأول:** أمرنا أهلها بالإيمان والطاعة فعصوا وكفروا ولم يستجيبوا وخالفوا أمره، **والثاني:** آمرنا بالمدّ، بمعنى كثّرنا، **أي:** استدرجناهم بالإمهال حتى كثُر عددهم وانتشر فسقهم مع كثرتهم، ويمكن الجمع بينهما بأنهم أمروا بالطاعة فعصوا الله فأمهلهم بعصيانهم حتى كثر فسقهم، **وأما قراءة التشديد:** فمعناها جعلنا المترفين أُمراء فيها، والمترف هو المُنَعَّم الذي قد أبطرته النعمة وسِعةُ العيش[3]، فإذا صار المُترَف أميراً فإنه سيدعو غيره إلى الكفر والفساد، فاستوجبوا بذلك العذاب، وتعيّن تحقيق وعد الله المكتوب عليهم في اللوح المحفوظ، فأهلكهم الله جميعًا هلاك استئصال فلم يبق منهم أحداً، وأكد التدمير بالمصدر لبيان عظم التدمير وشدته[4].

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 403).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 886).

(3) ينظر: الصحاح: (4/ 1333).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 55).

وقولـــــــه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾، **كـم:** هـي الخبريـة التـي تفيـد التكثيـر، **فـإن الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يُـذكر الكفار بعدد القرون التي أهلكها قبلهم بسبب كفرهم، **والقـرن:** هـو الأمـة مـن الناس التي تعيش في زمن معين، وخص نوحـًا بالـذكر؛ لأنـه أول رسولٍ إلـى الأرض، وقومه هـم أول مـن أغـرقهم الله بـسبب كفـرهم، ومـا بعـدهم هـم عـاد وثمود وقوم لوط وفرعـون وغيـرهم، أهلكهـم بـسبب ذنـوبهم وأعمـالهم الـسيئة التي كان الله خبيراً بدقائقها وبصيراً بـأحوال أهلهـا، وفي الخطـاب تهديـد ووعيـد لكفار قريش، وتطمين لرسوله ﷺ، وإشعار له بأنه غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربه، فهو حسبه وكافيه.

وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾، **ثـم بـيّن الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ **حـال النـاس في الـدنيا، وأنهم صنفان: صنف همه الدنيا**، وهو كافرٌ بالله، لدلالةِ ما بعده عليه، فمن كانت الدنيا همه، وصرف رغبته إلى التمتع بلذائذها وشهواتها؛ فإن الله يُعجل فيها لمن أراد من أفراد الناس ما يشاء من ملذات الدنيا ونعيمها التي قدرها له، فليس التعجيل عاماً لكل مريد للدنيا، بل الأمر كله لله عطاءً ومنعـًا، وهـذا العطـاء لا يدل على التكريم والحب، بل قد يكون ذلك استدراجـًا لـه ليـزداد إثمـه؛ فتـزداد عقوبته في الآخرة، ويكون مصيره إلى جهنم فيـدخلها فيحيط بـه عـذابها ونارهـا المشتعلة مـن كـل جهـة، وهـو مـذموم على كفـره وانـشغاله بالـدنيا عـن الآخـرة،

ومطرود بسبب ذلك من رحمة الله سبحانه، فهذه عقوبته في الآخرة، مع أنه لا ينال من الدنيا إلا ما قدره الله سبحانه له[1]، **وصنف مؤمن همه الآخرة**، يريد الجنة ويعمل لها بجد واجتهاد، وسعى لها السعي اللائق بطالبها، واستمر على إيمانه حتى مات عليه، لأنك قد تجتهد في العبادات والطاعات في الدنيا، ثم لا تموت على الإيمان فلا تستفيد منها، ولذلك أخّر ذكر الإيمان على السعي ليُختم لصاحبه به، فإذا خُتم للعبد بالإيمان والعمل الصالح فقد فاز، ولن يُضيع عمله، بل يحفظه الله له ويقبله منه، ويأجره عليه بالثواب العظيم، فدل ذلك على أن طلب الفوز بالجنة ليس بالأمر الهين؛ بل يحتاج إلى إيمان وإخلاص وهمة ونشاط، فكن جاداً مخلصاً صاحب همة عالية في تحصيل الطاعات والقربات، منافساً فيها غيرك، حتى تنال هذا الفضل العظيم في الآخرة.

وقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾، **ثم بيّن سبحانه** كمال وشمول رحمته بالخلق، وأنه يرزق كِلا الفريقين المؤمنين والكافرين، وأهل الطاعة وأهل المعصية، فعطاؤه مستمر لهما، ولا يؤثر كفر العاصي ومعصيته في رزقه الدنيوي، فإن العطاء من لذائذ الدنيا ونعيمها لا علاقة له بالإيمان والكفر، بل هو ممنوح للجميع غير محظور عنهم، فالخلق كلهم يعيشون بفضله وإحسانه.

وقوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، ويصلح لكل ناظر بعده، والمقصود

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 258).

بالنظر التفكر والتأمل، **أي:** تفكر وتأمل في تفاضل الخلق في الدنيا في الرزق، فهذا غني وهذا فقير، وهذا مريض وهذا صحيح، وهذا عزيز وهذا ذليل، وهذا عالم وهذا جاهل، ونحوها من أمور الدنيا التي فضّل الله العباد بعضهم على بعض بها، ابتلاءً واختباراً، ثم لفت انتباهَ المخاطَب إلى بيان التفضيل الأعظم، وهو تفاوت الناس في الآخرة، إذ لا نسبةَ بين نعيم الدنيا ولذّاتها ونعيمِ الآخرة بوجهٍ من الوجوه، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض[1]، **وفي الحديث:** **"إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء"**[2]، فكم هو الفرق بين من هو في غرف الجنة العالية ولذاتها المتنوعة وسرورها الذي لا ينقطع، وبين من يتقلب في الجحيم ويذوق فيها العذاب الأليم؟!![3].

وقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾، أعظم ذنب عُصي الله به هو الشرك، فابتعد عنه ولا تقع فيه، ولا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، فإنه لا نجاة لمن أشرك بالله ومات على ذلك، فعقوبته في الآخرة دخول النار والبقاء فيها مخلداً مذموماً مبغوضاً عند الله وعند خلقه،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 63).

(2) صحيح البخاري: (4/ 119)، برقم: (3256).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 455).

ومخذولاً فيها لا يجد من ينقذه ويخرجه منها، **وفي الآية إشارة إلى** أن الذم والخذلان ملازم للمشرك، والمدح والنصر ملازم للمؤمن الموحد.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن هداية القرآن للخلق أكمل وأعظم الهدايات، وأنها شاملة لجميع المجالات.

2 – أن العجلة صفة مذمومة، وهي من طبيعة الإنسان وعليه أن يهذبها.

3 – أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله الدالة على قدرته، خلقها لحكم متعددة.

4 – أن ثواب الهداية يعود لصاحبها، وأن عقوبة الغواية يعود على صاحبها.

5 – أن كل إنسان مسؤول عن ذنوبه، فلا أحد يحمل وزر أحد ما لم يكن هو سببه.

6 – أن الله لا يُعذب أحداً من الخلق حتى تبلغه حجة الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

7 – بيان فضل النية الصالحة والإرادة الطيبة في ابتغاء الدار الآخرة.

8 – بيان أن التفاوت والتفاضل الأعظم بين الخلق سيكون في الآخرة.

تفسير المقطع الثالث من سورة الإسراء

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ
ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا
﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾
رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ
ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ
ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا
فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ
فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا
بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا
كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ
إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ
بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ
خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ
أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ

ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، **في هذه الآيات الكريمات بيان** لمجموعةٍ من الوصايا التي شملت جوانب متعددة لعلاقة الإنسان بربه وعلاقته بالناس، وتنوعت بين عقائد وعبادات وأخلاق، وهدفت إلى إصلاح الفرد والمجتمع، فعلى المسلم أن ينتبه لها، وأن يسعى في تنفيذها وتطبيقها، ففي ذلك صلاح دنياه وآخرته، وأولها وأعظمها تحقيق توحيد الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، و"**قضى**" هنا بمعنى أمر[1] الخلق وأوجب عليهم أن يُوحدوا الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فالعبادة تشمل أنواع التوحيد كلها، ثم قرن هذا الأمر العظيم بحق الوالدين، فأوصى الأبناء أن يتعاملوا مع الوالدين تعاملاً حسنًا، فهما سببٌ في وجودهم، فيُفعل معهما كل ما هو حسَن من القول والفعل وسائر التصرفات الموصوفة بالحُسن، فلا تفعل فعلاً، ولا تقل قولاً ليس بحسنٍ مع والديك، وذلك في جميع أحوال الوالدين، ثم خصّ الوصية بحالةٍ خاصة من حياتهما وهي حينما يبلغا مرحلة الكِبَر؛ لأنهما بحاجة ماسّة إلى عناية ورعاية في هذه الحالة أكثر من غيرها، فمرحلة الشباب والقوة تختلف عن مرحلة الكبر والضعف، فيجب أن يكون الولد أكثر إحسانًا لهما في حالة كبرهما معًا، أو كبر أحدهما بعد وفاة الآخر، **ولفظ "عندك"** فيه تحريك لعواطف الابن وترقيق

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 233).

لقلبه؛ فأبواك الآن عندك، كما كنت أنت عندهما صغيراً، فتذكر كيف كانا يعتنيان بك واعتنِ بهما، لأن مرحلة كِبر السن يعود فيها الشخص إلى مرحلة الضعف، فيحتاج إلى رعاية خاصة، وإياك أن تتعامل معهما بالغلظة، أو يظهر منك لهما شيءٌ من التضجر والتأفف، وإشعارهما بعدم الرضى والارتياح لهما، بل استمتع بخدمتهما مهما أثقلا عليك، ولا تتأفف إذا شممتَ منهما رائحة كريهة، ولا تقل لهما أفٍ فيما تميطه من الأذى عنهما، فقد كانا يفعلان بك ذلك وأنت صغير، ولا يقولانه لك، بل يتعاملان معك بكل حب ورحمة مهما صدر منك، وابتعد عن أذيتهما بالقول أو الفعل، فلا يجوز للولد أن يزجر والديه بالكلام الخشن أو بالحركات والأفعال التي لا تليق بهما، بل عليه أن يتعامل معهما بالقول الكريم، **وهو الذي اجتمع فيه صفتان: اللين** من حيث الأسلوب، **والحسن** من حيث المعنى.

وقولــــه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾، ثم أمر الولد بالتواضع لوالديه في كل الأحوال، وألّا يتكبر عليهما، بل يتحدث معهما ويداه منخفضتان، كناية عن التواضع، فاليدان للإنسان بمثابة الجناحين للطائر، وترك أي حركة تدل على التضجّر مع الوالدين رحمةً بهما، وأمره أن يدعو الله لهما بالرحمة والمغفرة أحياءً وأمواتًا، جزاءً على تربيتهما له صغيراً، فقد كانا يدعوان له أثناء تربيتهما له وهو طفل صغير بالتوفيق والصلاح، فأمره أن يعتني بهما في كبرهما، كما اعتنيا به صغيراً.

واعلموا أنكم لن تؤدوا حق الوالدين كاملاً مهما فعلتم معهما، فقد جاء رجلٌ

من اليمن يحمل أمه على ظهره، ويطوف بها حول الكعبة، فسأل ابن عمر: هل ترى أني قد وفّيتها حقها؟!، فقال له: ولا بزفرة واحدة[1]، **أي**: من زفرات ولادتها له، فحق الوالدين عظيم؛ لأنهما كانا يعتنيان بالولد، ويدعوان له، وينتظران أن يكبر ويعيش معهما، وبعض الأبناء قد يقوم بحقوق والديه ولكنه يفعل ذلك وهو ينتظر رحيلهما وفراقهما بسبب كبرهما، فشتان بين الحالين والنيتين والانتظارين!!، فانتبهوا لهذا واعتنوا بآبائكم وأمهاتكم، فهما بابان مُشرَعان إلى الجنة، ولن تعرفوا قيمتهما حتى تفارقوهما، وحينئذ ستشعرون بقيمة الوالدين، أما وهما موجودان؛ فربما لا تتنبهون لمكانتهما وأثرهما في حياتكم، فرب بابٍ فُتح لنا أو مصيبةٍ رُفعت عنا بسبب دعوتهما، ورب خير ساقه الله إلينا أو شر دفعه الله عنا بسببهما، نسأل الله أن يرحم والدينا أجمعين، وأن يغفر لنا ولهم إنه سميعٌ مجيب.

وقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾، وعلى العبد أن يستشعر أن الله مطلع على ما في نفسه من إرادة للخير أو للشر، **وفي الحديث**: **"إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"**[2]، فمن كان يبطن في نفسه الإيمان وفعل الطاعات وحب الخير والصلاح للنفس والمجتمع؛ فليبشر بالخير وتوفيق الله له، وإن حصل منه تقصير أو ضعف في ذلك بسبب طبيعته البشرية، فإن الله يغفر له ما دام

---

(1) ينظر: الأدب المفرد للبخاري: (ص: 18)، برقم: (11)، وإسناده صحيح.

(2) صحيح مسلم: (4/ 1986)، برقم: (2564).

يكثر من الأوبة والرجوع والتوبة إلى الله سبحانه، وفي الآية إرشاد بأن لا يغفل الإنسان بين الحين والآخر عن الاستغفار والتوبة، لأنه معرض للتقصير، **وقد كان النبي ﷺ يكثر من قول: "أستغفر الله وأتوب إليه"**[1]، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بغيره؟!!

وقولـــه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾، **هذا هو الأمر الثالث**، وهو إعطاء صاحب القربى، وهم قرابة الشخص من أهله وأرحامه، حقهم من الصلة والمواساة والنفقة الواجبة والمستحبة والزيارة والتعامل الحسن، وعدم قطيعتهم، أو معاملتهم بالمثل فقط، **ففي الحديث: "ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها"**[2]، وأمرهم بإعطاء المسكين، وهو كل إنسان محتاج، حقه: وهي الصدقة الواجبة أو المستحبة، وإعطاء ابن السبيل، وهو المسافر الذي انقطعت نفقته وليس عنده ما يصل به إلى بلده، فيعطى من الصدقة الواجبة أو المستحبة حقه الذي يكفيه حتى يصل إلى بلده، ونهى عن التبذير بالمال، وهو النفقة في غير طاعة الله[3]، **أما الإنفاق في طاعة الله** فلا تُسمى تبذيراً، **وفي الحديث: "لو كان لي مثل أحد ذهباً ما يسرني أن لا يمر عليّ ثلاث، وعندي منه شيء"**[4]، فدلّ على أن التبذير هو الإنفاق في المعصية ولو كان قليلاً، وشبّه المُبذرين بإخوان الشياطين تنفيراً من

(1) صحيح مسلم: (2/ 50)، برقم: (220).
(2) صحيح البخاري: (8/ 6)، برقم: (5991).
(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 235).
(4) صحيح البخاري: (3/ 116)، برقم: (2389).

فعلهم، فالشيطان عمله كله شر، والمبذّر يفعل ما يزيّن له الشيطان من إنفاق ماله في المعصية، ومن طبيعة الشيطان أنه يجحد نعم الله وينكرها، فاحذروا أن تكونوا مثله.

وقوله: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾﴾، الضمير يعود إلى من سبق ذكرهم، وهم القرابة والمسكين وابن السبيل[1]، فهؤلاء قد يطلبون منك العطاء ولا يوجد عندك شيءٌ تعطيهم منه، فإذا امتنعت عن عطائهم انتظاراً لرحمةٍ من الله ترجوها منه، وهو الرزق الذي تريد أن تعطيهم منه عند حصولك عليه[2]، فاعتذر لهم بقول ميسور تقوله لهم، **مثل:** أسأل الله أن يرزقنا وإياكم، **أو:** إن شاء الله إذا أعطانا الله شيئاً نُعطيكم، **أو كما يقول بعض الناس اليوم:** على الله، الله كريم، ونحوها من العبارات التي تشعرهم بأنك مُتفهم لحاجتهم ولكن لا يوجد عندك ما تعطيهم، فالكلمة الطيبة صدقة، وهذا الأمر مطلوب في زماننا هذا أكثر، لأن بعض المتسولين بلا أدبٍ، إذا لم تُعطه يسبك ويشتمك ويتكلم عليك، فالحل معه بالقول الميسور والكلمة الطيبة!!

وقولـــــه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾﴾، ولما نهى عن التبذير أردفه بالنهي عن البخل والتقتير، وأمر بالتوسط بينهما في التصرف في المال، وشبّه البخيل بالذي يداه مقيدتان إلى عنقه لا يستطيع أن يحركهما، وشبّه المسرف بالباسط لهما كل البسط، وهو الذي يسرف

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 235).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 889).

في الإنفاق فيعطي فوق طاقته، ويخرج أكثر من دخله في الأمور التي لا حاجة له بها، ثم عقّب بذكر حال البخيل والمبذر بأسلوب اللف والنشر، **والمعنى**: أن البخيل يعيش ملوماً بين الناس يذمونه ويستغنون عنه، وأن المبذّر يعيش منقطعاً بلا نفقة ينفقها على نفسه، فيكون كالحسير، **وهو**: الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً[1].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾، ثم بيّن أن العطاء والمنع للرزق ليس له علاقة بصلاح العبد وفساده، بل يرجع إلى مشيئة الله، فمن شاء بسط له في رزقه وجعله غنياً، ومن شاء ضيّق عليه في رزقه وجعله فقيراً، وفعله هذا بالخلق مبنيٌ على علمه الدقيق بأحوالهم، فيُعطي كل إنسان ما يصلح له، فيوسّع الرزق على البعض، ويضيّقه على البعض، لحكمةٍ بالغة، ومن وسّع الله له رزقه فليس لأنه مكرمٌ عنده، ومن ضيّق عليه رزقه فليس لأنه مهانٌ عنده[2]، بل لأن في ذلك صلاح أحوالهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾، **ثم نهى عن قتل الأولاد من البنين والبنات** خوفاً من الفقر، فإن ذلك من سوء الظن بالله، وهو سبحانه المتكفل بأرزاق الخلق كلهم، وهو أرحم بهم من والديهم، وفي تقديم رزق الأبناء على الآباء إشارة إلى أنهم سواء في الرزق عند الله، فلا يملك هؤلاء ولا هؤلاء رزقا لأنفسهم، ثم علّل النهي بأن قتلهم

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 70).

(2) ينظر: المصدر السابق.

فعل قبيح وشنيع، **والخِطْءُ** هو الذنب[1] والخطيئة المنكرة، ويشمل ذلك قتله بعد أن يُولد، أو قتله وهو في بطن أمه بعد أن تُنفخ فيه الروح، وهو ما يُسمى اليوم بالإجهاض، فمن أجهض حَملاً قد نُفخت فيه الروح فقد قتل نفساً وارتكب إثماً كبيراً.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾، التعبير بعدم الاقتراب أبلغ وأشد من مجرد النهي عنه، فيشمل ترك جميع الوسائل المُوصلة إليه، من الخلوة والاختلاط والتواصل والتفكير ومشاهدة الأفلام والنظر إلى النساء الكاسيات العاريات، وغيرها من الوسائل التي تؤدي إلى الزنى، وسمّى الزنا فاحشة، وهي ما فحُش وقبح وعظُم من الذنوب، لأنه يستفحش في الشرع والعقل والفطرة، ووصُف بأنه طريق سيّء يُؤدي إلى اختلاط الأنساب وفساد الأخلاق وهدم الأسر والمجتمعات، وانتشار الأمراض المعدية، والواقع يصدق ذلك في المجتمعات الغربية التي انتشر فيها الزنى، فقد كثرت فيهم الأمراض المعدية كالسيلان والإيدز والزهري وغيرها، وتمزقت أسرهم، وذهبت الأخلاق والقيم والعفة والحشمة منهم بسبب ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ٣٣﴾، **ثم نهى عن قتل النفس المعصومة**، واستثنى من هذه النفس المعصومة ما جاء الشرع بجواز قتلها

(1) ينظر: مختار الصحاح: (ص: 92).

إحقاقًا للحق، **وهي الواردة في الحديث: "لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة"**[1]، ومن قُتل ظلمًا بدون سبب من الأسباب المسوغة لقتله شرعًا، **فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** قد جعل لولي أمر دمه - وهم ورثته، فإن لم يكن له ورثة؛ فالسلطان وليّ من لا وليّ له - سلطة على القاتل، فهو بالخيار فيه، إن شاء قتله قصاصًا، وإن شاء عفا عنه إلى الدية، وإن شاء عفا عنه بدون مقابل، ونهى الوليّ أن لا يتجاوز في القتل غير القاتل إذا اختار القصاص، ولا يمثّل به أو يعذّبه[2]، وذلك لأن أهل الجاهلية كانوا إذا قُتل لهم قتيل لا يكتفون بقتل القاتل، بل يقتلون معه غيره، أو يقتلون أكثر من شخص بدون سبب، أو يمثّلون بالقاتل، فنهى الله المسلمين عن تلك العادات الباطلة، ووعد الله وليّ المقتول ظلمًا بالنصر على قاتل وليّه والتمكن منه ولو بعد حين.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ٣٤﴾، نهاهم عن الاقتراب من التصرف في أموال الأيتام إلا بالخصلة الحسنة التي فيها منفعة لهم، ويشمل النهي ترك كل الأساليب والوسائل التي فيها تحايل على مال اليتيم وأخذه بدون حق، ولما نزلت هذه الآية توقف كثير من الصحابة ممن كانوا أولياء للأيتام في مخالطة أموال الأيتام، **حتى**

(1) صحيح البخاري: (9/ 5)، برقم: (6878).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 73).

أنزل الله تخصيصها بقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾[البقرة:220]، **فبيّن أن المخالطة** جائزة إذا كان فيها خير لهم، **والمقصود من النهي هو** الحفاظ عليه وتنميته، وله أن يأكل منه إذا كان فقيراً بالقدر المتعارف عليه مقابل ذلك، **كما قال الله:** ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النساء:6]، فإذا بلغ اليتيم مرحلة الرشد، وهو حسن التصرف في المال بيعًا وشراءً وحفظًا، رد إليه ماله، أو يستمر الوصيّ بالتصرف فيه بإذنه، ثم أمرهم بالقيام بحفظ العهود والعقود على الوجه الشرعي المرضي، فيدخل فيها كل ما بين العبد وربه، وكل ما بين العباد بعضهم البعض[(1)]، فإن كل عهد وعقد سيسأل صاحبه عن الوفاء به في الدنيا، ويطلب منه تنفيذه والوفاء به، فإن لم يوف به في الدنيا سُئل عنه يوم القيامة بين يدي الله تقريعًا وتبكيتًا له!.

ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾، أمر اللهُ عبادَه بإيفاء الكيل دون تطفيف فيه، وأمرهم بإتمام الوزن، وجَعْل الميزان عادلاً مستقيمًا لا ميل في كفتيه يمينًا ولا شمالاً، بل متساويًا لا لك ولا عليك، وهذا هو العدل في الميزان، والفضل أن تزيد في كفة العطاء قليلاً، وهو أمر مستحب، فإن إيفاء الكيل وإتمام الوزن خير لمن فعله بحسنة العاقبة في الدنيا ببركة المال والسمعة الحسنة، ونفقة السلعة، وحصول الأجر والثواب له في الآخرة.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 269).

ثـم قـال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾، **قفـوت الـشيء قفـواً:** إذا اتبعـت أثـره، **والمعنـى:** لا تتـبعن لسانك من القول فيما ليس لك به علم، أو لا تقولن في شيء بما لا تعلم[1]، وذكر ثلاث حواس يُمكن أن يحصل منها الفعل بدون يقين، وهي الأذن والعين والقلب، فلا تنسب إلى أذنك ما لم تسمع، ولا تنسب إلى عينك ما لم ترَ، ولا تنسب إلى قلبك ما لا يعتقد، بمجرد الحدس والظن، بل تثبت من كل ما تسمع وترى وتعتقد، وفي كل ما تقول وتفعل، **وفي الآية** دعوة إلى اكتساب العلم بوسائله الصحيحة، فهذه الثلاث الحواس يمكن استخدامها للوصول إلى العلم الصحيح، وسيسأل الله العبد عنها يوم القيامة، هل استخدمها بطريقة صحيحة أم لا؟! فليعد للسؤال جواباً.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾، **المرح:** الكبر والفخر[2]، فنهى عن الاتصاف بهذه المشية الدالة على كبرياء الماشي وتبختره، ثم بيّن له أنّ تكبّره على الخلق أثناء المشي لن يخرق الأرض بقدمه مهما تبختر فيها!، وأنّ فخره على الناس برفع رأسه تكبّراً عليهم؛ لن يساوي به الجبال طولاً مهما رفعه!!، وهو خطاب تهكّم وتقريع له، وبيان ضعف حاله مهما تكبّر وتبختر على الخلق!، بل ربما جازاه الله بنقيض قصده، **كما جاء في الحديث:** **"بينما رجل يجرّ إزاره من الخيلاء، إذ خسف به، فهو**

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 239).

(2) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 216).

يتجلل في الأرض إلى يوم القيامة"[1].

وقوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾، "كل" يعود إلى ما سبق ذكره من الأمور المنهي عنها، و"سَيِّئُهُۥ" فيها قراءتان[2]، على الإضافة، و"سيئةً" على الإطلاق، والسيّء والسيئة ضد الحسن والحسنة، وهو الأمر الذي يضر العامل به ويسوئه، والمكروه هنا هو الحرام[3] الذي يكرهه الله ويبغضه، وليس المقصود به المكروه في اصطلاح الفقهاء، لأنه اصطلاح حادث، ولا يصح تفسير النص القرآني باصطلاح حادث[4].

ثم ختم الله هذه الوصايا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾، اسم الإشارة يعود إلى كل ما سبق من التوجيهات والوصايا، فكلها مما أوحى الله به إلى رسوله محمد ﷺ من آيات القرآن الكريم، من الأحكام المشتملة على فعل الواجبات وترك المحرمات، وقد ختم هذه الوصايا والأحكام بما ابتدأها به، وهو النهي عن الشرك بالله سبحانه، لمزيد من الاهتمام بتحقيق التوحيد ونبذ الشرك، فهو أصل القضايا وغيرها يقوم عليها، ثم بيّن خطورة الشرك على صاحبه إن مات عليه، فإنه يُلقى يوم القيامة في نار جهنم خالداً فيها ملوماً على فعله، ومطروداً من

---

(1) صحيح البخاري: (7/ 141)، برقم: (5790).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 451).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 895).

(4) ينظر: مختصر في قواعد التفسير: (ص: 7).

رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمراد من الخطاب فيما سبق الأمة، ولكنه خاطبها بواسطة الرسول ﷺ؛ أما هو فهو معصوم من فعل تلك النواهي كلها[1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الله قرن حقه بحق الوالدين، لما للوالدين من فضلٍ على ولدهما.

2- بيان أن من الأدب الرفيع في التعامل مع المحتاجين مخاطبتهم بالقول الميسور وعدم النهر لهم.

3- بيان أن رزق الأولاد بيد الله، فلا يجوز القتل لهم أو إجهاض الحمل خوفًا من الفقر.

5- بيان أن كل من قُتل مظلوم؛ فإن وليّه منصور على قاتله ولو بعد حين.

6- أن العناية بأموال الأيتام وحفظها ورعايتها أمر واجب على الأوصياء.

7- أن في الوفاء بالكيل وإتمام الوزن بركة في الرزق، وأجر عظيم في الآخرة.

8- بيان ضعف الإنسان المتكبّر وحقارته أمام مخلوقات الله العظيمة، وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة.

9- بيان أهمية الاهتمام بتحقيق التوحيد ونبذ الشرك، فهو أصل القضايا وغيرها يقوم عليها، فابتدأ بها الوصايا واختتم بها.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 77).

تفسير المقطع الرابع من سورة الإسراء

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾، **الخطاب موجه إلى كفار قريش** الذين كانوا يزعمون أن الملائكة

بنات الله، على وجه التوبيخ لقولهم، والاستنكار له، **والمعنى**: هل خصكم الله وجعل لكم الصفوة، وهم الذكور، واتخذ لنفسه ما ليس بصفوة، وهن الإناث[1]؟! فقد كانوا يكرهون البنات ولا يفرحون بولادتهن، **كما قال الله عنهم**: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾[النحل:58]، وهم بهذا القول قد شابهوا اليهود والنصارى، **كما في قوله عنهم**: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:30]، ولكنهم كانوا أكثر قُبحـًا منهم؛ لأن اليهود والنصارى نسبوا إليه الولد من الذكر، وهؤلاء جعلوا له الولد من الإناث، جهلاً منهم بحقيقة الملائكة، فإنهم لا يُوصفون بذكورة ولا بأُنوثة[2]، فليس فيهم خاصية التزاوج والتناسل، ونسبة الولد إلى الله قولٌ قبيح عظيم النكارة والشناعة.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١﴾، **لقد أكثر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ** من بيان الحجج والبراهين والحكم والأمثال والأحكام والمواعظ ونوّعها وعدّدها في القرآن الكريم؛ لكي يتعظ بها الناس ويتدبروا ما فيها، فيقبلوا الحق ويتركوا الباطل، ويسلكوا طريق الهداية، ويتجنبوا طريق الغواية، غير أن الكفار لم يستفيدوا من ذلك، بل ما زادهم ذلك التوضيح والبيان إلا نفوراً عن الإيمان، وغفلة عن النظر والاعتبار، وبُعداً عن قَبول الحق.!

وقوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢﴾، **"لو"**

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 135).

(2) ينظر: فتح الباري لابن حجر: (8/ 298).

هنا حرف امتناع لامتناع، **أي:** وقوع جوابها لامتناع وقوع شرطها[1]، **والمعنى:** قل لهم يا محمد: لو كان مع الله آلهة كما يقول الكفار والمشركون؛ لطلبت تلك الآلهة المزعومة طريقاً إلى الله ذي العرش لإفساد ملكه ومعاندته في قدرته، **وقيل:** لطلبت طريقاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته، فيكونوا بذلك من جملة عباده[2]، **والقول الأول هو الراجح**؛ لأن في الآية افتراض شيء مستحيل وقوعه، وهو وجود آلهة مع الله مشاركة له[3].

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾، **ثم نزّه نفسه وقدّسها عن قولهم:** إن مع الله آلهة، تعالى وتباعد عن تلك الفرية العظيمة تعالياً كبيراً، ثم أخبر عن تسبيح الكون وما فيه من المخلوقات كلها له بلسان الحال والمقال، فلسان الحال الخضوع المطلق له، ولسان المقال النطق بتنزيهه وتقديسه، فما من شيءٍ خلقه الله من جماد أو حيوان إلا وهو يُسبح الله ويحمده[4]، **أي يقول:** سبحان الله والحمد لله، ولأن لغات المخلوقات تختلف، فلا يفقه الناس تسبيح هذه المخلوقات، بل يحيط بها علام الغيوب، وذيّل الآية ببيان حلمه ومغفرته بالمكلفين، فهو يُمهلهم ويُؤخر عقوبتهم، ويغفر للمذنب التائب منهم.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 111).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 897).

(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (3/ 159).

(4) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 459).

وقولـــــه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾، **الخطاب لرسول الله ﷺ**، وذلك أن الله عاقب المشركين والكفار من أهل مكة، بأن جعل على قلوبهم حجابـًا معنويـًا، وهو الطبع عليها، الذي منعهم عن إدراك لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده، ومنعهم من فهم القرآن والتأثر به، **وقيل**: إن المقصود بالحجاب الستر الحسي الذي جعله الله على أعين الكفار حين كانوا يريدون أذيته ﷺ(1)، فكانوا لا يرونه، ولا يستطيعون أذيته، ويُمكن الجمع بين القولين؛ بأن المعنى العام للآية هو الأول، والثاني كان يقع لهم أحيانـًا.

وقولـــــه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾، جعل على قلوب الكفار أَكِنة، وهي الأغطية، **والمقصود بها هنا** غطاء الغفلة الذي يغشى القلب، فلا يفهم معاني القرآن وأحكامه ولا يتأثر به، وجعل في آذانهم وقراً، وهو ثُقل السمع، وهو الصمم(2)، **والمقصود به هنا** الصمم عن سماع التأثر والعمل به، وإذا ذَكَرَ محمدٌ ﷺ الله وحده غير مشفوع بذكر آلهتهم، **وهو قوله**: لا إله إلا الله، وهو يتلوا القرآن، فإنهم يستغربون من ذلك ويتعجبون منه، **كما قال الله عنهم**: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:5]، فقد كان الكفار يذكرون الله ولكنهم يذكرون معه آلهتهم، فكانوا يقولون وهم يطوفون بالبيت: لبيك لا شريك لك إلا شريكـًا

(1) ينظر: تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل: (3/ 132).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 275).

هو لك تملكه وما ملك[1]، فكانوا ينفرون ويبتعدون هاربين على قفاهم من سماع كلمة التوحيد من شدة بغضهم لها ومحبتهم لما هم عليه من الباطل.

وقوله: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ **ثم أخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأنه أعلم بالطريقة التي كان كفار قريش يحضرون بها لاستماع القرآن، سواءً كان ذلك الاستماع سراً أو جهراً، وأنهم كانوا لا يستمعون له لغرض الاهتداء به، وإنما كانوا يستمعون له استهزاء به، وقد تكلموا بينهم سراً واتفقوا على التكذيب به والصد عنه، والتحذير من اتباعه؛ لأنه رجل مخبول قد ذهب عقله بسبب ما أصابه من كثرة السحر[2]، وعبّر عنهم بوصف الظالمين، لأن الظلم، وهو الشرك بالله، كان هو الباعث لهم على ذلك الفعل القبيح، وقولهم هذا باطل معلوم البطلان لكل عاقل منصف، بل هم يعلمون في قرارة أنفسهم أن محمداً ﷺ ليس بساحر ولا شاعر، وأن ما جاء به وحي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولكن الظلم والطغيان يجعلان الإنسان يقول خلاف ما يعتقد.!

وقوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾، **الخطاب لمحمد** ﷺ، **ومعناه:** تأمل وتعجب من أقوالهم وأفعالهم معك، وكيف وصفوك بأوصاف متعددة متناقضة، **مثل:** ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون[3]، ونحوها، فازدادوا بذلك ضلالاً وانحرافًا عن الحق، فلا يستطيعون

(1) ينظر: صحيح مسلم: (2/ 843)، برقم: (1185).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 461).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 900).

الوصول إلى طريقه الصحيح واتباعه، بل ضلوا وابتعدوا عنه بسبب عنادهم وإعراضهم عنه، وكذلك لا يستطيعون الوصول إلى إفساد أمرك وإطفاء نور الله الذي جئت به، بضربهم تلك الأمثال الباطلة لك، تنفيراً عنك وعن دينك[1].

ثم قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾﴾، ثم ذكر تساؤل المشركين فيما بينهم وإنكارهم للبعث والنشور، إذا متنا ودُفنا وصارت أجسادنا عظاماً بالية، **والرفات:** كل شيء حُطّم وكُسّر[2]، وصار كالتراب، هل يبعثنا الله خلقاً جديداً فيه حياة كاملة؟! **وهو سؤال استنكاري،** فأمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: لو كنتم حجارة أو حديداً، وتغيرت أصل مادتكم إلى مكونات أخرى؛ لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم، وحتى لو صرتم شيئاً عظيماً في نفوسكم لا تستطيعون تقديره لعِظَمَته مما هو أكبر من الحجارة والحديد[3]؛ فإن الله قادر على بعثكم وخلقكم خلقاً جديداً، ولو كانوا كذلك لقالوا: من الذي يقدر على بعثنا وإعادتنا إلى الحياة، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: أن الذي خلقكم في بداية أمركم من العدم على غير مثال سابق هو الذي يُحييكم ويبعثكم خلقاً جديداً، **والإنغاض:** هو تحريك

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 462).
(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 244).
(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 278).

الـرأس إلـى فـوق وإلـى أسـفل[1]، يفعلـون هـذه الحركـة اسـتهزاءً واسـتنكاراً لقولك[2]، ويسألونك متى يكون البعث والنشور؟! فقل لهم يا محمد: سيكون قريبًا وقوعه لا محالة.

وقولـه: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾، "يومَ" نصب على البدل من لفظ "قريبًا"، أو على الظرفية[3]، **والـدعاء هـو** النداء لهم بالاجتماع إلى أرض المحشر بالصيحة التي يسمعونها[4]، **والمناداة هنا** بأمر الله، **والمنـادي إسـرافيل، كمـا قـال:** ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ ﴾[طه:108]، حين ينفخ في البوق فتستجيبون له وتلحقون به لا يتخلف أحد منكم، وتستجيبون بأمره طائعين مُنقادين غير معارضين[5]، حامدين لله، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، ويحسبون أن لبثهم كان في الدنيا قليلا مقابل ما يشاهدون من أهوال يوم القيامة[6].

وقولـــه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾، ثـم أمـر الله نبيـه محمـداً ﷺ أن يُخاطـب عبـاده المؤمنين الصالحين أن يقولوا لغيرهم القول الحسن والكلمة الطيبة، فالقول الحسن داع إلى كل خلق جميل وعمل صالح، فإن من ملك لسانه ملك جميع

---

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 125).

(2) ينظر: تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل: (3/ 133).

(3) ينظر: البحر المحيط في التفسير: (7/ 63).

(4) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 275).

(5) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 901).

(6) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 672).

أمره[1]؛ **فالشيطان** مُترصد لما يقوله الإنسان من الكلام السيّء ويستغله في الفتنة بين الناس، فلا تدع للشيطان مجالاً ليفتن بينك وبين غيرك بسبب كلمة غير حسنة تقولها، بل اقطع عليه الطريق بالكلام الطيب الحسن، وعوّد لسانك عليه دائمًا، فالشيطان فُطر على العداوة الواضحة للإنسان المؤمن الصالح التقي، أما الكافر الفاجر فهو وليّه وصديقه.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان قُبح قول المشركين في نِسبة البنات إلى الله، ووصفهم الملائكة بأنهم إناث.

2- بيان أن من طبع الله على قلبه لا تزيده الآيات ولا الحجج إلا ابتعاداً عن الحق وبُغضًا له.

3- أن هذا الكون كله يُسبح الله بلسان الحال بالخضوع له، وبلسان المقال الذي لا نفقهه، لأننا لا نعلم لغات كل المخلوقات.

4- بيان حِلم الله على عباده العصاة، فلا يُعاقبهم في الحال، بل يمنحهم سنّة الإمهال.

5- أهمية القول الحسن في الدعوة إلى الله وتعليم الناس والتعامل معهم، فإنه يمنع من النزاع، ويقطع على الشيطان طريق الفتنة بين الناس.

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 460).

تفسير المقطع الخامس من سورة الإسراء

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ
وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ
مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا
﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً
فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا
يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم
بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾.

قولـه تعـالى: ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ ﴾، **الخطـاب للنـاس جميعـًا**، وفيـه بيـان بإحاطـة علـم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بهم، فهـو أعلـم بمـا يناسـب حـال كـل أحـد مـن اسـتحقاق الرحمـة واستحقاق العذاب[1]، فيعلم بمن يستحق الهداية فيوفقه لها ويرحمه ويدخله الجنة، ويعلم من يستحق العذاب بسبب كفره وإعراضه، فيخذله ويدخله النار، ثم بيّن مهمة النبي ﷺ في قومه، بأنه أرسله لإقامة الحجة عليهم بالبلاغ المبين، ولـم يُرسله إلـيهم ليكـون مـدبّراً لأمـورهم ومجازيـًا لهـم علـى أعمـالهم، ولا مسيطراً على قلوبهم لإدخال الهداية إليها ومنعهم من الكفر.

قولـــــه: ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾ ﴾، **ثم بيّن إحاطة علمه سبحانه** بـالكون كلـه ومـن فيـه مـن العوالم العلوية والسفلية، وبناءً على علمه المحيط بكل الخلق فقد فضّل بعض النبيين على بعض، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، وقد أعطى لكل واحد فضيلة وميزة خاصة، فاتخذ إبراهيم خليلاً، وكلّم موسى تكْليمـًا، وجعل عيسى كلمته وروحه، وآتى سليمان ملكـًا عظيمـًا، وآتى داود زبوراً، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر[2]، **والحكمة من ذكر داود هنا** -والله أعلم- أن كفار قريش استنكروا أن يكون محمد نبيـًا، وهو رجلٌ فقير، **كما قال الله عنهم:** ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف:31]، فأخبر الله

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 134).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 367).

سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه يعلم بمن يستحق أن يكون رسولاً ولو كان في نظركم لا يستحق، فقد أعطى الله داود النبوة وكان راعيًا من رعاة الغنم في بني إسرائيل، بعد أن مكّنه الله من قتل جالوت، وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، **كما قال الله:** ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[البقرة:251]، وأعطاه كتابًا خاصًا به، يحتوي على دعاء وثناء ومواعظ وأخلاق، وهو الزبور(1)، **ولا تعارض بين هذه الآية وحديث: "لا تُفضلوا بين الأنبياء"**(2)، فإن المفاضلة المنهي عنها في الحديث هي التي تكون على سبيل الافتخار بين الأتباع الذي يؤدي إلى الخلاف والشقاق.

وقولــــه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾، الخطاب لكفار قريش، ويصلح لكل من عبد غير الله، زاعمًا كذبًا أنه يستحق ذلك، وهو لا يستطيع أن يكشف البؤس والشدة والمرض والفقر ونحوها من المصائب، ولا تحويلها إلى أضدادها من النعم، فلا تملك أن تجعل الفقير غنيًا ولا المريض صحيحًا، فكيف تعبدون هذه الآلهة المزعومة وهي بهذا الوصف؟!.

وقولــــه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾، كان بعض الكفار يعبدون قبيلة من الجن، فلما بُعث محمد ﷺ، آمن الجن به واستقاموا على

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 137).

(2) صحيح البخاري: (4/ 159)، برقم: (3414).

دينه، واستمر المشركون يعبدونهم، وهم لا يشعرون بإيمانهم[1]، فأخبرهم الله بأن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله، قد أصبحوا من الحريصين على عبادة الله والتقرب إليه بكل عمل صالح[2]، **فالوسيلة** ما يُتوسل به إلى الله من الأعمال الصالحة، للوصول إلى الدرجة الرفيعة في الجنة، وأنهم يتنافسوا في ذلك أيهم يكون أكثر قُربًا من الله، وهم مع ذلك يرجون رحمة الله وفضله عليهم، فهم يعيشون بين الخوف والرجاء، وهما أصلا العبادة، فيرجون رحمته بفعل الطاعات، ويخافون عذابه باتقاء سخطه، كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنهم آلهة، لأن عذاب الله يجب أن يحذره كل أحدٍ، من ملك مقرّب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم[3].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾، **"إن"** هي النافية، **والمقصود بالقرية** الكافر أهلها، لأن الكفر هو سبب إهلاكهم، كما قُيّد ذلك بنصوص أخرى، **مثل قوله**: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾[هود:117]، **وقوله**: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[القصص: ٥٩]، وقيّد هلاكها بقبل يوم القيامة؛ مما يدل على أنه عذاب دنيوي، فقد يكون العذاب استئصالاً لها كما حصل للأمم السابقة، كقوم نوح وقوم لوط وعاد

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 472).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 282).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 263).

وثمود وغيرهم[1]، **وقد يكون العذاب** جزئيًا للتأديب، كما حصل لكفار قريش في بدر والأحزاب وغيرها من الغزوات، **وقيل**: إن الآية عامة، فالقرية الصالحة إهلاكها بالموت، والقرية الطالحة إهلاكها بالعذاب[2]، غير أن وصفه بالعذاب الشديد يرجح الاحتمال الأول، وكان ذلك الحكم قضاء إلهيًا قد كتبه الله في اللوح المحفوظ[3]، فلا بد أن يقع وفق ما قدّره الله.!

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾، "منع" هنا ليس على بابه، فإن الله لا يمنعه أحد أن يفعل ما يشاء، وإنما المقصود شدة الترك للشيء وفق سنن الله الكونية التي يسير عليها الكون، **ومنها** أن الأمة التي تطلب معجزة من نبيها ثم إذا جاء الله بها لا تُؤمن إلا عاقبها الله على ذلك[4]، وقد ترك الله الاستجابة لاقتراحات وطلبات كفار قريش؛ لعلمه بعدم إيمانهم، فيكون ذلك سببًا لهلاكهم، **وفي الحديث**: **"أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية"**[5]. **والمكذبون الأولون هم**

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 282).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 373).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 476).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 374).

(5) مسند أحمد: (4/ 173)، برقم: (2333)، وإسناده صحيح.

أمم الرسل السابقين، **ثم ذكر نموذجًا من هذه المعجزات، وهي** الناقة، وقد خصها بالذكر؛ لأن ثمود -وهم قوم صالح- آثار إهلاكهم باقية في بلاد العرب وقريبة من قريش، وكانوا يمرون عليهم في رحلاتهم، فقد كانوا يعيشون في منطقة تسمى الآن بالعلا قريبة من تبوك، وقد طلب هذه المعجزة قوم صالح من صالحٍ من أجل أن يُؤمنوا به، ووصف الناقة بأنها معجزة واضحة يدركها الناس بأبصارهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بجحودهم وكفرهم بها، فأهلكهم الله، ومن سنن الله في الكون أنه يبعث العبر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل لتكون من وسائل الإنذار والتخويف للمكذبين، لعلهم أن يتوبوا من كفرهم وتكذيبهم[1].

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾، الخطاب لنبينا محمد ﷺ، **والإحاطة لها معنيان في هذه الآية**[2]، **الأول:** بمعنى المنع المتعلق بحماية رسول الله ﷺ من شر الناس، **والمراد بهم:** أهل مكة المخالفين له، **وهو بمعنى قوله:** ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة:67]، **والمعنى:** ادعُ إلى الله واطمئن، فقد منعنا الناس من أن يؤذك، أو أن يُصيبك شيءٌ من قومك، **والمعنى الثاني للإحاطة هو:** إهلاك المكذبين له من كفار قريش، **وفي ذلك بشارة لنبينا محمد** ﷺ وهو في مكة بهلاكهم في واقعة قريبة وهي يوم بدر، **كما في قوله:** ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[القمر:45]، ولا تعارض بين المعنيين فكِلاهما قد تحقق، فقد حمى رسوله وعصمه من أذية

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 283).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 906).

الكفار، ووعده بالنصر والتمكين وإهلاك المخالفين له، والرؤيا أشهر استعمالها في رؤيا النوم، وتستعمل في رؤية العين[1]، وبسبب هذا ذهب البعض إلى أن الإسراء والمعراج كان بروحه، لأن الرؤيا لا تكون إلا في المنام، وهو استدلال ضعيف، فلو كانت رُؤيا منام لما أنكرتها قريش، ولما كانت معجزة[2]؛ لأن كل الناس يحصل لهم ذلك، والصحيح أنه كان بروحه وجسده، **والمقصود بها هنا** رؤيا العين، وهي ما رآه النبي ﷺ من آيات في ليلة الإسراء والمعراج[3]، وقد رأى في مسيره إلى بيت المقدس وفي عروجه إلى السماء أموراً وآياتٍ عظاماً، فحدث به الناس في مكة فكانت فتنة وابتلاء لهم، فثبت من ثبت، ولُقب أبو بكر بالصديق لتصديقه الخبر قبل أن يسمعه من رسول الله ﷺ، وكفر بعض المؤمنين، وزاد من حنق قريش وأذيتها واستهزائها برسول الله ﷺ بعد ذلك، فالفتنة فيها هي مخالفتها للعادات، وهل المعجزات إلا خوارق للعادات؟!، وكذلك جعل الشجرة الملعونة في القرآن -وهي شجرة الزقوم- فتنة للناس، وذلك حين ذكر أنها تنبت في أصل الجحيم، فاستغرب المشركون من ذلك، وجعلوها سخرية وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشجر[4]، والنار تحرق الأشجار! ففُتَنوا بها، وأنكروا أن الله قادرٌ على ذلك، وهي شجرة مذمومة وملعون آكلُها وهم الكفار، لأنهم لُعنوا

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 146).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 282).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 480).

(4) ينظر: تفسير الزمخشري: (2/ 675).

بسبب كفرهم، أو أنها تنبُت في مكانٍ بعيدٍ وهو أصل الجحيم، وعذابه شديد[1]، ومن حِكم ذكر الآيات والحجج تخويف الكفار بها، ومنها ذكر وصف شجرة الزقوم، وأنهم سيأكلون منها إن ماتوا على الكفر، فما يزيدهم ذلك التخويف إلا طغياناً وابتعاداً عن الإيمان، وتمادياً في الكفر والضلال، وهذا أثر من آثار انحراف القلب وفساده، والأصل في الحجج والبراهين أنها تُقرب العبد من الله، وترغّبه في التوبة والاستقامة على دينه.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾، **واذكر يا محمد للناس حين قال الله للملائكة:** اسجدوا لآدم سجود تحية لا سجود عبادة، بعد أن أظهر لهم علمه وفضله عليهم، فسجدت الملائكة طائعة لأمر ربها، ولم يتخلف عن السجود إلا إبليس، والاستثناء هنا مُنقطع؛ لأن إبليس ليس من جنس الملائكة، وإنما هو من الجن، ولكن صلُح ظاهره فترقى والتحق بالملائكة، وبقي في قلبه الكِبر والحسد فأدى ذلك إلى سقوطه وانحرافه في الكفر حين رفض السجود واعترض على أمر ربه مستنكراً له، قائلاً: كيف أسجد لشخص خلقته من الطين؟! وذلك لاعتقاده أن النار أفضل من الطين، وهو قياس فاسد، وهو أول من سن القياس الفاسد.!

وقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾، ثم قال متوعداً بإفساد ذرية آدم بسبب حسده له وتكريم الله له، وجعل الملائكة تسجد له، واشترط على الله لو استجاب لطلبه وأخّر

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 906).

موته إلى يوم القيامة؛ لسعى في استئصال بني آدم بالإغواء والإضلال وإفسادهم، من احتنك الجراد الزرع، إذا استأصله بأحناكه وأكله كلّه[1]، **وقيل**: لأسوقنهم حيث شئت، وأقودهم حيث أردت، من قولهم حنكت الفرس إذا جعلت اللجام في فهه لينقاد لك به[2]، **وعلى كلا المعنيين** فهدف إبليس واضح، فإنه حريص على السيطرة على بني آدم وإفسادهم وإبعادهم عن طاعة الله سبحانه، وقد علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشهوات، وخص ذرية آدم؛ لأنهم ما زالوا في غفلة عن مكره وخداعه، وقد جرّب أباهم فلم يجد له عزماً[3]، فما دام قدر على الأب؛ فمن باب أولى الذرية، وأتى بنون التوكيد ولام التوكيد لإظهار عزمه على إغوائهم، واستثنى القلة منهم، وهم المؤمنون الصادقون، فإنه لا يستطيع إغواءهم ولا التسلط عليهم.

وقوله: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾، ثم أخبر الله أنه قد منح إبليس ما طلب، وهو تأخير هلاكه إلى قيام الساعة، من أجل أن يُنفذ ما وعد، ويكون ابتلاءً لبني آدم، فمن أطاع إبليس من بني آدم وسار في طريقه وعصى الله ربه؛ فإن مصيره إلى جهنم، وعذابه فيها وافٍ غير منقوص، ومستمر غير منتهٍ.

وقوله: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ

---

(1) ينظر: غريب القرآن لابن قتيبة: (ص: 218).

(2) ينظر: لسان العرب: (10/ 417).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 287).

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾، **السين والتاء** للطلب، **والفزّ هو** الاستخفاف، **أي:** استخف وحرك وادفع من قدرت عليه من بني آدم إلى الكفر والمنكر والمعصية بواسطة صوتك، وهو كل داعٍ إلى الكفر والمعصية من الغناء واللهو واللعب والمزامير ونحوها، **والجلَبَة هي** الجمع الكثير، **والمعنى:** أجلب عليهم بجنودك الراكبة على الخيول وهم الفرسان، وبجنودك الذين يمشون على أرجلهم، **وقيل:** كناية عن الجِد والعزم والإرادة القوية لفعل الشيء، **أي:** أجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك[1]، ولا تعارض بين المعنيين فكلاهما مراد من اللفظ، والمشاركة لهم في الأموال أن يجعلهم يطلبونها من الحرام، كالربا والسرقة والخيانة ونحوها من أساليب الكسب الحرام، أو أن يستخدموها في الحرام، كالأنعام التي تُذبح لغير الله أو تصرف لأوثانهم، والمشاركة لهم في الأولاد بأن يشجعهم على أن يُعبّدوا أبناءهم لغير الله، كعبد الحارث وعبد العزى وعبد الحسين ونحوها، أو يشجعهم على الزنا فيكثر أبناء الزنا ونحوها[2]، **والمواعدة هي** بشفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وإيثار العاجل على الآجل[3]، وتزيين الباطل لهم، وإيهامهم بأنه لا يوجد جنة ولا نار، ولا بعث ولا حساب ونحوها، والغُرور هو إظهار الشيء القبيح بصورة حسنة حتى يقبله الناس.

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾، **ثم**

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 250).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 495).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 267).

بيّن سبحانه أن إبليس لا سلطان له على عباد الله المؤمنين الصالحين، فإن الله عصمهم منه، وكفى بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كافيًا وناصراً لعباده المؤمنين، وحافظًا لهم من إغواء الشيطان وتسلطه عليهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن المفاضلة بين الأنبياء جائزة بشرط ألا تُؤدي إلى الخلاف والتفرق بين أتباعهم.

2- بيان أن من علامات حب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد أن يُوفقه للعمل الصالح ويختم له به.

3- بيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يستجب لكفار قريش اقتراحاتهم في إنزال بعض المعجزات حتى لا ينزل بهم العذاب إن كفروا بها.

4- أن الله عصم نبيه محمداً ﷺ من أذية الكفار ليبلغ دعوته.

5- أن إبليس هو أول من أحدث القياس الفاسد بادّعائه أن النار أفضل من الطين.

6- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ابتلى بني آدم بعداوة الشيطان، ولكنه عصم من شره من اعتصم بالله وتوكل عليه.

7- أن من مشاركة الشيطان في المال الكسب الحرام.

تفسير المقطع السادس من سورة الإسراء

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ
رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ
وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ
لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ
ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ
ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ
خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ
فِى ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ
لِتَفۡتَرِىَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ
إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ
عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا
يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ
لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن نعمه العظيمة التي امتن بها على خلقه، ومن هذه النعم نعمة تحريك السفن في البحر، فقد كانت السفن تسير بواسطة الرياح قبل أن تصنع السفن الحديثة، فسخر لها الريح لتسوقها سَوقًا خفيفًا آمنًا، فتتحرك على سطح البحر ويركب عليها الناس وينقلون عليها أمتعتهم من مكان إلى آخر، **والإزجاء**: سوق الشيء حالاً بعد حال[1]، **والبحر**: الماء الكثير، فيشمل الأنهار الكبيرة، واللام لام الحكمة والغاية، أي سخر لكم ذلك من أجل طلب الرزق بالتجارة ونحوها، **وسمى التجارة** فضلاً من الله؛ لحلها وبركتها وما فيها من خير للناس، **وعلّل ذلك** بأنه رحيم بهم حيث رفع عنهم مشقة السفر ونقل البضائع على الحمير والجمال ونحوها لمسافات طويلة في البر.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾، ثم ذكر حال المشركين أثناء ركوبهم البحر واضطراب السفن بهم بسبب الأمواج والرياح العاتية، فيخشون الغرق، فيضيع ويغيب عن بالهم كل الأصنام والآلهة التي يعبدونها من دون الله في وقت السراء والأمان، ولا يذكرون ربًا يُنجيهم غير الله وحده لا شريك له، فيلجؤون إليه ويُخلصون له الدعاء، فلما زال عنهم الخطر ونجاهم إلى البر مما أصابهم من الضر في البحر؛ أعرضوا عن إفراده بالعبودية والألوهية، وأشركوا به غيره من الأصنام والأوثان، فطبيعة الإنسان الكافر جحود نعم الله عليه ونسيانها وقت الرخاء ولا يذكرها إلا عند الشدة.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 396).

وقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾، **ثم خاطب الله المشركين الذين نجاهم إلى البر فكفروا به:** هل أمنتم من انتقامه وعذابه لكم في البر، أليس القادر على أن يهلككم في البحر قادراً على أن يهلككم في البَر؟!، **والخسف هو** تغييب الشيء في باطن الأرض(1)، وجانب البَر المقصود به القسم الآخر من الأرض، **فالقسم الأول** منها هو البحر، فالغرق يكون في البحر، والخسف في يكون البَر، **والحاصب هي** الريح التي تحمل الحصباء لقوتها، أو المطر الذي ينزل من السماء محملاً بالبرد؛ فيرميكم به فتهلكون(2)، ثم لا تجدوا لكم ناصراً يدفع الشر عنكم، ولا مانعاً يمنع عنكم هذه المصائب عند نزولها بكم.

وقولـــــه: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾، **ثم سألهم سؤالاً آخر:** هل تضمنون النجاة لو ركبتم البحر مرة أخرى؟، فما المانع أن يرسل عليكم قاصفاً من الريح الشديدة(3) التي تدمر السفينة، وتمزق أشرعتها وتذهب ألواحها، فتغرقون جميعاً، بسبب كفركم وشرككم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجحودكم لنعمه السابقة عليكم، والتبيع الذي يطلب ثأراً أو ديناً(4)، **والمعنى:** فلا تجدون لكم مُطالباً أو متابعاً يُتابعنا انتصاراً لكم ومدافعاً عنكم.

---

(1) ينظر: تهذيب اللغة: (1/ 1029).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 399).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 290).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 472).

ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾، **ثم أخبر سبحانه** أنه كرّم بني آدم بأمور كثيرة، منها: العقل والتمييز، والنطق والصوت الحسن، وبنصب القامة، فلم يجعله يمشي على أربع منبطحًا، ونحوها من المميزات التي اختص بها الإنسان عن سائر الحيوان(1)، **ومن تكريمه لهم**؛ حملهم في البَر على الخيول والجمال والحمير والبغال، وسائر المركوبات التي سخرها لهم، ويدخل فيها السيارات الفاخرة، والطيارات، وسائر المركوبات البرية الحديثة، وحملهم في البحر على السفن والغواصات، وسائر المركوبات البحرية الحديثة، وأوجد لهم أنواعًا شتى من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، فالطيب يُطلق على الحلال، وعلى ما لا ضرر فيه، **كما قال:** ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف:157]، وفضّلهم على كثير من المخلوقات الأخرى، وهل يدخل فيهم الملائكة؟! اختلف العلماء في ذلك، والراجح أن صالحي بني آدم من المؤمنين أفضل من صالحي الملائكة باعتبار كمال النهاية في الآخرة، وأن الملائكة أفضل باعتبار البداية، فهم الآن بالرفيق الأعلى(2)، وأكّد التفضيل بالمصدر لبيان عظم هذا التفضيل.

ثم قال: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾، واذكر لهم يوم القيامة حين يُنادى

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 290).

(2) ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم: (3/ 1104).

الناس ويجمعون إلى المحشر بإمامهم، **وفي معنى الإمام، ثلاثة أقوال**[1]: **إنه** الرسول، فكل أمةٍ تُدعى برسولها، **وقيل: إنه** الكتاب، فكل أمةٍ تُدعى بالكتاب الذي أُنزل إليهم، **وقيل: إنه** كتاب كل شخص بعينه، فيُدعى كل إنسان بكتاب أعماله، **والسياق يرجّح القول الثالث**[2]، **ويحتمل أن الأقوال الثلاثة** مرادة من اللفظ، وأن الناس يدعون ومعهم رسولهم الذي دعاهم، وتُعرض عليهم أعمالهم في كتبهم على الكتاب الذي جاء به الرسول، فينقسمون بذلك إلى **قسمين**: من أفلح وفاز، وهو الذي أُعطي كتابه بيمينه، فهؤلاء يقرؤون كتبهم وصحائف أعمالهم قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم[3]، وترك ذكر القسم الثاني تحقيراً له، وهو من أُوتي كتابه بشماله، وقد علم الجميع أنهم لن يحصل لهم أدنى ظلم في أعمالهم، وهو مقدار الفتيل، وهو الخيط المستطيل في شق نواة التمرة[4]، وهو مثلٌ يُضرب للشيء الحقير التافه الذي لا يلتفت إليه، وقد ذكره الله كمثالٍ لإثبات كمال عدله مع الخلق.

وقوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾، ومن كان في هذه الدنيا أعمى البصيرة عن معرفة الحق والاهتداء به؛ فهو في الآخرة أعمى البصر، **كما في قوله:** ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[طه:124]، **وقوله:** ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾[الإسراء:97]، فلما صرفوا

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 258).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 99).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 463).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 912).

قلوبهم عن رؤية الحق في الدنيا، وأصموا آذانهم عن سماع الحق والعمل به، وصرفوا ألسنتهم عن النطق به؛ عاقبهم الله يوم القيامة بإبطال حواسهم جزاءً لهم، فمن أعمى بصيرته عن رؤية الحق ودلائل الهدى والتوحيد، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فهو في الآخرة أعمى وأكثر حيرة وضلالاً من حاله في الدنيا، فالأعمى في الدنيا يمكنه أن ينجو من الضلال بطلب من يرشده إلى الهدى، وأما الأعمى في الآخرة فهو ضلال لا خلاص له منه[1]، ولا ينفعه أحد.

وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾، وإن كاد المشركون ليفتنونك يا محمد عن الحق الذي أوحيناه إليك، فقد كان النبي محمد ﷺ في بداية الإسلام حريصاً على أن يُؤمن كبار كفار قريش من أجل يؤمن من وراءهم، فكان يحاورهم ويستمع إلى مقترحاتهم، وكان مما طرحوه عليه أن يجعل لهم مجلساً خاصاً بهم، فلا يجمع معهم الضعفاء والمساكين، ففكر في طلبهم وتأمل فيه، حرصاً على هدايتهم[2]، **فجاءه الوحي، بقوله:** ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:52]، واعتبر القرآن التفكير في تنفيذ طلبهم بداية للفتنة، ومحاولة منهم لإيقاعه فيها، فالإسلام الذي أوحاه الله إلى رسوله لا يُميز في الأحكام الشرعية بين الغني والفقر، والضعيف والقوي، ومن فعل ذلك؛ فقد انحراف عن المنهج الصحيح، واختلق منهجاً آخراً غير منهج القرآن، يتوافق مع أهواء الكبراء

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 170).

(2) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (3/ 178).

والأغنياء، ولو فعل محمد ﷺ ذلك ووافقهم على اقتراحاتهم السيّئة لأصبح صديقًا محبوبًا عندهم، لأنه استجاب لأهوائهم.!

وفي الآية إشارة إلى عصمة الله لنبيه ﷺ من الخطأ في الاجتهاد، وتثبيت له وللمؤمنين، وتأييس للمشركين من استجابته لاقتراحاتهم[1].

وقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾﴾، **"لولا"** حرف امتناع لوجود، امتنع الانحراف لوجود التثبيت من الله له، فقد عصمه من الاستجابة لمقترحاتهم وصرف تفكيره عنها، والركون هو الميل اليسير[2] إلى التفكير في مقترحاتهم، ولكن الله صرفه عن ذلك وعصمه منه وثبته على الحق الذي أمره به، ولو استجاب لما اقترحوه عليه وخالف أمر الله لعذبه الله عذابًا ضِعف ما يعذب به غيره، في الحياة الدنيا وفي الآخرة[3]، ولا يجد له من يُنقذه منه ولا من يدفعه عنه، وإنما هدده بمضاعفة العذاب لو خالف؛ لأنه قدوة وأسوة لغيره، فكما أنه يُضاعف له الأجر والثواب في العمل الصالح، فكذلك لو حصل منه المخالفة تضاعف له العقوبة، وفي الخطاب إرشاد وتوجيه وتخويف وتهديد لأمته من بعده، كي تحذر من تغيير المبادئ والمناهج من أجل الدنيا أو موافقة المجرمين.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 172).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 294).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 421).

وقولـــه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾، وقد أوشك المشركون من أهل مكة أن يزعجوك يا محمد، بكثرة عدواتهم وإيذائهم لك، لكي تترك مكة لهم وتخرج منها[1]، وقد منعهم الله من ذلك، حتى أذن الله له بالهجرة، فقد فكروا في طرده منها، ولكن تغير اجتهادهم أثناء اجتماعهم في دار الندوة، فاستبدلوا الطرد بالقتل له، ولو حصل منهم ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً ثم يهلكهم الله بعذاب من عنده، وقد خرج رسول الله ﷺ بعد ذلك مهاجراً، وكانوا السبب في خروجه فكأنهم أخرجوه، فحصل لبعضهم ذلك التهديد بعد الهجرة بسنة ونصف تقريبـًا، حين خرجوا إلى بدر وقُطعت رؤوس كثير من صناديدهم هناك[2]، فسنّة الله المطّردة التي لا تتخلف أن كل من آذى الرسل وأخرجهم من ديارهم فإن الله يهلكه عاجلاً، وهذه السنّة ثابته قدراً وكونـًا لا تتبدل ولا تتغير، **والتعبير بـــ"لا تجد"** مبالغة في الانتفاء[3]، وأضاف الله السنّة مرة إلى الرسل باعتبارها جارية على من أخرج الرسل، ومرة إلى نفسه باعتبار أن الله هو من يجريها عليهم.

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 511).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 915).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 180).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن مُشركي زماننا أكثر شركًا من مشركي كفار قريش؛ لأن كفار قريش كانوا إذا اشتد بهم الأمر دعوا الله مخلصين له، بخلاف مشركي اليوم.

2- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحاسب الإنسان يوم القيامة على ما كُتب في صحيفة عمله ويدعوه بها.

3- بيان تكريم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لبني آدم، ولكن بعضهم لم يُحافظ على هذا التكريم بسبب كفره بالله.

4- من فضل الله ونعمته على رسوله ﷺ أن عصمه وحماه من خداع الكفار وفتنتهم له.

5- أن سنّة الله المطّردة التي لا تتخلف أن يهلك كل من آذى الرسل وأخرجهم من ديارهم.

تفسير المقطع السابع من سورة الإسراء

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ
مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا
﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا
نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ
مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ
أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ
هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ
إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا
وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ
ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ
ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا
كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ ﴾، **هذه الآية ذكرت أوقاتًا للصلوات الخمس** بعد أن تقرر فرضها في رحلة الإسراء والمعراج، فأمر الله نبيه محمداً ﷺ، والأمر له

هو أمرٌ لأمته بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، **فدُلوك الشمس** من وقت زوالها إلى غروبها[1]، **واللام** للتوقيت، فإذا زالت الشمس عن كبد السماء فقد دخل وقت الظهر، ويشمل هذا الوقت صلاتي الظهر والعصر، إلى دخول غسق الليل وهو ظلمته[2]، فيشمل هذا الوقت صلاتي المغرب والعشاء، **والمقصود بقرآن الفجر** هو صلاة الفجر، **وسُميت صلاة الفجر قرآنًا**؛ لكثرة ما يُتلى فيها من قرآن، ونُصب على المفعولية بفعل محذوف، **ثم بيّن فضيلة صلاة الفجر** بأن ملائكة النهار وملائكة الليل تشهدها[3]، **وفي الحديث**: **"يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون"**[4].

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾، **من** للتبعيض، **أي**: وقم في بعض الليل بعد نومك فيه لصلاة الليل، والتهّجَد والهجود في الأصل هو النوم بالليل[5]، ولكن جاء التفّعل فيه لأجل التجنب له، وسميت بصلاة التهجد لأنها جاءت بعد نوم، والضمير المجرور راجع إلى القرآن، **أي**: صلِّ صلاة الليل وأكثر فيها من القرآن، **والنافلة** هي الزيادة،

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 129).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 255).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 916).

(4) صحيح البخاري: (1/ 115)، برقم: (555).

(5) ينظر: الصحاح: (2/ 555).

والمعنى أن صلاة الليل زيادة لك على الفريضة في الأجر، وقد كان قيام الليل واجباً في بداية الإسلام، ثم خفف عنهم بعد سنة كاملة[1]، فصار مستحباً للمؤمنين، وبقي النبي ﷺ مُحافظاً عليه على أصل الوجوب الأول، و"**عسى**" من أفعال الترجي إذا جاءت مضافة للمخلوق، أما إذا أُضيفت إلى الخالق فهي على اللزوم، لأن الله لا يمنعه شيءٌ من تنفيذ ما وعد به، والمقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة للفصل بين العباد[2]، فإن أولي العزم من الرسل كلهم يعتذرون عنها، **كما في الحديث**: "**فأقول أنا لها، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخرّ له ساجداً، فيقول: يا محمد؛ ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع**"[3]، فهذا هو المقام المحمود الذي تحمدُه فيه الخلائق كلها.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾، **وأمر الله نبيه محمداً** ﷺ أن يدعو ربه بأن يُوفقه ليكون مدخله إلى أيّ عمل يعمله صدقاً، ومخرجاً منه صدقاً، والصدق إذا وصف به الشيء فمعناه الصحة والتمام والكمال[4]، فيدخل جميع أعماله، كهجرته، وفتحه لمكة وعودته إليها، ودخوله إلى المدينة، ونحوها من الأمور التي ذكرها

(1) ينظر: الحديث في صحيح مسلم: (1/ 512)، برقم: (746).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 443).

(3) صحيح البخاري: (9/ 146)، برقم: (7510).

(4) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 449).

بعض المفسرين[1]، فكلها يشملها اللفظ، سواءً كان ذلك في باب الأعمال الدنيوية أو في باب الأعمال الأخروية من عبادات وطاعات وقربات ونحوها، فهو دعاء بالتوفيق والسداد لإنجاز أي عمل أُخروي أو دنيوي على أكمل وجه[2]، ودعا الله أن يجعل له حجة وبرهانًا وقوة في الحق ينتصر بها على من خالفه[3]، فيشمل ذلك القوة الحسية والقوة المعنوية.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، **وأمر الله نبيه** ﷺ أن يُخبر الناس أن الحق الذي أرسله الله به قد جاء بكماله وقوته وانتصاره وانتشاره، وسينتصر وينتشر، وأن الباطل من الشرك والكفر والمُنكر الذي يدين به المشركون سيذهب وينتهي إلى غير رجعة، **وزهق الباطل معناه:** اضمحل وبطل وهلك وذلك إذا غلبه الحق[4]، **ثم وصف الباطل** بالاضمحلال في كل زمان ومكان وممن أتى وكان!، فلا تخشى يا صاحب الحق من انتفاش الباطل أحيانًا، فإنما هي جولة من جولاته وانتفاش مُؤقت له، ثم يهزم ويضمحل؛ فالزهوق وصفٌ لازم له، وتخيلوا معي كيف سيكون حال المسلمين وهم بهذه العقيدة وهذا اليقين وهم ينظرون إلى الباطل المنتفش الظاهر حولهم،؟!!

إن التأمل والتدبر لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، بلسم وعلاج لنفوس

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 48).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (3/ 479).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 917).

(4) ينظر: تاج العروس: (25/ 423).

المؤمنين الواثقين بالله وبشرعه الذي ارتضاه لهم، كي لا يُصابوا بالهلع لانتفاش الباطل اليوم، بل يجب أن يكونوا أكثر يقيناً وثباتاً على الحق ولو ضعف مناصروه، ولعل هذا يفسّر لنا ما يعيشه المجاهدون في غزة خلال سنتين من بطش الصهاينة بهم وهم صابرون مرابطون ينتظرون النصر!، فهم مقتنعون بانتصار الحق في يوم من الأيام، وزوال الباطل وهلاكه في يوم من الأيام.

وقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية يوم فتح مكة[1] وهو يحطم الأصنام التي حول الكعبة، رغم أنها كانت قد نزلت عليه بمكة قبل الهجرة، وحملها معه إلى المدينة، وانتظر في المدينة ثماني سنوات حتى منّ الله عليه بفتح مكة، فدمّر الأصنام التي حول الكعبة وهو يتلوها، معلناً ذهاب الباطل وأهله ومناصريه، وسقوطه بسقوط أصنامه وتدميرها!!.

وقولـــه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾، **إنزال القرآن على رسوله ﷺ** نعمة له وللمؤمنين وللعالم كله، فهو رحمة وهداية لهم، و"**مِن**" هنا للبيان، فإن القرآن كله شفاء[2]، فيشمل الشفاء الحسي والمعنوي، فهو شفاء من الأمراض المعنوية، مثل الجهل والسحر والعين، وسائر أمراض النفوس، وشفاءٌ للأمراض الحسية، من أمراض الأبدان والأجساد، وعلى قدر قوة اليقين والإخلاص عند الراقي والمرقي يكون الأثر، وقد يتخلف الشرطان؛ فيكون الراقي غير مخلص والمرقي عليه غير

(1) صحيح البخاري: (3/ 136)، برقم: (2478).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 123).

متيقن، وقد يتخلف أحدهما، وخاصة في هذا العصر حين كثرة عيادات الرقية الشرعية وتحولت إلى مهنة يمارسها القراء طلبًا للأجرة، فضعفت الثمرة، وقلّ الأثر، كما أن البعض من المرضى يستمع إلى الرقية من باب التجربة دون يقين، وهذا الأمر لا يجوز مع القرآن الكريم، فلا بد من اليقين بأنه شفاء، لهذه الأسباب وغيرها حصل ضعفٌ في تأثير القرآن في حياة الناس وشفاء أمراضهم الحسية والمعنوية، كما أن القرآن رحمة يرحم الله به المؤمنين العاملين به، فأما من لا يعمل به فإنه لا يُرحَم به، بل يصبح حجة عليه، فمن عمل به رفعه الله، ومن تركه وضعه الله، **وفي الحديث**: **"إن الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا ويضع آخرين"**[1]، فهو شفاء ورحمة للمؤمنين، أما الظالمون؛ وهم الكافرون بالله، المكذبون بالقرآن، فإنهم يزدادون بالابتعاد والإعراض عن الإيمان به خسارة، وذلك لأن سماع القرآن يغيظهم ويحنقهم، ويدعوهم إلى زيادة ارتكاب القبائح تمرداً وعناداً، فعند ذلك يهلكون[2].

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾، **أخبر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ** عن طبيعة الإنسان الكافر الذي يعرض عن شكر نعم الله عليه في الرخاء، ولكنه يذكره ويدعوه إذا نزلت به الشدة والمصائب، ونأى هنا بمعنى أعرض وابتعد عن الإيمان وابتعد عن العمل به، والباء للمصاحبة، **أي**: ابتعد مصاحبًا جانبه[3]، وهو كناية عن الإعراض الكلي بقلبه وجسده، **فالنأي**

---

(1) صحيح مسلم: (1/ 559)، برقم: (817).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 301).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 192).

ثمرة للإعراض، فمن أعرض بقلبه عن الحق فلن تمتثل جوارحُه العمل به بصدق، والغالب على الكافر القنوط واليأس من رحمة الله عند نزول المصائب والشر به، بخلاف المؤمن فإنه لا يقنط من رحمة الله، ولا يُعرض عن شكر نعم الله، بل لديه اعتدال في التعامل مع النعمة والنقمة؛ إن نزلت به نعمة شكر الله، ولم يصبه العجب والغرور بسببها، وإن نزلت به نقمة صبر، ولم ييأس ولم يقنط من رحمة الله.

وقوله: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾، **قل يا محمد للمشركين والمؤمنين**: كل إنسانٍ منا أو منكم يعمل على مذهبه وطريقته التي اعتاد على العمل بها، **والشاكلة**: الطريقة والسيرة التي اعتادها صاحبها ونشأ عليها[1]، فللكافر طريقة وشكل في الحياة، وللمؤمن طريقة وشكل في الحياة، على مستوى التصور والتفكير والعمل والعادات، وذكر أمر الهداية على الاحتمال بين الطرفين من باب التنزل مع الخصم؛ ليُفكر الكافر في حاله ويرى أن طريقته سيئة وذلك أقوى في قبوله للنصيحة، وفي الآية تعريض بانحراف الكفار ومدح وثناء على المؤمنين، فطريقهم أقوم وأحسن طريق، وهو الدين الذي ارتضاه الله للناس.

وقوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾، **ورد في بيان من هم الذين سألوا محمداً ﷺ عن الروح روايتان، الرواية الأولى**: أنهم كفار قريش، فقد سألوا أهل الكتاب عن شيءٍ يمتحنون به

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 194).

محمداً ﷺ، فقالوا لهم: سلوه عن الروح[1]، **والرواية الثانية:** أن السائل له هم اليهود بعد هجرته إلى المدينة[2]، **فرجّح بعضهم الأولى**، لأن السورة كلها مكية[3]، **وبعضهم رجح الرواية الثانية**، لأنها أصح[4]، **وقال بعضهم** بتعدد النزول[5]، **والمقصود بالروح هنا على القول الصحيح**: النَفَس الذي يتحرك في الجسد، وبه تكون الحياة[6]، خلافًا لمن قال: إن الروح جبريل، أو إن الروح هو القرآن، فإنهما معلومان، وحقيقة وماهية الروح غيبٌ اختص الله بعلمه، مثلها مثل أشياء كثيرة لا نعلمها، فالعلم الذي أعطاه الله للخلق بالمقارنة إلى علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو قليل جداً، وفي قصة موسى مع الخضِر، وقد رأيا طائراً أخذ بمنقاره من ماء البحر، **فقال له الخضر**: "والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر"[7].

وقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾، ولو شاء الله أن ينتزع منك ما أعطاك من الوحي لفعل، ولكنه لم يشأ ذلك، ولو فعل فلا يوجد

(1) مسند أحمد: (4/ 154)، برقم: (2309)، سنن الترمذي: (5/ 155)، برقم: (3140)، وإسناده صحيح.
(2) صحيح البخاري: (1/ 37)، برقم: (125).
(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 114).
(4) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 541).
(5) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 196).
(6) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 919).
(7) صحيح البخاري: (6/ 89)، برقم: (4726).

وكيل لك يُطالبنا بإرجاعه إليك، بل الوحي كان مِنّة ورحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك، **كما في قوله:** ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورى:52]، و"**إلا**" أداة استثناء منقطع[1]، بمعنى لكن، **والمعنى:** ولكن أبقيناه لك في صدرك رحمة، كما منحناك إياه من قبل رحمة ومِنّة عليك، ثم علّل سبب عدم حرمانه من الذي أوحاه الله إليه؛ لأن فضله عليه كبير وعظيم، فقد خصه بمجموعة من الفضائل والخصائص لم يعطها أحداً من الأنبياء والرسل قبله، **وفي الآية إشارة** إلى بقاء القرآن وحفظه[2].

ثم قال الله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾، ثم أشاد بمكانة القرآن وعظمته وإعجازه، وأنه المعجزة الخالدة لمحمدٍ ﷺ، فقد تحدّى الله به الجن والإنس، وطلب منهم أن يأتوا بمثله، **والمقصود بالمماثلة هي** مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع التي احتوى عليها القرآن الكريم، فلو تواردت عقول الإنس والجن على أن يأتي كل واحد منهم بمثل هذا القرآن لما أتوا بمثله[3]، ولو تعاون الجن والإنس كلهم ووقف كل شخص منهم مع غيره يُناصره ويُعاونه من أجل أن يأتوا بشيء مثل القرآن ما استطاعوا، وهذا دليل كافٍ في إعجاز القرآن، وأنه الحجة البالغة، والمعجزة الخالدة لنبيه محمد ﷺ.

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 919).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 202).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 203).

وقولـــــه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾، ولقد بيّن الله ونوّع للمشركين المكذبين الحُجج والبراهين من الأدلة الحسية والمعنوية والعقلية والعاطفية، المضروبة لهم في هذا القرآن التي بها العظة والعبرة لعلهم أن يتذكروا ويتّعظوا بها فيُؤمنوا، فلم يستفد أكثر الناس منها، بل أعرضوا وامتنعوا عن الإيمان، وأصروا على الجحود والإنكار لبراهين وحجج القرآن.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن المسلم بحاجة إلى التعبّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسائر أنواع العبادات، ومن أعظمها الصلاة، سواءً كانت فريضة أو نافلة، وكلما أكثر العبد من النوافل كلما أحبه الله ورفع مقامه عنده.

2 - أن الحق مُنتصر ولو ضعُف أصحابه أحيانًا، وأن الباطل مضمحّل ولو انتفش أحيانًا.

3 - أن القرآن كله شفاء، وأن من استشفى به بصدق وإخلاص ويقين شفاه الله.

4 - أن من طبيعة الإنسان الكافر الفرح بالنعم، واليأس والقنوط من المصائب.

5 - أن القرآن هو المعجزة الخالدة التي تحدّى الله بها الجن والإنس بأن يأتوا بمثله فعجزوا.

تفسير المقطع الثامن من سورة الإسراء

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ
فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ
إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا
رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ
زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ
تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾، **وقد تعددت**

اقتراحات كفار قريش لنبينا محمد ﷺ، ولم يطلبوها منه على سبيل الحقيقة لمعرفة صدقه، بل كانت على سبيل التعنت والجدال بالباطل، **ومنها**: أن تُخرج لنا نهراً من الماء ينبُع ويسيل في فجاج مكة، كنهر دجلة والفرات في العراق، وذلك لأن أرض مكة كانت قليلة المياه، بعيدة عن الجنات، أو يكون لك بستان مليء بشجر النخيل والأعناب، وخصوها بالذكر؛ لأنها كانت أفضل ما يتمناه العرب آنذاك في بساتينهم، **ومنها**: أن يكون لك في هذا البستان نهر خاص تتفجر من داخله العيون بغزارة، ثم تتفرغ إلى شُعب تُسقى بها كل نواحي البستان، وهم بهذا يلمحون إلى فقره، **والمعنى**: فلو كان نبياً مرسلاً يُحبه الله لما تركه فقيراً، بل لمنحه بستاناً فيه أعناب ونخيل وأنهار فيصير من أغنى الناس ومن أكثرهم عطاءً.

وقوله: ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ ﴾، **ومن الاقتراحات**: إن كنت رسولاً حقاً؛ فأسقط علينا قطعاً من العذاب من السماء كما توعدتنا بذلك، فإن النبي ﷺ كان قد أخبرهم بأن الله أهلك من قبلهم من الأمم المكذبة بعذاب من السماء، فقالوا له: اطلب من الله أن يُسقط علينا قطعاً من العذاب من السماء بسبب كفرنا بك، ثم ازدادوا عناداً وتكبراً فطلبوا منه أن يأتي بالله والملائكة معه لتراهم أعينهم، ويشهدوا أنه رسول من الله حقاً، أو أن يكونوا ضمناء وكفلاء عليه[1]، ولا تعارض بين القولين فيحتمل أنهم أردوا منه الأمرين معاً.

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 921).

وقولــه: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾، **ومــن الاقتراحات التي طلبوها من رسول الله ﷺ**، أن يكون له بيت من الذهب[1]، فقد كانوا يسمعون عن بيوت ملوك الفرس والروم بأنها منقوشة ومطلية بالذهب، فلماذا لا يكون له قصور مثلهم؟، **ومن اقتراحاتهم:** أن يصعد في درجات السماء بسلّمٍ وهم ينظرون إليه، ولو فعل ذلك فلن يصدقوا أنه رقى حتى ينزل عليهم كتاباً لكل واحد منهم يقرأه بنفسه، مكتوب فيه هذا كتاب من الله لفلان بن فلان أن محمداً رسول الله فآمن به، فهذه ستة مقترحات طلبها الكفار من رسول الله في هذه السورة عناداً واستهزاء، ولذا لم يلتفت إلى طلبهم، بل أجابهم بأمر الله له أن يقول لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾، وهي عبارة تعجب واستغراب من طلباتهم، وتنزيه لله عن أن يتقدم أحد بين يديه في أمر هذا الكون، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم[2]، وأبلغهم بصفاته، فهو بشرٌ مثلهم أرسله الله إليهم لدعوتهم إليه، وليس في قدرته شيء مما طلبوا، فهو لا يملك لنفسه ضَراً ولا نفعاً، وليس من شأنه تنفيذ مقترحاتهم.

وقولــــه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾، **ثم ذكر الله شبهة منعت كفار مكة من الإيمان بالله**، وقد

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 260).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 121).

جاءهم القرآن الكريم على لسان رسول الله ﷺ، وفيه البينات والرشاد لهم، **وهي قولهم على سبيل التعجب والإنكار:** كيف يبعث الله بشراً رسولاً؟! فالله أعظم من أن يكون رسوله من البشر!، وهي شبهة باطلة قالها عدد من أقوام الرسل السابقين لرسلهم، وقد أبطلها الله، حيث أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: إن سنّة الله اقتضت أن يكون الرسول من جنس المُرسَل إليهم، ولو كان في الأرض ملائكة يعيشون مقيمين ومستوطنين فيها واحتاجوا إلى رسولٍ، لأرسل إليهم رسولاً من جنسهم؛ ولمّا كنتم أنتم بشراً؛ بعثنا فيكم رسلنا منكم، لطفاً ورحمةً بكم، لأن الحكمة من ذلك هي الأسوة والقدوة بأفعاله وأحواله كلها، **كما قال:** ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:21]، ولو أرسل الله رسولاً من الملائكة إلى البشر لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، وهذا يقتضي أن يتمثل لهم في شكل إنسان، ويخرج عن هيئة الملائكة، فيحصل لهم اللبس فلا يُؤمنون به لأنه إنسان، **كما قال:** ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام:9].

وقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾، **ثم أمر رسوله** بأن يُجيبهم على مقترحاتهم الباطلة كلها، **بقوله:** كفى بالله وحده شهيداً على إبلاغي إليكم ما أمرني به من أمور الرسالة، ويكون شاهداً عليّ وعليكم، وحكَماً بيني وبينكم، فإنه خبير بصير بأحوال عباده، فالخبير هو المحيط علماً بجزئيات الأشياء، والبصير المطّلع على خفايا النفوس وأسرارها، وسوف يجازيهم عليها، وفي العبارة تهديد ووعيد للمكذبين،

وتسلية وتطمين لرسوله الكريم ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾، **ثم بيّن** أن هداية التوفيق بيد الله وحده، وأن مهمة الرسل الإرشاد والنصح والتوجيه، فمن وفقه الله للإيمان والهداية فهو الموفق حقـًا، ومن يُضلّه الله ويخذله عن معرفة الحق واتباعه والإيمان به فلن تجد لهم يا محمد أولياء ينصرونهم ويُدافعون عنهم حين ينزل بهم عذاب الله بسبب كفرهم وضلالهم وإعراضهم عن الحق، بل يحشرهم الله يوم القيامة يسحبون على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه[1]، **وفي الحديث**: أن رسول الله ﷺ سُئل كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟! فقال: **"أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة"**[2]، فقدرة الله لا يقف أمامها شيء، ويحشرون محرومين من حواسهم التي كانت معهم في الدنيا عقوبةً لهم، لأنهم لم يستخدموها آنذاك في معرفة الحق واتباعه، فأعمى الله أبصارهم؛ وأخرس ألسنتهم؛ وأصم أسماعهم؛ وبعثهم الله بهذا الوصف، ليكون ذلك زيادة في عذابهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فمن فعل شيئًا في الدنيا جازاه الله بجنسه في الآخرة، ولا تعارض بين هذا الوصف وبين الآيات الأخرى التي فيها أنهم يتكلمون وينظرون ويسمعون، فإنهم يحشرون

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 333).

(2) صحيح البخاري: (6/ 109)، برقم: (760).

على ما وصفهم الله به هنا، ثم تعاد إليهم هذه الأشياء بعد ذلك[1]، ثم مصيرهم بعد الحشر ومكانهم الذي ينزلون فيه ويأوون إليه هو جهنم ذات النار المشتعلة عليهم، كلما سكن لهيبُ أجسادهم بدَّلهم الله جلوداً جديدة فتلتهب مرة أخرى ويزداد اشتعالها[2]، فإن النار لا تخبت ولا تنطفئ ولا تفنى، بل الذي يضعف اشتعاله هو جلد الكافر وجسده، كما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[النساء:56]، فإذا صار الجلد رماداً ضعف اشتعاله، فيُعيده الله جلداً حياً فيشتعل مرةً أخرى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾، "ذلك" إشارة إلى ما سبق ذكره من العذاب الذي يُجازَون به في الآخرة بسبب جحودُهم وإنكارهم لآيات الله الشرعية التي جاء بها القرآن وكانوا يستهزئون ويكفرون بها، وجحودهم لآيات الله الكونية التي فيها دلالة على توحيد الله ثم هم يشركون به، وبسبب أنهم أنكروا البعث والنشور، فقد تساءلوا تساؤل المُنكر المستغرب، كيف يُبعَثون ويُحيَون بعد أن صارت أجسادُهم عظامًا باليًا، وأجزاء مُفتتة، فهل سنُبعث ونُحشر خلقًا جديداً كما كنا قبل ذلك؟!.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾، فرد الله على استنكار

(1) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 132).

(2) ينظر: تفسير ابن جزي: (1/ 455).

المشركين للبعث والنشور بسؤال تقريري لهم: كيف تقرّون بقدرته على خلق ما هو أعظم من الناس، ولا تقرّون بقدرته على بعثهم؟!، لأنهم يقرّون بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وهي أكبر من خلق الناس، فمن باب أولى أنه قادرٌ على إعادة الناس وبعثهم مرة أخرى، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل لهم ولغيرهم موعداً محدداً للبعث والنشور لا شك في حصوله ووقوعه، وخصهم بالذكر لأنهم المنكرون له، ويحتمل أن يكون المقصود بالأجل أجل حياتهم، فما أوجدهم وأحياهم إلى أجلٍ ثم أماتهم إلا لأنه سيعيدهم إلى حياة أخرى(1)، إلا أن الكفار الظالمين لأنفسهم بالكفر يرفضون الإيمان بالله، وجحدوا البعث والنشور مع وضوح أدلته الحسية والمعنوية.

وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾، **ثم أمر الله نبيه** ﷺ أن يقول لكفار قريش وأمثالهم من المُنكرين للبعث والنشور، ومن الذين اقترحوا عليه تلك المُقترحات ليكثر مالهم ويتسع عيشهم، أخبرهم بأنهم لو ملكوا المال الكثير لبخلوا به؛ لأنهم جُبِلوا على الإمساك، فإن البخيل لا ينفعه كثرة المال، بل لو قُدِّرَ أن كانت كل خزائن الأرزاق بيدهم؛ لأمسكوا المال بخلاً وشُحّاً؛ بحجة أن الإنفاق يُؤدي إلى ذهاب المال وحصول الفقر(2)، وكان الإنسان مجبولاً على حب المال والحرص عليه، بخيلاً في إنفاقه، وهذا وصفٌ لازمٌ للكافر، فإنه بخيل في إنفاقه في أبواب

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 221).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 492).

الخير، فالشيطان يمنعه من ذلك ويُخوفه بالفقر، **كما في قوله:** ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾[البقرة:268]، وإذا كانت النفقة في الشر؛ شجّعه الشيطان عليها، وانظروا إلى أحوال الكفار اليوم وكثير من عصاة المسلمين الذين يبخلون في النفقات في أبواب الخير، بينما يفعلون عكس ذلك في أبواب الشر والفساد، فطبيعتهم البخل بالنفقة في الخير، والتبذير بالنفقة في الباطل والشر.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن من رحمة الله بالخلق أن يُرسل الرسل من جنس المُرسَل إليهم ليكونوا قدوة وأُسوة لهم، وبطلان شبهة الكفار في ذلك.

2- بيان أن رسول الله ﷺ لا يحتاج إلى شهادة الكفار له بالرسالة، فيكفيه أن الله قد شهد له بها مهما كذّبه المكذبون.

3- بيان أن التوفيق للهداية بيد الله، وأن الرسل لا يملكونها، وإنما يملكون هداية الدلالة والإرشاد.

4- بيان أن النار لا تفنى، ولا يخمُد لهيبُها، وإنما الذي يخمد لهيب أجساد الكفار حينما تنضج جلودهم فيُبدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

5- بيان أن من طبيعة الإنسان أنه بخيل يُحب المال ويحرص عليه ولا يُنفقه في طاعة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهذا وصفٌ لازمٌ للكافر، أما المؤمن فإن الإيمان يهذبه من هذه الصفة.

المقطع التاسع من سورة الإسراء

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ
ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا
وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا
تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ
سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩
﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا
تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي
ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ ﴾، **يُخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن الآيات والمعجزات الواضحات البينات التي أرسل الله بها موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى فرعون وقومه، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً، **وهي:**

اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنون، ونقص الثمرات[1]، وليست هذه كل معجزات موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل له معجزات غيرها مع بني إسرائيل، **منها**: شق البحر، ورفع الطور فوقهم، وإنزال المَن والسلوى عليهم، وفجّر لهم اثنتي عشرة عيناً، وغيرها، والخطاب لمحمد ﷺ، **والمقصود بالسؤال** سؤال احتجاج على المشركين، لا سؤال استرشاد[2]، فإن النبي ﷺ قد جاءه الحق من الله ولا يحتاج إلى أن يسترشد من أحد، **والمعنى**: إذا أراد قومُك أن يتأكدوا من ذلك؛ فمرهم أن يسألوا المؤمنين الصادقين من بني إسرائيل، كعبد الله بن سلام وأصحابه، ليخبروهم بها، فقد جاء موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آل فرعون بهذه الآيات، فلم يُؤمنوا بها، بل اتهم فرعونُ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه مسحور، **أي**: يتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك[3].

قوله: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾، **فرد موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **على فرعون بقوله**: إنك يا فرعون تعلم في قرارة نفسك إنما جئت به ليس سحراً، وإنما هي آيات بيّنات ومعجزات ظاهرات، ولكنك لا تُريد أن تصدّق بها خوفاً على مُلكك، **كما في قوله**: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:14]، فقد كفروا بها ظاهراً، ظلماً لأنفسهم وتكبراً على الحق، وقلوبهم مقتنعة بصدقها، وأن الله

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 124).
(2) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 226).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 568).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أنزلها وصيّرها حججاً وبراهين واضحة لإثبات الحق، وكان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد استخدم معه الأساليب الليّنة والكلمات اللطيفة فازداد عُتواً ونفوراً، وأبى أن يُؤمن بالبراهين والحجج، فكان لا بد أن يقول له موسى في نفسه قولاً شديداً، وهو قوله له: إني متيقّن أنك هالك يا فرعون لا محالة، وليس في ذلك مخالفة للحكمة، فإن الحكمة ليست اللين مطلقاً، بل الحكمة وضع الشيء في موضعه، فقد تكون قولاً ليّناً، وقد تكون قولاً شديداً، فاهتز فرعون من هذه الكلمة، وأحس أن الموضوع جِدٌ ليس فيه هزل، والثبور هو الهلاك والخسران، يقال: ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك[1]، وحين تطاول كفار قريش على محمد ﷺ، وقد كان يتعامل معهم بلطف ولين، فلما رأى منهم ذلك التطاول، قال لهم كلمة أفزعتهم، وهي: **"والله يا معشر قريش لقد جئتكم بالذبح"**[2]، ففزعوا من ذلك، وطلبوا منه الرفق واللين، وهذا يعني أنه لا بد في بعض الأحيان أن يسمع المعاند من الداعية كلمة قوية، إذا كان في ذلك مصلحة راجحة للدعوة، والأصل في الدعوة أن تكون بالرفق واللين.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾، فعزم فرعون أن يُخرج موسى وقومه، ويطردهم عن أرض مصر، أو يزيلهم عن ظهر الأرض كلها بالقتل والاستئصال[3]، فلما علم بخروجهم من مصر لحقهم

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 263).

(2) مسند أحمد: (11/ 609)، برقم: (7036)، وإسناده حسن.

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 281).

للقضاء عليهم، فقُضي عليه بالغرق هو ومن معه من أركان ملكه وجنوده جميعًا، فلم ينجُ منهم أحد.!

وقوله: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾، **وقال الله لبني إسرائيل** الذين أنجاهم من مصر إلى الشام بعد غرق فرعون وقومه في البحر: اسكنوا الأرض، وهي أرض الشام[1]، وهي سيناء وما حولها، فإذا جاء موعد البعث والنشور حشرناكم مختلطين جميعًا، المؤمنين والكافرين، **واللفيف** الجماعات من قبائل شتى[2]، فيحشر الله الناس جميعاً منذ آدم إلى آخر البشرية، ثم يتم تقسيمهم بحسب أعمالهم الصالحة أو السيئة، وفي هذه الآيات بشارة للمؤمنين في مكة بأن الله سينصرهم كما نصر المستضعفين من بني إسرائيل، وفيها تهديد ووعيد لكفار قريش، وأن نهايتهم ستكون كنهاية فرعون وقومه للتشابه بينهم؛ فإن قريشًا أرادت أن تُخرج رسول الله ﷺ من مكة، وفيها بشارة للنبي ﷺ أن الله سيفتح له مكة وسيدخلها منتصراً.

وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾، ثم وصف الله القرآن الكريم بأن إنزاله بالحق، ووصف محتواه بأنه الحق، فلا تكرار، بل زكّاه حال نزوله، وزكّى ما احتوى عليه من الأحكام، والباء للملابسة، فهو ملابسٌ للحق لا ينفك الحق عنه، ولا هو ينفك عن الحق في كل أحواله وأحكامه، ثم ذكر المهمة العظيمة التي أرسل الله من أجلها محمداً ﷺ، وهي

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 927).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 263).

البشارة والنذارة، فهو بشير للمؤمنين، ونذير للكافرين، وليس من مهمته إدخال الإيمان إلى قلوب الناس، وفيها تسلية له ﷺ عند تكذيبهم له.

وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾، وأنزلنا عليك القرآن منجّماً ومفرّقاً على آيات وسور، فقد أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، كما في حديث ابن عباس، ثم مكث ينزل على رسول الله ﷺ مدة ثلاثٍ وعشرين سنة، وهي مدة حياته بعد البِعثة، واللام لام التعليل، **أي:** لكي تتلوه متمهلاً أثناء القراءة له، **والمقصود بذلك** الترتيل وعدم الاستعجال في قراءته، والهدف من القراءة المتأنية للقرآن في أوقات متفرقة هو التدبر لما فيه والفهم والاستيعاب لمعانيه.

وقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾، **ثم أمر الله رسوله محمداً** ﷺ أن يخاطب المشركين الذين كفروا بالقرآن: آمنوا به أو لا تؤمنوا، فسواء إيمانكم به وامتناعكم عنه، فإيمانكم لن يزيد القرآن رِفعة ومكانة، وعدم إيمانكم لن يُنقِص من قدره ومكانته شيئًا، وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلة المبالاة بهم[(1)]، **وهذا القول** قيل لهم بعد أن بذل معهم النبي ﷺ جُهداً مُضنيًا في دعوتهم لعلهم أن يُؤمنوا، ولا ينبغي للداعية أن يقول مثله للناس من أول وهلة، وإنما إن اضطر إلى قوله في موقف آخر فلا بأس، لأن بعض الناس حين يُعتنى بدعوته والحرص عليه كثيراً؛ يظن أنه عمود الإسلام فيزداد عُتواً

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 232).

ونفوراً، ويقول في نفسه: لو لم يكونوا محتاجين لي ما اهتموا بي هكذا!!، وهذا من سوء فهمه وجهله بمصلحة نفسه، فلا بأس إذا وصلت إلى طريق مسدود مع أمثال هؤلاء أن تقول له: تعلَّم أو لا تتعلم، استقم أو لا تستقم، فوجودك وغيابُك سواء؛ ليترك العلو والعناد والدوران حول الذات وغيرها من الصفات التي تُبعد الإنسان عن الاستقامة وقبول النصيحة، وإن دين الله منصور به أو بغيره، **كما قال:** ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[محمد:38]، ثم بيّن لهم أن غيرهم قد آمن به ممن أوتوا العلم من قبل نزول القرآن، ممن كانوا على ملة إبراهيم، كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم، أو من علماء بني إسرائيل، مثل عبد الله بن سلام وغيره[1]، فهم أرجح منهم عقولاً، فإنهم إذا سمعوا آيات القرآن تتلى عليهم آمنوا بها، وسجدوا بجباههم على الأرض خضوعاً لله وإيماناً به، والخرور هو السقوط على الأرض، **والمقصود** مسارعتهم بالسجود، والأذقان جمع ذقن وهو مُلتقى اللحيين، **وذكر الذقن** للدلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض من قوة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى[2]، **أو أن المقصود بالأذقان** اللِّحَى، وحقها الإكرام والتنظيف، فإذا أذلوها في التراب فهو دليل على التواضع[3]، **ويقولون أثناء سجودهم:** سبحان ربنا، تنزيهاً له عما لا يليق به، فهم قد جمعوا بين الفعل الدال على الخضوع لله والقول الدال على التنزيه والتعظيم له سبحانه، ولديهم

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 929).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (15/ 234).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (13/ 507).

يقين بأن وعد الله ببعثة محمد ﷺ[1]، الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء السابقين له، آتٍ لا محالة، لأنه لا يخلف الميعاد.

وقولــه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾، كــرّر ذكــر **الخرور**؛ لأن الأول للسجود خضوعـًا، والثاني للذّلة والخشوع عند استماع القرآن، فخرّوا خاضعين لله، وخرّوا باكين من خشية الله، ويزيدهم سماع وتدبر القرآن خشوعاً لله وتواضعـًا له سبحانه.

وقولـــه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾، هذه الآية جاءت جوابـًا على شبهة وقعت للمشركين، فإنهم سمعوا رسول الله ﷺ يذكر اسم الرحمن، وأحيانـًا يذكر اسم الله، فقالوا له: أنت تنهانا عن تعدّد الآلهة وأنت تعبد إلهين، فأمر الله رسوله ﷺ أن يرد على شبهتهم، بأن الله إله واحد، وله أسماء متعددة كلها بالغة الحُسن والكمال، فدعاؤهم الله، ودعاؤهم الرحمن يرجعان إلى ذاتٍ واحدٍة، فسواءٌ دعونا الله باسم الذات العليّة الله، أو بواحد من تلك الأسماء الحسنى، فلا فرق بينها، وقد أعلمنا الرسول ﷺ بأن لله تسعة وتسعين اسمـًا[2]، وهي كلها أسماء لذاتٍ واحدة، بخلاف تعدّد ذوات آلهة الكفار بتعدد أسمائها، ونهاه عن الجهر المبالغ فيه بالقراءة أثناء الصلاة، فقد كان النبي ﷺ إذا صلى تلا القرآن فرفع

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 128).

(2) ينظر: صحيح البخاري: (8/ 87)، برقم: (6410).

صوته ليُسمِع من معه، فيسمعه المشركون فيسبّون الله ويسبّون القرآن[1]، فأمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يعتدل في القراءة بحيث لا يرفع صوته حتى يكون سبباً في سبّ المشركين للقرآن ومن أنزله، ولا يكون صوته منخفضاً فلا يسمعه من خلفه من الناس، بل يكون متوسطاً بينهما، والاعتدال مطلوب في كل الأحوال.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يحمد الله الحمد الكامل المستغرق لكل المحامد، المنفرد في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، الواحد الصمد الذي ليس له زوجة ولا ولد، وفي ذلك ردٌّ على كل من نسب الولد إليه من اليهود والنصارى والمشركين، المنفرد في الخلق والإيجاد والملك والتدبير، وذلك ردٌّ على من أشرك مع الله غيره، فهو عزيز بذاته قاهر لخلقه، لا يحتاج إلى ناصر ينصره من العجز والافتقار، فهو قادر غنيٌّ عنهم، وإنما له أولياء ينصرون دينه وهو ينصرهم، وعظّمه في نفسك وكبّره بلسانك، واجعل الله كبيراً أمام كل شيءٍ في هذه الحياة، فالله أكبر من هواك ومن مصالحك فلا تقدمها على الله، واجعل الله كبيراً في نظرك، وفي فكرك، وفي قلبك، فلو كبّرنا الله وعظّمناه في قلوبنا حق التعظيم لما عصيناه، فإنما يعصي العاصي ربه حينما يغفل عن تعظيمه في نفسه، **ولذا قيل:** لا تنظر إلى صِغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيت[2].

---

(1) ينظر: صحيح البخاري: (6/ 87)، برقم: (4722).

(2) ينظر: الزهد لابن المبارك: (1/ 23).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الحجج والبراهين لا تنفع مع الطواغيت، لأنهم لا يخضعون لها، بل ينكرونها ويستخدمون قوتهم وسلطتهم في إبطالها.

2- بيان جواز أن يُقال للمخالف والعاصي في نفسه قولاً بليغًا أحيانًا؛ لعلّه أن يرتدع عن كفره ومعصيته.

3- بيان فضل القرآن، وحكمة نزوله مفرقًا على عدة سنوات، واستحباب قراءته بتدبر وتمهل للفهم والاستيعاب والتأثر.

4- بيان فضل أهل العلم الصادقين من الأمم السابقة.

5- بيان جواز البكاء داخل الصلاة، كونك تقرأ وتبكي وأنت تصلي وأنت ساجد، هذا لا يُبطل الصلاة، بل يجوز لك ذلك، وهو علامة على الخشوع.

6- بيان أهمية الاعتدال في كل شيء، ومنها القراءة في الصلاة، والدعاء.

7- بيان أهمية تعظيم الله وتكبيره في القلب وفي النفس ليكون لذلك أثر على واقع الإنسان مع عباداته والابتعاد عن معاصيه جَلَّ وَعَلَا.

تفسير سورة الكهف

تفسير المقطع الأول من سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا
شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا
لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾.

شخصية السورة:

سورة الكهف[1]؛ هذه السورة العظيمة التي نزلت بمكة[2]، في فترة كان النبي

---

(1) **سورة الكهف**: مئة وعشر آيات، **وحروفها**: ستة آلاف وثلاث مئة وستون حرفًا، **وكلمها**: ألف وخمس مئة وسبع وسبعون كلمة، **وترتيبها في المصحف**: السورة الثامنة عشرة بعد سورة الإسراء، ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجير الدين الحنبلي: (4/ 143).

(2) **قال القرطبي**: هي مكية في قول جميع المفسرين. ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 346).

ﷺ وأصحابه مستضعفين فيها ويتعرضون للإيذاء والتكذيب.

وقد جاء في سبب نزولها: أن المشركين من أهل مكة ذهبوا إلى يهود المدينة يستفسرون عن رسول الله ﷺ، ويريدون أن يتأكدوا هل هو نبي أم لا؟! فسألوا اليهود: ماذا نسأله؟ فقال لهم اليهود: سلوه عن ثلاثة أمور؛ فإن أجابكم عنها فهو نبيٌ، سلوه عن أصحاب الكهف، واسألوه عن رجل طاف المشرق والمغرب[1]، واسألوه عن الروح[2].

فرجع كفار قريش إلى رسول الله ﷺ بهذه الأسئلة التي كانوا يظنون أنها أسئلة تعجيزية، فنزل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بسورة الكهف فيها الإجابة عن هذه الأسئلة وعن غيرها من القصص التي لا تعلم بها قريش.!!

وهذه السورة فيها مجموعة من القصص التي تبيّن أن هذا القرآن ليس من عند رسول الله ﷺ، وإنما هو من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذ هذه القصص من الصعوبة أن يفصل فيها إنسان لا يقرأ ولا يكتب، خاصة مع قدم زمانها وتفاصيل أجزائها.

وقد ورد في فضل هذه السورة بعض الأحاديث، منها: كما في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: "**من حفظ عشر آيات من أوائل سورة الكهف عُصم من الدجال**"[3]، **وفي رواية أخرى:** "**من أواخرها**"[4]، ولذا يستحب للمسلم أن يحفظ

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 592).

(2) رواه البخاري: (6/ 87) برقم: (4721)، ومسلم: (4/ 2152) برقم: (2794).

(3) باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي: (1/ 555) برقم: (809).

(4) هذه رواية شعبة. صحيح مسلم، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي:(1/ 556) برقم: (809).

عشر آيات من أولها وآخرها؛ ليحفظه الله من الدجال بها.!!

ومن فضائلها أيضًا: أنها تُقرأ يوم الجمعة، **لقوله** ﷺ: **"من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له نورٌ ما بين الجمعتين"**[1]، فيستحب للمسلم أن يقرأها يوم الجمعة أو ليلة الجمعة لهذا الحديث.

وقد ابتدأت هذه السورة بالحمد والثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال الله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾، هذا ثناء من الله سبحانه على نفسه، فإنه المحمود جَلَّ وَعَلَا في الآخرة والأولى، وهو الذي يُحمد من خلقه كما أنه حمد نفسه، ويَحمَدُ الله تعالى نفسه في مبدأ الأمر وختامه، وفي الأولى والآخرة، وفي كل حال.

والحمد: هو الثناء على الله مقابل نعمه، والنعمة هنا: هي إنزال القرآن الكريم، والعبد المقصود به محمد ﷺ، فوصفه هنا بالعبودية عند إنزال الكتاب عليه، لأن العبودية هي أعلى المراتب بالنسبة للمخلوق، فكلما ترقيت في مراتب الصفات وارتفعت، فأعظمها رتبة: أن تكون عبداً لله وحده لا شريك له، وقد **وصفه الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبودية في أشرف الأحوال وأكملها، حيث وصفه بالعبودية عند الإسراء به، **فقال**: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾[الإسراء:1]، **ووصفه الله بالعبودية عند نزول الوحي عليه، فقال**: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم:10]، **ووصفه الله بالعبودية عند قيامه**

(1) أخرجه الحاكم: (2/ 368) برقم: (3392)، والبيهقي في السنن الكبرى: (3/ 353) برقم: (5996)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (6470).

بالدعوة والتبليغ، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن:19]، وغيرها من الآيات.

وهذا يدلنا على أن العبودية لله مرتبة عظيمة؛ يترقى فيها العبد حتى يصل إليها، والوصف بها مدح وثناء!! أما العبودية لغير الله فهي نزول وهبوط، والوصف بها مذلة ورق.!!

ومن تعظيم الله لرسوله ﷺ أنه لم يناده باسمه المباشر، وإنما بالصفة: (يا أيها الرسول، يا أيها النبي)، ومثله هنا قال: (على عبده)، فأخبر عنه بصفة العبودية، والمقصود بالكتاب هنا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، خلال ثلاثٍ وعشرين عامًا، بعد أن أنزله جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[القدر:1]، وهذا النزول الأول الكامل، أما النزول الثاني: فقد نزل منجّمًا حسب الوقائع والأحداث على مدى ثلاثٍ وعشرين عامًا من بعثته إلى وفاته.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾، أي: ولم يجعل في القرآن اعوجاجًا، والاعوجاج: هو الزيغ والانحراف والفساد، والقرآن الكريم ليس فيه اعوجاج لا في أحكامه ولا في تشريعاته، بل هو كله مستقيم بيّن واضح لا اختلاف فيه ولا اضطراب، كما قال: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[فصلت:42].

وقوله: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾، (قيّمًا)، بالتشديد، وفي قراءة[1]: (قِيَمًا)،

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 63).

بالتخفيف، أي: مستقيماً عدلاً، والقيّم: الذي لا اعوجاج فيه من جهة، وأيضاً الثمين، ومنه يؤخذ لفظ قيمة الشيء، أي: ثمنه، وجاء في آية أخرى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام:١٦١]، فوصف الله تعالى القرآن بأنه لا اعوجاج فيه عن الحق إلى الباطل، وهو في نفس الوقت يحمل كل العدل والهدى، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، أي مستقيماً لا تناقض فيه ولا اختلاف في نفسه، وهادياً لمن أخذه وعمل به.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العلة والحكمة والغاية من إنزال القرآن، فقال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، إذاً الهدف والحكمة والغاية من إنزال القرآن: الإنذار، والإنذار يكون لمن خالف، ويكون بالتخويف بالعذاب، وهنا ذكر البأس، والمقصود به العذاب القوي، (لينذر بأساً شديداً)، أي: ليخوّف الكافرين بالعذاب القوي إن استمروا على كفرهم، ويدعوهم بهذا التخويف إلى ترك الكفر وإلى الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه.

وهذا البأس الشديد والعذاب القوي ناتج عن قوة الله: (من لدنه)، قال: (لينذر بأساً شديداً من لدنه): أي من قبله، وأنّى للناس أن يقبلوا بعذاب الله الذي جاء من قبل الله القوي الشديد سبحانه.

ثم ذكر الحكمة الثانية فقال: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾، فالنذارة والتخويف للكافرين؛ حتى يرجعوا عن كفرهم، والبشارة بالثواب الحسن للمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله؛ حتى يستمروا عليه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، هذا قيد مهم جداً، وهو أنه لا بد من العمل الصالح، فالعمل الصالح بدون إيمان لا يقبل، والإيمان بدون عمل صالح لا فائدة منه، لأنه مجرد اعتراف بلا خضوع ولا عمل ولا امتثال، وفيه إشارة إلى أن هناك أعمالاً غير صالحة، فالمؤمن يبتعد عن الأعمال السيئة ويعمل الأعمال الصالحة.

ومحتوى هذا البشارة: (أن لهم أجراً حسنًا)، **والأجر الحسن هو:** الجنة وما فيها، وهذا لا شك أنه يشمل أنواع الثواب، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإذا أدخلك الله الجنة؛ فقد حصلت على الأجر الحسن، الذي لا يمكن أن يوصف حُسْنه ولا تفاصيله لعظمته وجماله وكرم الله في عطائه.

وهنا سؤال: لماذا قدّم الإنذار على البشارة، **في قوله:** (لينذر بأسًا شديداً)، ثم قال: (ويبشّر المؤمنين)؟!

والجواب: أن درء المفسدة مقدّم على جلب المصلحة، فالإنذار يحقق درء المفسدة أو دفع الضرر، بينما التبشير يجلب المصلحة، وما دام درء المفسدة مقدّم على جلب المصلحة؛ كان الإنذار مقدمًا على التبشير.

ثم قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾، **ونُصبت ماكثين هنا،** على أنها حال للمؤمنين مع الأجر، **والمعنى:** حال كونهم بالأجر الحسن دائمين مستمرين غير منقطع عنهم أجرهم، وهذه طبيعة الجنة فكل ما فيها خالد على سبيل التأبيد لا ينقطع، فمن دخل الجنة فهو منعّم أبد الآبدين بكل النعم التي

يعطيها الله له، **كقوله تعالى في عدة آيات:** ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

ثم قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤﴾، هذا عطفٌ على الإنذار الأول، **أي:** لينذر بأساً شديداً، على سبيل الإطلاق لكل كافر لا يؤمن بالله، **ثم خصص الإنذار الثاني:** بمن هذه صفته، وهم الذين قالوا اتخذ الله ولداً، **وهم ثلاث فرق:** اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، وهو قول باطل وافتراء على الله؛ لأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ثم وصف الله تعالى هذا القول الذي صدر من هذه الطوائف بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةً تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾، فهو قول باطل؛ لأنهم قوم جهلة ليس لهم علم، **وهنا سؤالٌ:** هل يوجد علمٌ لمن أثبت لله ولداً؟، **الجواب:** لا، وإنما المقصود هنا عدم الحجة، وعدم الحجة يساوي عدم العلم، يعني لا حجة عندهم، إذاً لا علم لهم، وهو علم مفقود؛ لأنه مستحيل أن تثبت ببرهان أو حجة أن لله ولداً، فهذا من باب ذكر الأمر المستحيل، فوصفهم بأنهم ما لهم به من علم دليل على جهلهم، والذي يجهل قدر الله وعظمته؛ يصفه بما ليس فيه وما لا يستحقه، **كما قال:** ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾[الأنعام:91]،[الزمر:67]، **وقال في قوم موسى الذين طلبوا آلهة:** ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ﴾[الأعراف:138]، **فالجهل إما:** عدم العلم بالشيء، **أو:** العلم به على خلاف الحقيقة والواقع.

ثم قال زيادة في ذمهم: (وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡ)، أي ولا لسلفهم، سواء آباؤهم أو

أجدادهم أو من ينتسبون إليه، عنده أثارة من علم في هذه القضية، فما قالوه محض افتراء، وهو نسبة الولد إلى الله.

ثم وصف هذه الكلمة بقوله: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾، عظمت وعظم قبحها، **والمعنى:** عظم قبح هذه الكلمة التي خرجت من أفواههم بدون برهان ولا دليل وإنما تخرص وافتراء، وكل كلام يُطلق من الألسن دون تدبر ودون فهم، يكون وباله على صاحبه شديداً، ورب كلمة يتلفظ بها الإنسان لا يلقي لها بالاً؛ تهوي به في النار سبعين خريفاً، كما ورد في الحديث(1)، وهذه منها.

ثم وصفها بقوله: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾، فهي قبيحة، وهي قول كاذب لا أساس لها من الصحة، فليس لهم حجة ولا دليل فيما ينسبونه إلى الله من الولد، وليس لآبائهم ولا لأجدادهم حجة كذلك ولا دليل، وعظمت هذه الكلمة في القبح وخرجت من أفواههم دون تعقل ولا تفكر ولا انتباه دون تعظيم لله تعالى، فدل ذلك على أنها محض افتراء ومحض كذب لا أساس لها من الصحة.

ثم وجّه الخطاب إلى الرسول ﷺ فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾، فلعلك يا محمد، الفاء هنا واقعة في جواب الشرط، **وجملة:** (إن لم يؤمنوا)، أداة الشرط وفعله، ولكن جرى تقديم وتأخير للمزيد من الصور البلاغية في التقديم والتأخير، **والتقدير:** إن لم يؤمنوا بهذا الحديث فلعلك باخع: يعني بسبب تكذيب قومك للقرآن وللرسالة وللإيمان،

(1) أخرجه أحمد: (16/ 523) برقم: (10900)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (540).

ومن شدة حرصك على هداية الناس؛ فأنت تتألم وتتعب وتحزن وربما أدى تألمك وحزنك إلى هلاك نفسك بسبب كفرهم، وهذا من شفقته ﷺ فقد كان يحمل هم الأمة لِمَ لا تؤمن؟! والله أرسله ليخرجها من الظلمات إلى النور ولينقذها من النار، وفي حالة عدم إيمانها ستهلك بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة، وهو ﷺ المرسل رحمة، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء:107]، فكان يتعبه هذا ويصاب بالهم والغم حتى كاد أن يقتله، (فعلك باخع): أي مهلك نفسك حزنًا وأسفًا بسبب عدم إيمان قومك بهذا القرآن، فلا تفعل ذلك، فـ ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾[الغاشية:22]، إنما عليك البلاغ، بلغهم الحق وادعهم إليه، فإن آمنوا؛ فالحمد لله، وإن كفروا؛ فلا تتعب نفسك، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾[ق:45]، وهذا واضح، فإن هداية التوفيق والاستقامة والصلاح بيد الله ليست بيد أي أحد من الخلق، أما هداية الدلالة والإرشاد والبيان فهي من مهمات الرسل والعلماء والمصلحين، يرشدون وينصحون ويعلمون، ولكنهم لا يملكون إدخال الإيمان إلى قلوب الخلق، فهذا الأمر بيد الله وحده سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، **لذلك قال لرسوله:** ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾[البقرة:272].

وقوله ﴿أَسَفًا﴾: نصب على أنه حال، أي أنت ستهلك نفسك من الأسف **أي**: أسفًا عليهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾، هذه الآية تصف أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ زيّن الأرض بما خلق عليها من أشجار ونبات وحيوان وجماد وغير ذلك، زينة لها **أي**: تتزين به، فلو ذهبت

هذه الزينة، لصارت الأرض غير جميلة، ولذلك انظر إلى الأرض الجرداء التي لا خضرة فيها ولا ثمار، كيف تراها؟!.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾، كما زيّن الله السماء بالنجوم والكواكب، زيّن الله الأرض بما خلق عليها. وهل يدخل في هذه الزينة المكلفون؟، **قال بعض أهل العلم**[1]: إنما عبّر بـ "ما" فيدخل فيها غير المكلفين فيبقى المكلف الذي خُلقت له هذه الزينة، وزينها بسائر المخلوقات من أجل أن يختبرك أيها المكلف بالتكاليف بعد أن هيأ لك الأرض، **ولذلك قال**: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها)، أي للأرض، (لنبلوهم)، **أي**: نبلوا الساكنين عليها وهم الخلق المكلفون، وبماذا يبتليهم الله؟ يختبرهم بالطاعة والمعصية، بالعمل سواء صالح أو غير صالح، **ولذا قال**: (أيهم أحسن عملاً)، ولم يقل أكثر عملاً، بل قال: أحسن، فماذا تعني أحسن؟ تعني أمرين، الأول: أن يكون خالصاً لله، والثاني: أن يكون صواباً، **أي**: موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، فإن فُقِد واحد من هذين الشرطين فليس عملاً حسناً.

ثم قال: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾، هذه الأرض التي فيها الزينة – وهي مكان الابتلاء والاختبار – سيأتي يوم وتنتهي هذه الزينة حينما تهد الجبال وتيبس الأشجار ولا يوجد فيها إلا أرض يابسة لا شجر فيها ولا زرع، فالصعيد: ما ظهر على ظهر الأرض من التراب، **والجرز**: ما لا نبات فيه ولا شجر.

---

(1) ينظر: تفسير الألوسي: (8/ 197).

وهذا الذي يحصل إما في الدنيا كعلامات لإزالة الزينة وابتلاء لهم كما حصل لبعض الأقوام، وإما أن يكون ذلك قبيل يوم القيامة عندما تبدل الأرض وتنهد الجبال ويذهب ما فيها من زرع وخير، ويقبل الناس على الله تعالى ويقفون بين يديه.

فالذي صيّر هذه الأرض بهذه الصورة وهذه الزينة هو الذي ابتلاك بالأوامر والنواهي، والذي سيذهب زينة الأرض هو الذي سيذهب بك ويجعلك تنتقل إليه.

ووجه المقارنة بين تزيين الأرض وبين تزيين الأعمال: أن الأرض مزينة بما فيها من الأشجار والأحجار والجبال، وأنت أيها الإنسان مزيّن بعملك الخالص الصائب، إن كان عملك غير خالص وغير صائب فإنك تشبه الأرض الجرداء التي لا شجر فيها ولا ماء.!!

وهذا من أسرار الترتيب، حيث قال: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها)، **ثم قال:** (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً): **وفي الوسط قال:** (لنبلوهم أيهم أحسن عملاً)، فكما يبتليك الله بالعمل؛ فتصير بعملك الصالح مزيناً مكرماً معظماً عند الله، أو تصير بعملك السيء مهاناً لا قيمة لك، وهكذا تصبح الأرض مرغوبة عند البشر لجمالها وزينتها، أو متروكة عندهم لقحالتها وعدم وجود الخير والمياه والأشجار فيها.!!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الله تعالى وصف القرآن بأنه مستقيم لا اعوجاج فيه، وهو في نفس الوقت يحمل كل قيم العدل والهدى.

2- أن عدم الحجة يساوي عدم العلم، ومن يجهل قدر الله وعظمته؛ يصفه بما ليس فيه وما لا يليق به.

3- أن كل كلام يُطلق من الألسن دون تدبر ودون فهم؛ يكون وباله على صاحبه شديداً.

4- شدة شفقته ﷺ على قومه وحرصه على هدايتهم، ومن شدة حزنه عليهم كاد أن يهلك نفسه.

5- أن العمل غير الخالص وغير الصائب يشبه الأرض الجرداء التي لا شجر فيها ولا ماء.

تفسير المقطع الثاني من سورة الكهف

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى
ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾
فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ
وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ
وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ
ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾، هذه بداية القصة التي سُئل عنها النبي ﷺ من قبل كفار قريش بإيعاز من يهود المدينة، **والخطاب فيها لمحمد** ﷺ، **وأم:** هنا هي المنقطعة التي تحمل معنى الاستفهام، وحسبت: هنا بمعنى ظننت، **والمعنى:** لا تتوقع أن

هذه القصة هي العجب وحدها، بل هناك أشياء كثيرة فيها العجب، وإن كانت قصة أصحاب الكهف فيها تعجب، لأنها جاءت على خلاف العادات، وأصحاب الكهف ليسوا بأنبياء، بل هم قوم صالحون مؤمنون، وإذا حصلت خوارق العادات لغير الأنبياء؛ فإنه يطلق عليها كرامات الأولياء، أو استدراج من الشيطان، أما إذا حصلت خوارق العادات للأنبياء؛ فإنها تسمى معجزات، **والفرق بين المعجزة والكرامة واستدراج الشيطان ما يلي:**

أن المعجزة: شيء خارق للعادة، فيها معنى الإعجاز وطلب التحدي؛ وتحصل للأنبياء، مثلما طلب كفار قريش أن يشق النبي ﷺ القمر نصفين، فتم ذلك، فهذه معجزة لأنها لنبي وقُرنت بالتحدي.

أن كرامات الأولياء: فيها طاعة الله تعالى والهروب من أذية غيره له كما حصل لأصحاب الكهف.

أن استدراج الشيطان: هو شيء خارق للعادة مقرون بالتحدي يقع لشخص غير صالح يستعين به على خداع الناس وإضلالهم عن الحق، مثل ما يفعل السحرة والدجالون؛ فإن الشيطان قد يستدرجهم بشيء من خوارق العادات بإذن الله، من أجل أن يفتن بهم الناس، كما سيحصل من الدجال في آخر الزمان، فالدجال شخص غير صالح يدعي أنه الإله، ومع ذلك يقع على يديه مجموعة من خوارق العادات؛ استدراجاً وفتنة للناس حتى يضلهم، حتى إنه يضرب برجله على ظهر القبر فيقول له: قم؟ فيقوم! ويؤتى إليه بشخص فينشره نصفين

ثم يقوله له: قم حيًا؟ فيقوم ويراه الناس! فيتبعونه(1)، وهذا كله فتنة، وقد أُمرنا أن نستعيذ بالله من فتنته(2)، وأن نحفظ آيات من أول وآخر هذه السورة للوقاية منه، كما سبق في فضائلها.

وقد ذكر الله تعالى لنا القصة إجمالاً، ثم اتبعها بالتفصيل، **فالإجمال في قوله:** (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا)، **وأصحاب الكهف:** هم مجموعة من الشباب -كما سيأتي ذكرهم- واختُلف في عددهم، والكهف هو: الغار الكبير في الجبل، فإذا كان واسعًا سُمّي كهفًا، وإذا كان ضيقًا سُمّي غاراً أو مغارةً، وهو مكان فيه تجويف داخلي مخفي وسط الجبل، يدخل إليه الناس لبعض حاجاتهم، وأما الغار فإنه أصغر منه مساحة، كغار ثور الذي اختبأ فيه النبي ﷺ وأبو بكر في رحلة الهجرة، **(والرقيم)**: اختلف المفسرون في معناه، **فقيل**(3): اسم للجبل، **وقيل**(4): اسم للقرية التي هربوا منها، **وقيل**(5): اسم للوادي الذي الجبل فيه، **وقيل**(6) الرقيم: لوحٌ مرقومٌ عليه أسماء

---

(1) رواه مسلم: (4/ 2250) برقم: (2937).

(2) رواه البخاري: (2/ 99) برقم: (1377)، ومسلم: (1/ 412) برقم: (588).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 603).

(4) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 602)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (3/ 518)، وتفسير الرازي: (21/ 429).

(5) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 602)، وتفسير القرطبي: (10/ 357).

(6) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 603)، وبحر العلوم للسمرقندي: (2/ 335)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (3/ 518).

الفتية، وضع على باب الكهف بعد أن تمت قصتهم، وهذا هو الراجح، وهو قول عامة المفسرين[1]، لأن الرقيم من الرقم وهو الكتابة، **فيكون المعنى أصحاب الكهف والرقيم:** أي وأصحاب الرقيم، أي الأشخاص الذين رقمت أسماؤهم على ذلك اللوح أو على تلك الصخرة التي على باب الكهف، (كانوا من آياتنا عجباً)، **الآيات: المقصود بها** البراهين والأخبار الغيبية التي يحصل لمن سمعها التعجب والاستغراب.!!

ثم قال: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾، فبيّن أن أصحاب الكهف والرقيم هم فتية **أي:** شباب، لجأوا إلى الكهف، **والألف واللام في الكهف إما أن تكون** للعهد، فالكهف كان معروفاً عندهم، فإنهم كانوا من أصحاب المنطقة، **وإما أن تكون** إشارة إلى الكهف الذي سيكون فيه نجاتهم، وأضيفت إلى الكهف لأن فيه معنى النجاة، ولما قرر هؤلاء الفتية أن يعتزلوا أقوامهم ويذهبوا إلى الكهف دعوا الله بهذا الدعاء، فقالوا: (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً)، **أي:** اعتصمنا بك، وتوكلنا عليك، والتجأنا إليك، وفوضنا أمرنا إليك، فامنحنا من عندك رحمة تغنينا بها عمن سواك، وتحمينا بها من أذية قومنا وبطشهم ومكرهم، وحلّ لنا مشكلتنا، فلا تجعلنا نقع في أيدي القوم وقد هربنا منهم، واجعل أمرنا إلى فوز وفلاح، بحيث نُكفى شر هؤلاء القوم.!

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 604)، وتفسير الرازي: (21/ 429)، وتفسير الثعلبي: (6/ 147).

فاستجاب الله سبحانه لهذا الدعاء، فقال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾، **أي:** أن الله رزقهم الرحمة وهيّء لهم من أمرهم رشداً، فكان من رحمة الله بهم أن ضرب على آذانهم، فالذي حصل لهم هو عدم شعورهم بمن حولهم من الأحياء، أما أجسادهم؛ فإنها أحياء وأرواحهم لم تنزع منها، فحالهم كحال النائم في فرشه، حيث ذهب عنهم الإحساس بالحياة وبمن حولهم فقط.!! **والمعنى:** أرسلنا عليهم النوم بعد أن دخلوا الكهف، فجعلناهم لا يسمعون من حولهم، فقطع الله بينهم وبين ما حولهم بقطع سماعهم للأصوات فحصل لهم النوم: (سنين عدداً)، وقد بيّن الله أنها ثلاثمائة وتسع سنوات كما سيأتي.

ثم قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾، ثم بعثناهم بعد هذه المدة الطويلة؛ **وقوله:** (لنعلم)، **أي:** ليحدث بعد بعثهم أو استيقاظهم العلم بحالهم لمن اختلف فيهم، **وقوله:** (أيّ الحزبين)، المقصود بالحزبين هنا: فريقان اختُلِف فيهم، **وقد اختلف المفسرون في تعيين الحزبين، فقال بعضهم**[1]: فريقان من النائمين أنفسهم، **حزبٌ قال:** لبثنا يوماً أو بعض يوم، **وحزبٌ قال:** ربكم أعلم، **أي:** حزب حدد وحزب لم يحدد، **وقال بعضهم**[2]: المؤمنون والكافرون، **وقال آخرون**[3]: هم فريقان اختلفوا بعدهم في عددهم لمّا كانوا

(1) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 430)، وتفسير الألوسي: (8/ 203).

(2) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (5/ 370).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 430).

يعدونهم[1]، **والراجح القول الأول**؛ لأن اللام للعهد ولا عهد لغير الفتية[2]، **وقوله**: (أحصى لما لبثوا أمداً) **أي**: أضبط في معرفة العدد أو الزمن، فقد حصل فيهم الاختلاف في أمرين: في عددهم، وفي الزمن الذي ناموه، فجاءت كلمة أمداً لتشمل الأمرين.

ثم بدأت الآيات تتحدث عن القصة بالتفصيل، قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾، **أي**: نحن لا غيرنا سيقص عليك خبرهم، **وفيه إشارة إلى أن قصص القرآن تمتاز عن باقي القصص بعدة ميزات**؛ لأنها من الله سبحانه، **ومنها**: أنها صدقٌ لا كذب فيها، وأنها حقٌ لا خيال فيها، وأنها متقنةٌ لا خلل فيها، وأنها تعتني بموضوع العظة والعبرة والدرس وتعرض عن التفاصيل التي ليس منها فائدة.

ونحن: ضمير المعظم نفسه وهو الله سبحانه يقص عليك خبرهم بالصدق، فهم مجموعة من الشباب، والفتى هو الشاب القوي النشيط الذي في مقتبل العمر، قد آمنوا بالله تعالى الإله الحق، ولما هدوا إلى الإيمان وأخذوا بأسبابه وعملوا بمقتضياته أعطاهم الله زيادة على ذلك، وزادهم هداية إلى هدايتهم، وهذه الآية من أدلة أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ثم منحهم الله أمراً في غاية الأهمية، نظراً للمشكلة التي كانوا يتعرضون لها، وهي الفتنة في دينهم، فقد حاول قومهم أن يفتنوهم –كما سيأتي– فكانت النعمة

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (10/ 364)، وتفسير الألوسي: (8/ 203).

(2) ينظر: تفسير الألوسي: (8/ 203).

الثانية بعد زيادة الإيمان أن ثبتهم الله، **وعبّر هنا عن الثبات بقوله:** ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، **أي:** ثبتنا الإيمان في قلوبهم، وقوينا صبرهم على هجر الأوطان، والبعد عن الأقارب، ذلك لأنهم أعلنوا أن ربهم الله؛ فلم يخافوا ولم يفزعوا ولم يتأثروا بتهديد قومهم، بل ثبتهم الله على الحق رغم محاولة القوم فتنتهم عنه، وهذه من أكبر النعم التي ينبغي للإنسان أن يدعو ربه أن يرزقه إياها، **وكان من دعائه ﷺ:** **"يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك"**[(1)]؛ لأنه يمكن أن تنحرف وتفتن، ويزيغ قلبك عن الحق، ما لم يثبتك الله على الحق حتى تلقاه.

وقوله: (إذ قاموا)، **هذه الكلمة اختلف المفسرون في زمنها على ثلاثة أقوال، فقيل**[(2)]: إذا وقفوا بين يدي ملكهم الذي كان يدعوهم إلى الشرك والكفر، فقالوا له: لا نعبد الأصنام بل نعبد الله وحده. **وقيل**[(3)]: إنهم اجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال رجل منهم هو أكبر القوم: إني لأجد في نفسي شيئًا، إن ربي رب السموات والأرض، فقالوا: ونحن أيضًا كذلك نجد في أنفسنا، فقاموا جميعًا فقالوا: ربنا رب السموات والأرض، **وقيل:** إذ قاموا من نومهم[(4)]، والأول أظهر،

(1) أخرجه الترمذي في السنن: (4/ 448) برقم: (2140)، وصححه الإمام الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي: (5/ 140) برقم: (2140).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 615)، وتفسير الثعلبي: (6/ 158)، وتفسير البغوي: (5/ 156)، وتفسير الزمخشري: (2/ 707)، وفتح القدير للشوكاني: (3/ 324).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 442)، وفتح القدير للشوكاني: (3/ 324).

(4) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 340)، فتح القدير للشوكاني: (3/ 324)، وتفسير الألوسي: (8/ 208).

لأن فيه النطق بالحق والصراحة في إعلانه أمام الملك الكافر، وهنا تأتي أهمية الربط على القلب، فالثبات له ثمرته هنا حينما صارحوا من خالفهم بعقيدتهم وقالوا: بأن ربهم هو الله: (رب السموات والأرض)، وأكدوا ذلك بقولهم: (لن ندعوا من دونه إلهًا)، لن نعتقد ألوهية غيره، ولن ندعوا غيره دعاء عبادة، ولن نعترف أن هناك إلهًا غير الله، وهنا أثبتوا لله توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فتوحيد الربوبية أثبتوه في قولهم: (ربنا)، وتوحيد الألوهية أثبتوه في قولهم: (لن ندعوا من دونه إلهًا)، ثم علّلوا ذلك بقولهم: (لقد قلنا إذاً شططًا)، **أي**: لو حصل منا القول: بأن هناك إلهًا غير الله، فهذا القول شطط، **أي**: بعيد عن الحق، والصواب، **كما في قوله**: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾[ص:22]، أي لا تبتعد عن الحق والصواب، **فالشطط هو**: الابتعاد عن الصواب في القول أو الحكم.

ثم قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾، (**هؤلاء**): إشارة إلى قومهم الذين كانوا يعبدون غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهذه الآلهة قد تكون من الأصنام التي كانوا يصنعونها سواء من الأشجار أو من الأحجار أو قد تكون من البشر كالملوك الذين ادعوا أنهم آلهتهم، ثم قالوا: (لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن)، **أي**: هلاّ يأتي قومنا ببرهان وحجة على دعواهم أن هذه الآلهة تستحق العبادة من دون الله تعالى! والجواب: لا يمكنهم ذلك، فليس لدى هؤلاء القوم حجة ولا برهان واضح على ذلك، بل ادعاؤهم هذا كذب وتخرص فلا يوجد دليل ولا برهان يستطيع المشرك أن يبرهن به على أن غير الله إله، فكل ما عُبد من دون الله تعالى

فقد عُبد بباطل، وليس عليه حجة ولا برهان، بل الواقع: (إن يقولون إلا كذبًا)، والكذب هو: الإخبار بالشيء على خلاف الواقع، فادعاء أن غير الله يكون إلهًا، فهذا خلاف الواقع، والواقع أن الإله هو الله وحده. ثم قال: (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا)، السؤال هنا سؤال استنكاري، **والمعنى**: لا أحد أعظم ولا أكبر ولا أشد ظلمًا ولا أكبر قبحًا ولا أكثر شناعة ممن كذب على الله تعالى بادعاء أن له شريكًا أو أن هناك إلهًا غيره سبحانه.

والكذب كله محرم إلا أنه يتفاوت بحسب جرمه، فلو كذبت على زميلك؛ لكان كذبًا قبيحًا، ولو كذبت على شيخك؛ لكان كذبًا أشد وأقبح، فإذا كذبت على الله؛ فلا أعظم قبحًا من الكذب على الله، إذاً لا يوجد أحد أشد ظلمًا ممن كذب على الله بادعاء أن له شريكًا، أو بادعاء أن هناك إلهًا غير الله يستحق العبادة من دون الله.

ثم قال عن هؤلاء الفتية أنهم حدثوا أنفسهم أو حدّث بعضهم بعضًا، فقالوا: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾، **الاعتزال المقصود به هنا**: الهجرة، **وله حالان**: **اعتزال** بدني حسي، **واعتزال** منهجي معنوي، فأصحاب الكهف حصل منهم الاعتزال بنوعيه، **الاعتزال الحسي البدني**، وذلك أنهم خرجوا من القرية وبحثوا عن مكان آخر، وانتقلوا إليه، وهو الكهف، **والاعتزال المعنوي المنهجي**، حيث إنهم اعتزلوا القوم في معبوداتهم وعبدوا الله وحده، فحصلت لهم الهجرة بنوعيها الحسية والمعنوية والاعتزال بنوعيه.

وقوله: (وما يعبدون): أي الأصنام، (إلا الله): إلا أداة استثناء، والله مستثنى من المعبودات، **يعني:** اعتزِلوا جميع المعبودات التي يعبدها الخلق، إلا الله فلا تعتزلوا عبادته فهو الإله الحق، هذا الاعتزال المعنوي.

وقوله: (فأووا إلى الكهف): **الجأوا إلى الكهف** واختبئوا فيه، وهذا هو الاعتزال الحسي والهجرة الحسية، فقد خرجوا بأبدانهم خوفًا من مشاركة الكفار في أرضهم وقريتهم وفي دينهم ومعبوداتهم.

وقوله: (ينشر لكم ربكم من رحمته): اذهبوا إلى الكهف ولن يضيعكم الله، وهذا أمر يجب أن يكون في قرارة كل نفس مؤمنة أنها إذا فوضت أمرها إلى الله وعملت بأمره؛ فلن يضيعها الله، (مِن) تبعيضية، **أي:** من رحمة الله الواسعة، وتخيّل معي: كهفًا صغيراً هربوا إليه وتركوا ديارهم الواسعة، وابتغوا الرحمة داخل هذا الكهف الضيق.!! إذاً رحمة الله لها أثرٌ ولو في أضيق الأماكن، فإذا وجِدتْ مع العبد وسّعت المكان ولو كان ضيّقًا، وشفتِ الجسد وإن كان مريضًا، وجمعتِ الشمل وإن كان مشتّتًا، وهدأتِ النفس وإن كانت مضطربة، فابحث عن رحمة الله؛ يحصل لك بها كل خير، ولا تقول: أين ومتى؟!! فربما تأتيك رحمة الله وأنت في السجن، أو في الكهف، أو في أي مكان، فرحمة الله إذا أتت لا يحدّها مكان ولا زمان.!!

وقوله: (ينشر)، بمعنى أن الرحمة متجددة متنوعة متعددة، **ثم قال:** (ويهيئ لكم من أمركم مرفقًا)، **فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** إذا أتتكم رحمته سيرفق بكم و(يهيئ لكم من أمركم مرفقًا)، **أي:** ييسّر لكم شيئًا ترتفقون به، **والارتفاق:** حصول

الرفق، بمعنى: سيذهب عنكم العنت والعناء، وستذهب عنكم الشدة والتعب، وقد كان هذا لهم تعويضاً عما افتقدوه بفراقهم لقومهم.

وقد قيل[1]: إن هؤلاء الفتية كانوا من أولاد الملوك الأثرياء، وأن سبب تجمعهم لم يكن عن طريق شخص دعاهم إلى ذلك، وإنما حصل تجمعهم صدفة، حيث دعاهم قومهم إلى الخروج إلى حفل للأصنام والسجود لها من خلال ملكهم الذي كان يدعوهم إلى عبادة الأصنام، فخرجوا مع أقاربهم، فعندما وجدوا مظاهر عبادة غير الله، وجد كل واحد في قلبه نفوراً من ذلك وتعظيماً لله، فانسحب الأول من الموقف، واستظل تحت ظل شجرة، وبعده انسحب الثاني والثالث والرابع إلى آخرهم، فتجمعوا تحت الشجرة، فقال أحدهم: انسحابكم إلى هنا لا بد له من سببٍ، فليخبر كل واحد عن سبب ذلك، **فقال الأول**: إني رأيت أن هذا الفعل قبيح، وأنه لا يجوز إلا لله رب السموات والأرض، فأنا أكفر به، وأعبد الله وحده، **وقال الثاني مثله**، وكذلك قال **الثالث والربع** إلى آخرهم، فلما رأوا أنهم متفقون في الفكرة والهدف والغاية، قالوا: إذاً نعتزل قومنا، ولكن قبل ذلك نخبرهم بالرب الذي نعبده، وهذا معنى **قوله**: (إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً)، فلما قالوا ذلك القول؛ غضب عليهم القوم وتآمروا عليهم، وخاف الفتية على أنفسهم الفتنة والهلاك؛ فقرروا الهروب من القرية إلى

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 609)، وتفسير القرطبي: (10/ 358)، وتفسير الخازن: (3/ 153)، وتفسير ابن كثير: (5/ 127).

الجبل، وبحثوا عن مكان يختبئون فيه فالتجأوا إلى الكهف، فكان ذلك هو ملخّص قصتهم.!!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أهمية فئة الشباب؛ في **قوله**: (إنهم فتية)، ولذلك عندما تبحثون في قصص الأنبياء أغلب الذين كانوا يؤمنون بهم هم الشباب الذين هم على الفطرة، أما كبار السن فقد تجذرت فيهم عبادة آلهة الآباء والأجداد والعادات والتقاليد، فمن الصعوبة أن يقتنعوا بسرعة، وهذا يعني أن يعتني المربون والدعاة بالشباب، فهم الذين يقبلون الحق ويثبتون عليه وينشرونه ويدافعون عنه.

2- إذا كنت مع الله فلن يضيعك، وسيمنحك من رحمته وفضله، وسيأتيك بالخير من حيث لا تحتسب، كما حصل لأصحاب الكهف، فرحمة الله لا يحدها حدود، فابحث عنها بالدعاء والتعبد لله.

3- أن الإنسان إذا خاف على نفسه الفتنة، فليعتزل أماكنها، إما أن يعتزل حسياً ويخرج من بلده، فأرض الله واسعة، أو يهجرهم هجرة شعورية معنوية، هجرة المنهج، إن كان مضطراً للبقاء معهم، فيهجرهم بقلبه، ويحافظ على دينه وعقيدته، ولذلك شرعت الهجرة وشرع الاعتزال عند فساد الزمان وخشية الفتنة.

تفسير المقطع الثالث من سورة الكهف

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾﴾، ذكرنا أن أصحاب الكهف اعتزلوا قومهم وهربوا واختبأوا في كهف، ومن أوصاف هذا الكهف ما ذكرته هذه الآيات، **فقوله:** (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين)، فالرائي للشمس وهي تشرق عليه، يرى أنها تميل عن باب كهفهم إلى جهة اليمين وتعتدل حتى لا تصيب أجسادهم حرارة الشمس، ولا تؤذيهم بشعاعها الحار، وهذا يدل على أن الباب من جهة الشمال، **وقوله:** (وإذا غربت تقرضهم

ذات الشمال)، **أي**: تعتدل عنهم وتبتعد عنهم إلى الشمال، وهذا من أسباب حفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأهل الكهف، فلو كانت الشمس مسلطة عليهم تلك المدة الطويلة؛ لأحرقت ثيابهم وأكلت أجسادهم، ولكن حفظهم الله تعالى بأن صرف شعاع الشمس المباشر عنهم، ثم قال: (وهم في فجوةٍ منه)، **أي**: كان الفتية في مكانٍ متسعٍ من الكهف، وهذا يدل على أن الكهف كان واسعًا، وكان يدخل إليهم الهواء، ويستمتعون بآثار شعاع الشمس دون أن يضرهم لأنه ليس مسلطًا عليهم، **ثم قال سبحانه**: (ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد)، هذه جملة اعتراضية، والهدف من ذكرها أثناء حكاية القصة، هو التركيز على الدروس والعبر، **والمعنى**: ما فعلناه بهم في الكهف نوع من خوارق العادات الباهرة، ثم بيّن أن الهداية بيد الله، وأن ما حصل لهؤلاء الفتية حينما أعلنوا الكفر بالأصنام والإيمان بالله، أن ذلك هو ثمرة من ثمار هداية الله لهم، فمن يوفقه الله للإيمان والعمل الصالح، فهو المهتدي حقًا، وحذفت الياء للتخفيف، وفيه دليل على أن الهداية منّة وفضل من الله على عباده، **كما قال**: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:43]، فالهداية ليست بالذكاء أو بالقوة، بل الهداية توفيق من الله، يطلبها الإنسان من الله تعالى مع أخذه بالأسباب الموصلة إليها، **ثم قال**: (ومن يضلل الله فلن تجد له وليًا مرشداً)، **أي**: ومن حقت عليه الضلالة، بسبب إعراضه عن أسباب الهداية، فلن يحصل عليها من غيره، وهذا عدلٌ منه سبحانه، فالهداية فضل، والضلالة عدل، بمعنى: أن الله منحك أسباب الهداية ودلّك عليها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل لك سمعًا وبصراً وفؤاداً، وبيّن لك طريق الحق من طريق الضلال، وترك الاختيار لك، فإن اخترت

الضلال، وتنكبت الصراط؛ حرمك الله التوفيق للهداية؛ جزاءً لك على ذلك، فكان ذلك عدلاً من الله تعالى.!!

ثم قال سبحانه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾، هذا الخطاب خطاب تصويري، فهو حين يقص القصة يصور لك الحدث وكأنك تشاهده، **والمعنى:** لو قدّر لك أيها المخاطب أن ترى أجساد الفتية في الكهف؛ فإنك تظنهم مستيقظين، ولا تظنهم نائمين، والحكمة من ذلك كما **قال بعض المفسرين**[1]: أن الله تعالى لم يغمض أعينهم عند النوم وإنما تركها مفتوحة، لكي تحفظ هذه العيون، إذ لو أغمضت أعينهم لفسدت من طول المدة، فترك أعينهم مفتوحة لأنها ستستيقظ وتبصر مرة أخرى!!، وهذه إحدى وسائل الحفظ لهم، فكما حفظ أجسادهم بعدم تسليط شعاع الشمس عليهم مباشرة، حفظ الله أعينهم بعدم إغماض الجفون عليها، وأيضاً الرائي لهم يراهم مبصرين له فلا يقترب منهم، وكما سيأتي أن الله ألقى عليهم المهابة، فإذا رآهم الشخص خاف وارتعب، وترك العيون مفتوحة من وسائل الإخافة، فلو رأيت شخصاً مغمضاً عينيه لن تخاف!!، (وهم رقود)، **أي:** وهم في الحقيقة نائمين، وإنما أنت تظنهم من خلال الرؤية مستيقظين.!!

ثم قال سبحانه: (ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال)، يتقلب أحدهم مرة على جهة يمينه، ومرة أخرى على جهة شماله، وهذه أيضاً من وسائل الحفظ

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 130)، وتفسير القاسمي: (7/ 12)، وتفسير السعدي: (472).

لهم، حيث لم يجعل أجسادهم على حال واحد، أو راقدين على جهة معينة، إذ لو استمروا على ذلك لفسدت الأجساد، ولكن يقلبهم تارة يمينًا، وتارة شمالاً، **قال بعض المفسرين**[1]: أنهم كانوا يتقلبون كل ستة أشهر، **وبعضهم قال**[2]: كل سنة، **وبعضهم قال**[3]: غير ذلك، ولا يوجد دليل صريح على عدد التقلبات التي كانت تحصل لهم، وقد ذكرت الآية التقليب وأطلقته ليدل على التكرار مع الكثرة، وأنهم كانوا يتقلبون بين كل فترة وأخرى، والله أعلم.

ثم قال: (وكلبهم)، وأي الكلب الذي هرب معهم من القرية؛ **قيل**[4]: كلب حراسة، **وقيل**[5]: كلب صيد، كان لأحد الفتيان وهرب معه، فدخلوا الكهف وبقي الكلب خارج الكهف كعادة كلاب الحراسة، فإنها لا تدخل البيوت ولا تنام فيها.

وقوله: (باسط ذراعيه بالوصيد)، وصفٌ لحال الكلب، **وبسط الذراع**: أن يتم وضع اليدين من الكف إلى المرفق على الأرض، **ولذلك جاء في الحديث**: **"لا يبسط أحدكم إذا سجد ذراعيه كبسط الكلب"**[6]، يعني منهيٌ في السجود أن تضع يديك مع المرفق على الأرض، ولكن ضع اليدين وارفع الذراعين حتى لا

(1) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر: (17/ 624)، وتفسير البغوي: (5/ 158).

(2) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2352)، وتفسير السمرقندي: (2/ 341).

(3) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2352)، وتفسير الرازي: (21/ 444).

(4) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 624)، وتفسير البغوي: (5/ 147)، وتفسير الرازي: (21/ 444)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور: (5/ 373).

(5) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 444).

(6) أخرجه البخاري: (1/ 164) برقم: (288)، ومسلم: (1/ 355) برقم: (493).

تتشابه مع بسطة الكلب، والوصيد: فناء الكهف، يعني جالس عند باب الكهف من الخارج بهذه الهيئة، ولم يدخل معهم حتى لا يحرمهم دخول الملائكة، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما في الحديث(1)، وأيضاً حتى يظهر لمن رآه أنه كالحارس لهم، وهي إحدى وسائل الحماية والحفظ لهم، خاصة إذا حصل للكلب من النوم والحفظ ما حصل لأصحابه، وظل فاتحاً عينيه مثلهم!!.

وفي هذا لفتة تربوية لطيفة، وهي: أن الصاحب المبارك الصالح ينتفع به صاحبه ولو كان صاحبه كلباً، فقد انتفع الكلب بصحبة الصالحين وحصلت له الكرامة معهم! فكيف لا تنتفع يا عبد الله –وأنت مسلم مؤمن مكرّم على الله– من صحبة الصالحين، فيا عبد الله! اترك صحبة الطالحين والمنحرفين، وابحث لك عن رفقة صالحة؛ تنتفع منهم في الدنيا والآخرة، في الدنيا يصلحونك ويشجعونك على الطاعة، وفي الآخرة يشفعون لك وتبقى بينك وبينهم المودة، **كما قال تعالى**: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾، [الزخرف:67]، فانتبهوا –أيها الشباب– للرفقة، واختاروا لكم رفقة صالحة، واعتبروا بقصة هذا الكلب، كيف لما رافق الصالحين حصلت له الكرامة معهم.

ثم قال: (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً)، **أي**: لو قُدّر لك أيها الرائي أن تراهم وتنظر في حالهم داخل الكهف؛ لابتعدت منهم هارباً من شدة الخوف، لأن الله ألقى عليهم المهابة، ولامتلأ صدرك بالرعب،

(1) أخرجه ابن ماجة في سننه: (2/ 1203) برقم: (3650)، **وقال الإمام الألباني**: صحيح بما قبله، صحيح سنن ابن ماجة: (8/ 150).

لأن الرعب محلّه القلب، كما قال: (وقذف في قلوبهم الرعب)، فالرعب: جندي من جنود الله تعالى، يقذفه الله في قلوب الذين يحاربون رسول الله ﷺ، **كما قال** ﷺ: "**نصرت بالرعب مسيرة شهر**"[1]، وهذه من وسائل حفظ الله لأهل الكهف أن من اقترب منهم خاف وامتلأ قلبه بالرعب، ولذا لم يتم اكتشاف أمرهم طول تلك المدة وهي ثلاثمائة وتسع سنوات.

ثم قال الله في ختام هذا الوصف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾، فبعد أن ناموا ثلاثمائة وتسع سنوات، بعثهم الله وأيقظهم من نومهم، **وعبّر بقوله:** (بعثناهم)، لطول فترة النوم، وكأنهم كانوا موتى، فقاموا من النوم، وربما كل واحد كان يفرك عينيه، ويلتفت إلى صاحبه، ويسأله كم رقدنا؟ كم نمنا؟ كم لبثنا هنا؟! **قيل:** إنهم دخلوا الكهف أول النهار، واستيقظوا في آخره، فظنوا أنهم ناموا يوماً، فلما رأوا الشمس لم تغرب، قالوا: أو بعض يوم[2]، فلما نظروا في شعورهم وأظافرهم قد كبرت وطالت، لأنها استمرت تنموا وهم نيام، ورأوا صوراً مختلفة، قالوا: الله أعلم كم لبثنا، ثم قالوا: هذا ليس وقت النقاش والجدال كم لبثنا، سيخبرنا الله،

(1) أخرجه البخاري: (1/ 74) برقم: (335).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 445)، والبحر المحيط: (6/ 106)، وتفسير القرطبي: (10/ 375).

الآن نحن جائعون، نريد طعاماً، فابعثوا أحدكم بورِقكم: الورِق اسم من أسماء الفضة، والفضة كان يجري ضربها على شكل نقود، حيث أخرجوا بعض النقود من جيوبهم وأمروا واحداً منهم أن يذهب ويشتري لهم طعاماً، ومع أنهم ناموا هذه المدة إلا أن مخيّلة الملك الكافر الذي هربوا منه ظلت في رؤوسهم، فأمروه أن يمشي متلطفاً مترفقاً بحيث لا يشعر أحدٌ بهم، وأمروه أن لا يكلم أحداً عنهم، ولا يبلّغ الناس أنهم موجودون، وأمروه أن يأتيهم بطعام طيب، وهذا من حرصهم على أكل الحلال الطيب؛ لأنهم كانوا في قوم كافرين، فخافوا أن يختلط الحرام مع الحلال من الطعام، وهذا أرجح ما قيل في تفسير (أزكى)[1]، وإلا فقد **قال بعض أهل العلم**[2]: أكثر، **وقال بعضهم**[3]: أرخص، لكن سياق الآيات يقتضي أن يكون أزكى هنا بمعنى أطيب، **كما في قوله:** (هو أزكى لكم)، **أي:** هو أطيب وأفضل وأحسن لكم.

ثم ختمت هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾، وهذا تعليلٌ منهم لضرورة الانضباط والحرص على عدم اكتشاف أمرهم من قبل الملك الظالم وجنوده، فأكّدوا بها على من سيخرج لشراء الطعام لهم، وبيّنوا له أنه لو اكتشف أمركم؛ فأنتم أمام خيارين:

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 638)، وتفسير السمرقندي: (2/ 338)، وتفسير الثعلبي: (6/ 161).
(2) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 637)، وتفسير القرطبي: (10/ 375).
(3) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 342)، وتفسير الرازي: (21/ 446).

إما أن يفتنكم الملك وجنوده عن دينكم، أو يقتلوكم رجمًا بالحجارة، **والمقصود بالإعادة هنا:** أن يفتنهم قومهم عن دينهم الحق، **أو:** العودة إلى الكفر، باعتبار أن هؤلاء الشباب كانوا على دين آبائهم كفاراً، ثم هداهم الله للدين الحق، وهم يحذرون هذا وذاك، لا يريدون الرجوع عن الدين الحق، ولا يريدون الابتلاء بالرجم سواء القتل بالرجم أو كان الرجم بالكلام السيء.

وقوله: (ولن تفلحوا إذاً أبداً)، تحذير لأنفسهم من الفتنة، وطلبًا للثبات من الله على الإيمان، لأنه لا فلاح لمن ارتد عن الإيمان وعاد إلى الكفر، ومطلوب من المؤمن أن يبتعد عن كلا الأمرين؛ أن يرجع عن دينه، أو أن يقع في يد الكفار فيعذبونه، لأن الإنسان إذا سُجن أو عُذّب فقد يضعف إيمانه، وقد يترك دينه بسبب العذاب.

وبعد هذه الوصايا الماتعة خرج الرجل الذي انتُدب للمهمة ليأتي لهم بالطعام، فلما وصل رأى المدينة قد تغيرت والأشخاص قد تغيروا، ولم تعد على الحالة التي تركها عليها، فقد أسلم أهل المدينة وصار ملوكها صالحين، فأخرج الدراهم ليدفع ثمن الطعام، فأخذها صاحب الطعام، فإذا هي غير دراهم عصرهم؛ فقال: هذا كنز! من أين أخذت هذه النقود؟ قال: هذه ملكي وكانت في جيبي، نمت بالأمس وخرجت اليوم، فقالوا له: هذه النقود عمرها قديم جداً، وهذا يدل على أنك تكذب، فأخذوه إلى ملكهم، فحدّثه عن قصتهم، فعجب منها، وذهب الملك وجنوده مع هذا الشاب إلى الكهف، فلما وصل؛ قال الشاب: دعوني أدخل على أصحابي، فدخل فأخبرهم أنه جاء مع الملك، فظنوا

أنه الملك (دقيانوس) الذي كان يرغمهم على عبادة الأصنام، فأخبرهم أن هذا ملك مؤمن، وأن الحال قد تغيّر في بلدتهم التي هربوا منها خوفًا من ظلم ملكها!!، فقيل: إنهم ماتوا في الحال بعد أن رجع إليهم صاحبهم، واكْتُشف أمرُهم وصاروا بعد ذلك عبرة للمعتبرين.!![1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الله حفظ هؤلاء الفتية بأسباب مادية، وأخرى معنوية، وهو قادر على حفظهم دون سبب، ولكن ليعلّمنا الأخذ بالأسباب في جميع أمورنا.

2- حرص هؤلاء الفتية على دينهم، حتى إنهم عندما استيقظوا كان الخوف من الفتنة مسيطراً على تفكيرهم مع طول مدة نومهم، وهذا يعني أن الإنسان المؤمن يجب أن يكون رأس ماله دينه، وكيف يحافظ على الثبات عليه، وأن يكون ذلك أكبر همه.

3- أن هؤلاء الفتية كانوا حريصين على أكل الحلال الطيب من الطعام، ولا شك أن ذلك كان سببًا لاستجابة دعوتهم ونجاتهم من عدوهم.!!

4- في أيام الفتن يأخذ الدعاة من هذه القصة دروسًا في كيفية التعامل مع الفتن، منها: الحذر، والاعتزال، والبعد عن أماكنها.

5- الحرص على الثبات، وأن الفتنة ليس فيها فلاح.

6- الحرص على الصحبة الصالحة.

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 627-637).

تفسير المقطع الرابع من سورة الكهف

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ
يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ
أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ
خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ
أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ
مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾﴾، **الواو** عاطفة لما قبلها، وقد عطفت الجمل السابقة على بعضها، بمعنى كما فعلنا بهم ما سبق من الأفعال؛ فقد أطلعنا عليهم أقوامهم الذين اختبأوا منهم، بعد أن مكثوا في الكهف مدة طويلة، **وأصل العثار هو** أن تصيب قدمك بشيء فتتعثر به، فإذا

تعثرت نظرت في الشيء فعرفته، ثم ذكر العلة من عثور قومهم عليهم وهي: إثبات البعث، فالذي أيقظهم مع طول هذه المدة هو قادر على بعث الناس يوم القيامة، **ولذلك قال:** (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها)، **أي:** ليتحقق بمثل هذه الحادثة علم واقعي عن البعث، ومجيء الساعة وهي القيامة، وإلا فعند المؤمنين علم بأن البعث حق، ولديهم يقين بأن الله يبعث من في القبور، أما من كان عنده شك أو عنده علم نظري فقط، فإنه لما يرى نائماً مستغرقاً في النوم ثلاثمائة سنة ثم يستيقظ ويقوم، ففي استيقاظه بعد هذه المدة دليل على قدرة الله على البعث والنشور.

ثم قال: (إذ يتنازعون بينهم أمرهم)، من الذي حصل بينهم النزاع؟، الجواب: بين الأقوام الذين اطلعوا عليهم، ماذا تنازعوا فيه؟ **ذكر المفسرون أقوالاً، قيل**[1]: التنازع في عددهم، **وقيل**[2]: التنازع فيما يفعلونه بعد موتهم، **وقيل**[3]: التنازع في البعث والنشور، مع أنهم كانوا يؤمنون به ولكن تنازعوا: هل تُبعث الأجساد مع الأرواح، أم الأرواح فقط، فلما بُعث أصحاب الكهف بأجسادهم كان القول الحق أن البعث سيكون للجسد والروح معاً.

وقد ذكرنا - في المقطع السابق - بعد أن اكتُشف أمرهم وذهب الناس إلى

---

(1) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 342)، وتفسير الثعلبي: (6/ 162).

(2) ينظر: تفسير الثعلبي: (6/ 162)، وتفسير البغوي: (5/ 161)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: (3/ 530).

(3) ينظر: تفسير الطبري:(17/ 629)، وتفسير الثعلبي:(6/ 162)، وتفسير القرطبي:(10/ 378).

مكان الكهف، وبعد أن جاء صاحبهم وأخبرهم، **وقيل:** إنهم خرجوا فاستقبلوا الملك المؤمن، ثم أراد الله أن تنتهي قصتهم فأماتهم داخل الكهف، فلما رأى القوم أنهم قد ماتوا؛ اختلفوا ماذا يصنعون عليهم؟ فمن قائل يقول: (قالوا ابنوا عليهم بنيانًا)، **أي:** اعملوا بنيانًا على باب الكهف؛ أي سدوا الباب بحيث يصير الكهف هو مقرهم ومقبرتهم دون الحاجة إلى قبور، والظاهر أنه قول المؤمنين[1]، **وقوله:** (ربهم أعلم بهم)، هل هذا القول حكاية عمن قال: ابنوا عليهم بنيانًا؟ يمكن، ابنوا عليهم بنيانًا ربهم أعلم بهم، أو أن هذه الآية جاءت تعقيبية على شكل جملة اعتراضية من كلام الله تعالى، **أي:** أعلم بمصيرهم وحالهم وكيف سيكون؟ فحالهم يقتضي أن يكون لهم خصوصية، وهذه الخصوصية كما سبق أن الله أخفاهم من عدوهم وحفظهم في الكهف، فهذه الخصوصية تقتضي أن يكونوا بعد موتهم كذلك.

ثم قال: (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً)، المقصود بهم الملوك والمسؤولون أهل السلطة في تلك المدينة من المؤمنين، حيث قالوا: لنعملن عند هذا المكان مكانًا للعبادة، وهذا يدل على أنهم كانوا على دين اليهود أو على دين النصارى، فقد كان النصارى واليهود بعد تحريفهم لدينهم يتخذون قبور صالحيهم أماكن للعبادة[2]، ولا حجة في هذا القول لمن يبني

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 640)، وتفسير السمرقندي: (2/ 342)، وتفسير الرازي: (21/ 447).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 134)، وتفسير الثعلبي: (6/ 162).

قباباً وأضرحة ومساجد على القبور، فهذا دينٌ آخر ليس ديننا، وهو شرع باطل محرّف، ولأن ديننا جاء بتحريم البناء على القبور ونهانا عن اتخاذ القبور مساجد، فهؤلاء القوم إنما فعلوا ذلك تعظيماً وتكريماً واستذكاراً لهم، وقد جاء ذكرها في القرآن في معرض الذم وليس في معرض المدح، وقد جاء شرعنا بإبطال هذه القضية وتحريم البناء على المساجد.

ثم قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ٢٢﴾، **وقد اختلف الناس في عدد أصحاب الكهف**؛ فمن قائل يقول: إنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم، وآخر يقول: هم خمسة وسادسهم الكلب، وقد حكى هذين القولين وعقّب عليهما **بقوله:** (رجماً بالغيب)، **أي:** تخرص بغير دليل، فدل هذا التعقيب على إبطال القول الأول والثاني، ولم يبقَ إلا القول الثالث الذي حُكي وأُقرّ، وهو: (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم)، فدل على أن عددهم سبعة والثامن هو الكلب، وهذا هو الراجح[1]، **وقوله تعالى:** (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل)، قال بعض أهل العلم: إن التعقيب بهذا فيه دليل على أن عددهم لا يعلمه إلا الله، لكن الراجح أن هذا التعقيب جاء للفصل بين المختلفين في ذكر العدد وأنهم سبعة وأنه قد أعلمهم بعض خلقه، **بدليل قوله:**

(1) وهذا ما رجحه ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين ينظر: تفسير الطبري: (17/ 642)، تفسير الرازي: (21/ 448).

(ما يعلمهم إلا قليل)، **أي**: من الخلق، وقد ثبت عن ابن عباس أنه كان يقول: أنا من القليل الذين علموا عدتهم[1]، ثم قال الله لرسوله: (فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً)، **أي**: لا تجادل فيهم إلا جدالاً لطيفًا بحجة، فيكون ظاهراً هنا من ظهور الحجة والبرهان، وقد نُهي النبي ﷺ في أهل الكهف عن أمرين، الأمر الأول: نهاه عن مجادلة أهل الكتاب في عددهم، فقد جاء في بعض روايات أسباب النزول[2]، بأسانيد فيها ضعف - لكن يمكن أن يُستأنس بها - أن نصارى نجران جاؤوا إلى النبي ﷺ وجادلوه في عدد أصحاب الكهف، فسألهم: كم عددهم؟ **فقالت اليعقوبية من النصارى**[3]: ثلاثة ورابعهم كلبهم، **وقالت النسطورية من النصارى**[4]: عددهم أربعة وكلبهم الخامس، **وقال المسلمون**: عددهم سبعة

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 642).

(2) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 342)، وتفسير الثعلبي: (6/ 162)، وتفسير البغوي: (5/ 161).

(3) اليعقوبية: أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحمًا ودمًا، فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده بل هو، هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)، [المائدة:73]ن فمنهم من قال: إن المسيح هو الله تعالى. ومنهم من قال: ظهر اللاهوت بالناسوت ينظر: موسوعة الملل والأديان - الدرر السنية: (1/ 412).

(4) النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه، قال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى، كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم ينظر: موسوعة الملل والأديان - الدرر السنية: (1/ 411).

وكلبهم الثامن، فأقرّ الله قول المسلمين أنهم سبعة وكلبهم الثامن، **ثم نهى الله رسوله عن مجادلة النصارى في هذا القول، ووصفه بقوله:** (رجماً بالغيب)، **أي:** ليس عليه دليل. **والأمر الثاني:** نهاه عن سؤال أهل الكتاب عن قصتهم، **فقال:** (ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً)، فما وُجد عند أهل الكتاب من قصص فأغلبها محرّف، وفيها الأساطير والخرافات، ويكفيك ما قصّه القرآن عليك منهم، فما الداعي أن تسأل أهل الكتاب عنهم؟ وقد جاءك من الله البيان والبرهان والحجة، وفيه دليل على أن من لا تتوفر فيه شروط الفتوى فلا يُستفتى، فلا تستفتِ من هب ودب، إنما تستفتي العالم الورع التقي، ولذلك على من يبحث عن فتوى مسألة أن يتأكد من شرطين: هل هذا الشخص عالم بهذه المسألة؟ فإن كان عالماً؛ فاسأل عن دينه وتقواه وورعه، لأن بعض المنافقين عندهم علم وليس عندهم ورع وتقوى، وما أكثر علماء السوء اليوم، للأسف، الذين يفتون بحسب ما يطلبه الناس، خاصة إذا كان المستفتي صاحب جاه أو سلطان، أما العالم التقي الورع فإنه سيفتي بالحق وإن خالف هوى السلطان أو السائل.!!

والعلتان موجودتان في أهل الكتاب: جهل وتحريف لدينهم، وعدم الورع والتقوى، فقد أفتوا مشركي مكة أن دينهم أفضل من دين محمد! فأي ورع وأي دينٍ لديهم بعد هذا؟!!

ثم وعظ اللهُ رسولَه ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾، **وقد جاء في سبب نزولها:** أنه لما جاء المشركون يسألونه عن

أصحاب الكهف؛ قال: سأخبركم غداً، ولم يقلْ: إن شاء الله، نسي أن يقول: إن شاء الله، فغاب عنه الوحي خمسة عشر ليلة[1]، فتألم رسول الله ﷺ، وكان في غيبة الوحي مدخل لليهود والمشركين في أن يشككوا بالرسالة وكثرة القيل والقال، فوعظه الله تعالى – والخطاب له ولأمته – في أي قضية مستقبلية تريد فعلها قل إن شاء الله عند حديثك عنها، وليس بالضرورة غداً وإنما غداً صورة من الصور، وإلا فالصور كثيرة، مثل: بعد قليل، وفي آية رؤيا النبي ﷺ دخول المسجد الحرام، **قال الله:** ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾[الفتح:27]، **فقُيد تحققها بقوله:** (إن شاء الله)، **ولما أخبر النبي ﷺ** بها، قال: **"إنكم ستطوفون وتسعون، ولما رجعوا كانوا يحتجون عليه ويقولون: ألم تقل إنا سنطوف، فقال: أقلت لكم هذه السنة؟! قالوا: لا، قال: إنكم ستطوفون"**[2]، **بمعنى** أن الوعد مفتوح وتحقّقه يكون بمشيئة الله.

وعليه؛ فإذا أعطيت الناس وعداً مستقبليًا، فاقرنه بمشيئة الله؛ حتى لا تقع في الحرج، وعلى الناس أن يفهموا أن قول: (إن شاء الله) عند الوعد؛ يعني أن تنفيذ الأمر واقع تحت المشيئة، وقد لا تتحقق المشيئة، فإذا لم تتحقق المشيئة، فلا يُسمى مَنْ وَعَدك منافقًا، لأن المنافق هو من يَعِدُ وهو في قرارة نفسه قد أبطن عدم الوفاء.!!

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (17/ 644)، والتفسير الوسيط للواحدي: (3/ 143).

(2) رواه البخاري: (3/ 196) برقم: (2731).

وقوله: (واذكر ربك إذا نسيت)، **فيها قولان**: **القول الأول**: إن نسيت أن تقول: (إن شاء الله)، فقل: إن شاء الله عندما تذكر، **وقولك**: إن شاء الله حينما تذكر فيه متعلقان، **أحدهما**: تعبدي، **والآخر**: فقهي، فالتعبدي: أن من قال: إن شاء الله بعدما ذكر القول الذي وعد ونسى حتى ولو ذكر بعد يوم أو يومين أو حتى سنة[1] خرج من الحرج الشرعي في عدم تنفيذه، **وأما الفقهي**: فيتعلق بالكفارة والإثم؛ فاشترط الفقهاء أن يكون الاستثناء متصلاً، فمن قال: والله لا أفعل، ثم قال: إن شاء الله لم يحنث، ولو قمت من المجلس أو ذكرت بعد مدةٍ فقلت: إن شاء الله؛ لا يصلح الاستثناء في اليمين ولا تسقط عنك الكفارة، بل تلزمك[2]، وهناك تفاصيل للفقهاء في هذا الباب.

القول الثاني: أن هذا توجيه لكل ناسٍ غابت منه فكرة، أو وضع شيئًا ونسي مكانه؛ فعليه بذكر الله كثيراً؛ حتى تعود له ذاكرته، وتذهب عنه خاصية النسيان، وذلك لأن ذكر الله تعالى من أعظم وسائل تحفيز العقل للحفظ واستذكار المعلومات[3]، **وقد جاء عن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ**، أنه أحيانًا كان يعجز عن حل مسألة، فيذكر الله ويسبحه حتى يفتح الله عليه فيها.!!

ثم قال له: (وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً)، **أي**: ادع الله أن يهديك ويوفقك لأحسن الطرق وأرشدها، حين تعدِ الناس، قل: إن شاء الله،

(1) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر: (17/ 646).

(2) ينظر: المصدر السابق: (17/ 646).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 452).

عسى الله أن يهديني ويرشدني كي أنفّذ لكم طلبكم، لأن الأمر بيد الله، فالأمر غيبي، وقد يكون أمامه عوائق، فمن يزيل العوائق؟ ومن يهيئ الظروف؟ إنه الله وحده، فيلحق وعده بالدعاء بتيسير ما وعد به.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾، بعد الخلاف الذي وقع بينهم عن مدة اللبث في الكهف، وإعادة العلم بذلك إلى الله، قال الله جواباً على تساؤلهم كم لبثتم؟!: (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً)، أي مكثوا من يوم ناموا إلى أن استيقظوا: ثلاثمائة سنة، بحساب الأشهر الشمسية، (أي: ما يسمى اليوم بالميلادي)، وازدادوا تسع سنين إذا كان الحساب بالأشهر القمرية[1]، (أي: ما يسمى اليوم بالهجري)، حيث يوجد فرق في كل مائة سنة ثلاث سنوات، وفي كل سنة عشرة أيام، وتسع سنواتٍ هي فوارق مجموع الثلاثمائة سنة بين القمري والشمسي.

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾، بعد أن أعطانا عددهم ومدة لبثهم، بيّن أن هذا العلم ما كان لكم أن تعلموه لولا أن علمكم الله، فمصدره هو الله الذي (له غيب السموات والأرض)، فالذي سبق من خبرهم هو غيب، وقد أعلمكم به، ولكن هناك غيب لا تعلمونه هو غيب السموات والأرض، ثم قال: (أبصر به وأسمع)، هذا أسلوب من أساليب البلاغة يسمى أسلوب التعجب، تستطيع أن تحوله إلى "ما" التعجبية، تقول: ما

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (3/ 63).

أبصره! وأبصر به، ما أسمعه! وأسمع به، **والمعنى**: ما أشد بصر الله وسمعه للمخلوقات والموجودات! لا أحد أبصر من الله ولا أسمع من الله، لأن سمعه وبصره وسع الموجودات كلها، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ثم قال: (ما لهم من دونه من وليّ)، **أي**: لا يوجد من ينصر غير الله ولا يؤيد غير الله، فالنصر والتأييد البشري إن وجد فهو ضعيف، والنصر الحقيقي والتأييد الحقيقي هو من الله وحده، ثم قال: (ولا يشرك في حكمه أحداً)، لا: نافية، وحكم الله نوعان: حكم قدري، وحكم شرعي، فكما أنه لا يشاركه في حكمه القدري أحد؛ فكذلك لا يشاركه في حكمه الشرعي أحد، فهذا إخبار من الله تعالى عن حكمه القدري وحكمه الشرعي، فلا تشرك بالله لا في حكمه القدري؛ فلا تقل: هناك خالق غير الله أو مع الله، ولا في حكمه الشرعي؛ فلا تقل: هناك مشرّع غيره أو مع الله، فالحلال ما أحلّه والحرام ما حرّمه، فالتحليل والتحريم بيد الله، **كما قال**: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[النحل:116].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- في شرعنا تحريم اتخاذ القبور مساجد، ولا يجوز البناء عليها، وما ذُكر في قصة أصحاب الكهف فإنها من ديانة أخرى، وما ذكر هنا فعلى سبيل التحذير.

2- في قصة أصحاب الكهف حجة بالغة على من ينكر البعث والنشور، وقد

ذكر الله عدة قصص تدل على إثبات البعث والنشور؛ منها قصة عزير وحماره كما في سورة البقرة، وقصة إبراهيم مع الطير، وغير ذلك من القصص التي حصلت لإثبات قدرة الله على البعث بعد الموت.

3- أن الجدال والمراء مذموم إلا بالتي هي أحسن، وأن يكون بالعلم والحجة، وفي الحديث: **"أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقـًا"**(1)، فإذا وصل النقاش والجدال مع غيرك إلى حد الغضب وارتفاع الأصوات وتغيّر الأحوال؛ فاتركه.

4- من الآداب الشرعية؛ تعليق المشيئة بالله تعالى عند الحديث عن شيء مستقبلي، حتى تخرج من خلاف الواقع فيما إذا لم يحصل شيء، فليس عليك حرج في ذلك.

5- لا تستفتِ من لم تنطبق عليه شروط الفتوى، وهي: العلم الصحيح، والورع والتقوى، وابحث عمن تتوفر فيه هذه الشروط حتى لا تقع في مخالفة شرعية.

---

(1) أخرجه أبو داود: (7/ 178) برقم: (4800)، وحسنه الألباني.

تفسير المقطع الخامس من سورة الكهف

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ﴾.

قول الله سبحانه: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾، هذا أمرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يتلو ما أوحي إليه، **والتلاوة تأتي بمعنى** القراءة، **وتأتي بمعنى** الاتباع، وكلا المعنيين مراد في هذا اللفظ، اقرأ ورتل آيات القرآن على أسماع الناس حتى يفهموها ويتعلموا الأحكام المتعلقة بها، وفي نفس الوقت اعمل بتلك الأحكام وأتبعها بالعمل، و"من" هنا بيانية؛ والمقصود: اتلُ كل ما أوحي إليك من كتاب ربك،

وهذا هو المعنى الأشمل للآية، فالنبي ﷺ مأمور بتلاوة كل ما أوحي إليه وإبلاغه كله، وما جاءه إنما هو وحي من الله تعالى وليس من عنده، والكتاب المقصود به القرآن، وأضيف إلى الرب تشريفاً للصحف التي كُتب عليها، والأصل أن القرآن كلام الله تعالى فهو صفة من صفاته، فإذاً المتلو كلام الله وصفته، والشيء الذي كتب فيه وهي الأوراق والمداد أضيف إلى الله تشريفاً، **وقوله:** (**لا مبدل لكلماته**)، **أي:** أن أحكام الله تعالى لا تتغير ولا تتبدل، وليس النسخ تبديلاً، لأن النسخ انتهاء زمن الحكم الأول، فإذا جاء حكم جديد فلا يسمى ذلك تبديلاً، وإنما هو انتقال من حكم إلى حكم آخر، ويشمل هذا الأحكام القدرية والشرعية، **كما في قوله:** ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾[ق:29]، **وفي قوله:** ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[الرعد:41]، **أي:** لا معقّب ولا مغيّر ولا معدّل عليه.

وقوله: (**ولن تجد من دونه ملتحداً**)، هذه العبارة أتت بعد الأمر بتلاوة القرآن واتباعه، فالمعنى: إن لم تفعل ما أُمرت به فليس لك من ملجأ إلا الله، والملتحد المقصود به هنا الملجأ، والأصل في معنى ملتحد: الميل عن الشيء، ومنه الملحد والإلحاد، **كقوله تعالى:** ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:180]، **أي:** يميلون بها عن معناها الصحيح إلى معنى باطل، واللحد: الميل في الحفر إلى جهة القبلة في القبر، والهدف منه أن يكون ملجأً للميت حتى لا ينزل عليه التراب ولا تقع عليه الحجارة، ولا شك أن النبي ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وإنما ذكر الله تعالى هذا التهديد ليشمل من يأتي من بعده

من أمته، لأن الخطاب في الآية عام للرسول ﷺ وأمته، فنحن مأمورون بتلاوة القرآن واتباعه، فمن لم يتلوه ويتبعه، فيُخشى عليه ألا يجد له نصيراً ولا معاذاً ولا ملجأً من الله تعالى.!!

ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾، أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يصبّر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية والآية التي تشابهها في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾[الأنعام:52]، أن كفار قريش وصناديدها كانوا يستنكفون أن يحضروا مجلساً لرسول الله ﷺ فيه ضعفاء القوم، مثل صهيب وعمار وبلال وغيرهم، فعرضوا على رسول الله ﷺ عرضاً ملخصه: إن شئت أن نجلس في مجلسك فاطرد هؤلاء الضعفاء واجعل لنا مجلساً خاصاً بنا[1]، **وكان النبي ﷺ** قد استمع إلى هذا الطلب، وبدأ يفكر فيه، وذلك من حرصه على استجابة الكبار لدعوته، لكن الوحي قطع عليه تفكيره، **بقوله:** (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي)، **أي:** لا تستجب لهذه الفكرة، فهذا الدين دين المساواة، وليس دين الأقوياء دون الضعفاء، أو دين الأغنياء دون الفقراء، فليس فيه تفضيل على أساس العرق أو الجنس أو اللون، فالناس أمام الدين سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

(1) أخرجه مسلم: (4/ 1878) برقم: (2413).

وجاءه الأمر بالجلوس مع هؤلاء المؤمنين الصالحين حتى ولو كانوا ضعفاء أو فقراء، فالعبرة بالإيمان، وليس بالأموال أو الأجسام أو الأشخاص أو المناصب، فقيمتك عند الله إيمانك وتقواك، فقال له: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي)، وذكّرهم هنا بأهم وصف لهم، وهو: كثرة دعائهم واستغفارهم صباحاً ومساءً، **فالغداة هو:** الصبح ابتداءً من طلوع الفجر إلى الزوال، والعشي هو: المساء من بعد الزوال أو من بعد العصر إلى غروب الشمس، فما يفعله هؤلاء من الذكر والعبادات والطاعات يومهم وليلتهم: (يريدون وجهه)، فهم فيه مخلصون وليس لهم رغبة دنيوية، وهذه عبارة تدل على تحقق الإخلاص في هؤلاء القوم، وتزكية الله لهم.

ثم قال له: (**ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا**)، **لا تعد:** من العدو وهو التجاوز، **أي:** لا تتجاوز عيناك عنهم وتنتقل إلى مجالسة أهل الغنى والشرف، بل اجلس مع من هذا حاله وتلك صفاته، ولا تنتقل عن مجالسة الصالحين وإن كانوا فقراء، إلى مجالسة أهل الدنيا الأغنياء وهم كفار، فالعبرة هي بالإيمان والكفر، فالغني إذا كان كافراً فلا قيمة له، والفقير إذا كان مؤمناً فله قيمته، ولو كان غنياً مؤمناً فخير وفضل، ولا يعني هذا التحذير من مجالسة الأغنياء مطلقاً، إنما التحذير هنا من مجالسة من استغنى بماله عن الإيمان.

ثم قال له: (**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه**)، لا تستمع إلى مقترحات الأغنياء الذين طلبوا مجلساً خاصاً بهم حتى يؤمنوا، فهؤلاء أغفل الله قلوبهم عن الإيمان بالله وذكره وتعظيمه، وحل في قلوبهم اتباع الهوى، وهو

ثمرة من ثمار الغفلة عن ذكر الله تعالى والإيمان به، وأكثر الناس اتباعًا لأهوائهم، هم الغافلون عن ذكر الله.!! فإذا أردت أن تبتعد عن هواك فاذكر الله واستقم على أمره!، فإن الله تعالى يمنح هداية الإرشاد والدلالة لكل الناس، فمن أعرض عنها طبع الله على قلبه، فيصبح قلبه غافلاً، فلا يقبل إلا ما وافق هواه، ثم قال: (وكان أمره فرطًا)، وكان شأنه ضائعًا، وحاله مشتتًا وشمله مفرقًا، فعنده في حياته مشكلات متعددة ومتنوعة: أسرية، واجتماعية، واقتصادية، ونفسية، وتستطيع أن تقول: أمره وشأنه اليومي منفرط عليه، فلا ينجح في أي مشروع، وهذا من آثار الغفلة والبعد عن الإيمان.!!

فإذا أردت أيها المسلم أن ينتظم شأنك ويصلح حالك في الدنيا والآخرة؛ فعليك بذكر الله وتعظيمه في قلبك وذكره في لسانك واتباعك لأمر الله وخضوعك له في كل شؤون حياتك، **وتذكر الحديث**: **"من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له"**[1].

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾، وقل يا محمد الحق الذي كُلّفت بإبلاغه وهو محتوى الرسالة، من عقائد، وأحكام، وشرائع، وأخلاق، وبلغه للناس أجمعين، وبيّن لهم طريق الحق من طريق الباطل، وموضوع إسلامهم أو عدمه فهم الذين

(1) أخرجه الترمذي: (4/ 642) برقم: (2465)، وصححه الألباني.

يختارونه، فالمشيئة هنا مضافة للعبد، وبها يختار الحق أو الباطل؛ حتى يثاب أو يعاقب على اختياره، وهذا من عدله سبحانه لأنه منح هداية الدلالة للجميع.

وقوله: (**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**)، هذا خبر على صيغة التهديد والوعيد، لأن بعض الناس يستدل بهذه الآية على جواز الكفر! فنقول له: لو كنت تعرف أساليب العرب في الخطاب؛ لما قلت هذا، فإن هذا خبر جاء على سبيل التهديد بدليل سياق ما بعده، **وهو قوله:** (إنا أعتدنا للظالمين ناراً)، **أي:** فمن اختار الكفر، فإنا قد أعتدنا له النار، فكأنه يقول: أيها الإنسان نحن هديناك السبيل وبيّنا لك الحق من الباطل، فإن شئت أن تتنكب الصراط، وتختار الكفر؛ فانتظر جزاءك في نار عظيم وصفها!!، فهل هذا أسلوب تخيير، أم هو أسلوب ذم وتخويف وتحذير؟!!

وسمّى الكافرَ ظالمـًا؛ لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فكون الله خلقك وأوجدك، فهذا يستلزم منك أن تعبده وتشكره، فكونك عبدت غيره وشكرت غيره، فقد وضعت الشيء في غير موضعه، وهو الظلم بعينه.!!

وقوله: (**أعتدنا للظالمين ناراً**)، تدل على أن النار جاهزة ومعدة ومخلوقة الآن، ومن يمت من الكفار، سيجد لظاها وحرها وألمها في دار البرزخ، وهو في طريقه إلى الآخرة، فعذاب القبر من مقدمات عذاب النار في الآخرة، فلو لم تكن النار مخلوقة، لما وجد الكافر أثرها في قبره، بل عذاب القبر جزء من لفحاتها، حيث تفتح له طاقة إليها ويأتيه من ليهيبها ويذوق من حرها قبل وصوله إليها بعد الحشر.!!

وقوله: (أحاط بهم سرادقها)، وصف لحال أهل النار فيها، والسرادق: هو الذي يحيط بالشيء مثل السور أو الحائط، أو الحزام يربط الشيء المفرق، فسرادق النار هو الذي تحجز به النار، وقد يكون لهيبها حين يلتف على الناس فيحجزهم، وقد يكون سورها وحائطها.

وقوله: (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل)، يعني: أن أهل النار يطلبون الغوث، والاستغاثة: الطلب بصوت مرتفع لغرض النجاة من شيء مؤلم، فيطلب من ينقذه منه، لذا سميت استغاثة، وأهل النار يستغيثون من شدة حرها وعذابها حيث يصابون بالعطش الشديد، فيطلبون الغوث وهو الماء، فيغاثون بماء ليس صالحًا للشرب، بل وصفه أنه يشبه المهل، والمهل شيء قبيح اجتمعت فيه عدة أوصاف: شدة حرارته، ونتانة ريحته، وسواد لونه، وسواء كان المهل من صديد وعصارة أهل النار، أو كان من النحاس المذاب، أو من أي شيء آخر، فهذه الصفات الثلاث ملازمة له، فلو نظرت إليه نظرت صورة قذرة، وإن شممتَ شممت رائحة قذرة، وإن طعمتَ طعمت شيئًا خبيثًا حاراً.!!

وقوله: (يشوي الوجوه)، من الشواء: وهو إحراق اللحم على النار حتى ينضج، وهؤلاء المستغيثون بمجرد أن يريدوا أن يشربوا ويقرّبوا الماء من أفواههم، تُشوى لحوم وعصب وجوههم وتسقط، والعياذ بالله.!

ثم وصف الله تعالى هذا الماء بقوله: (بئس الشراب)، بئس تأتي للذم، أي بئس الشراب شرابهم، (وساءت مرتفقًا)، وهنا أتى بضمير المؤنث للحديث عن جهنم، وهي المكان الذي يسكنون فيه، فهو من أسوأ الأماكن، والمرتفق:

مكان الاتكاء والجلوس، ولذلك يطلق على المفصل الذي في نهاية الذراع مرفق، لأنه يتكأ عليه، فالارتفاق له معنيان: معنى معنوي، ومعنى حسي، فالمعنوي: الراحة النفسية، والمعنى الحسي: المكان الهنيء الذي تتكأ عليه وترتاح فيه، وهنا حرموا منهما معًا، (بئس الشراب وساءت مرتفقًا)، ساء المكان والجلسة جلستهم؛ لأنها في جنهم وسط الحر الشديد.!

وبعد أن حدثنا الله عن جزاء من اختار الكفر؛ فلا بد أن يحدثنا عن جزاء من يختار الإيمان في قوله: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، حيث بدأ بذكر الإيمان لأنه المطلوب من الناس، وثنى بالكفر، ولكن عند الجزاء بدأ بذكر جزاء الكافر وثنى بذكر جزاء المؤمن، وهذا ما يسمى عند العلماء باللف ثم النشر(1)، وهو صورة من صورة البلاغة، فبدأ بالحديث عن الكفار وبيّن حالهم، **ثم قال:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾، فمن آمن بالله وعمل صالحًا متقنًا، فهذا له جزاء وثواب لا يضيع عند الله، وذكره هنا على وجه الإجمال، **ثم فصّل فيه، فقال:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ﴾، **الجنات:** اسم للجنة وما فيها من

---

(1) **اللف والنشر:** هو في لسان علماء البيان: عبارة عن ذكر الشيئين على جهة الاجتماع مطلقين عن التقييد ثم يوفّى بما يليق بكل واحد منهما اتكالاً على أن السامع لوضوح الحال يرد إلى كل واحد منهما ما يليق به، وهو في الحقيقة جمع ثم تفريق، واشتقاقهما من قولهم: لف الثوب إذا جمعه، ونشر الثياب إذا فرقها، ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: (2/ 212).

الدرجات، من ضمنها جنة عدن، والمقصود بعدن في لغة العرب: الشيء الذي يقيم ويستقر، وسميت جنات عدن؛ لإقامة واستقرار أهلها فيها، ثم ذكر وصفها فقال: (تجري من تحتها الأنهار)، **أي:** من تحت أشجارها وقصورها تجري الأنهار، ثم قال: (يحلّون فيها من أساور من ذهب)، **والآية تشير إلى** أن كل أهل الجنة يحلّون بالذهب ذكوراً وإناثًا، فليس الذهب محرمًا على الرجال في الجنة، بل صار الرجل يتحلى بالذهب، والمرأة تتحلى بالذهب بخلاف الحكم في الدنيا، فالحلية خاصة بالمرأة تتحلى وتتزين لزوجها، أما في الآخرة فلا توجد خصوصيات للرجل أو للمرأة، فالجميع في الجنة مخلدون، فهم لا يعملون، فكل شيء يأتي إليهم من طعام وشراب وغيره، ويطوف به عليهم ولدان مخلدون، فلا شغل لهم إلا التنعم، ثم قال: (يحلون فيها من أساور)، والأساور التي توضع على اليد، وتكون من ذهب، ثم قال: (ويلبسون ثيابًا خضراً)، لماذا اختار الثياب الخضراء؟، قالوا[1]: لأن اللون الأخضر هو ألطف وأحسن الألوان راحة للنفس والبصر، بخلاف غيره من الألوان، ولذلك فالذي عنده مشكلة نفسية؛ يُنصح بأن يدخل حديقة خضراء فيها ماء وأزهار ويُنصح بالجلوس فيها.

وقد خلق الله الجنة، وفيها كل ما يريح النفس في منظره وفي سماعه وفي ملمسه، وفيما يؤكل، فيما يلبس، وغيره، **وقوله:** (من سندس)، وهو الثياب من الحرير الرقيق، (وإستبرق)، وهو الثياب الغليظ من الحرير، وأنت تختار أيهما شئت، **وقوله:** (متكئين فيها على الأرائك)، **أي:** في الجنة، **والاتكاء هو:** التربع،

---

(1) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي: (1/ 57).

ويدخل فيه الاتكاء الذي هو الميل والجلوس على جنب على المتكأ، **والأرائك**: جمع أريكة وهي السرر المرتفعة التي تشبه سرر الملوك، فكلما كانت مرتفعة كانت أكثر وضوحًا في رؤية الأشجار والثمار والأنهار، وكانت أتم في الراحة.

وختم هذه الآية بقوله: (**نعم الثواب وحسنت مرتفقًا**)، **أي**: نعم الجزاء جزاؤهم، وأحسن مكان مكانهم، وهو الجنة، فيه رفق بأرواحهم وأجسادهم.!!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- فضيلة صحبة الصالحين والجلوس معهم والصبر على ذلك، لأنه غالبًا الصالح الضعيف الفقير؛ النفس لا تحب الجلوس معه، بخلاف الغني فالنفس تحب الجلوس معه؛ لتنال منه شيئًا.

2- كثرة ذكر الله تعالى مع حضور القلب يؤدي إلى صلاح الشأن وعلاج الغفلة والبعد عن الهوى، فإن أردت صلاح شأنك وعلاج غفلتك والبعد عن الهوى؛ فلازم ذكر الله تعالى.

3- أن قاعدة الثواب والعقاب مرتبطة بالإيمان والكفر، وأنت من يختار الطريق، فإذا أردت الثواب والجنة، فهذا طريق الإيمان، وإذا أردت العقاب والنار، فهذا طريق الكفر.

تفسير المقطع السادس من سورة الكهف

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ
جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ
بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ
أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ
بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ
أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ
هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾، أمر الله رسوله ﷺ أن يذكر هذا المثل لكفار مكة الذين كان يخاطبهم ويدعوهم، ويصلح لكل من أتى بعدهم، وهو مثلٌ ضربه

الله تعالى للمؤمن والكافر، وسواء كان هذا المثل حقيقة وقعت في بني إسرائيل لأخوين، كما جاء في بعض الروايات[1]، وهي من الإسرائيليات، التي يستأنس بها مع أن سندها ليس بذاك، أن هذه القصة وقعت لرجلين ورّثاهما أبوهما مبلغًا من المال، فاقتسماه نصفين، أحدهما كان مؤمنًا تقيًا، والآخر كان كافراً، فاشترى الكافر بماله أرضًا وزرعها، واشترى عبيداً وحشمًا وخدمًا وحيوانات، وأما المؤمن الصالح فتصدق بماله وانشغل بالطاعة والعبادة، وفي يوم من الأيام تقابل المؤمن مع أخيه عند باب مزرعته، فنظر إليه أخوه وهو في حالة رثة من الفقر والحاجة؛ فقال له: تعال أريك ما عندي حتى تعرف أين أنا وأين أنت، فأدخله إلى البستان وكان وقت ظهور ثماره ونضوجها، وجلس يحدثه ويفتخر عليه بما عنده من مال وولد، أو كان مثلاً أطلق من أجل أن يعتبر المؤمن بحال أخيه الكافر والعكس.

وجاء ذكر هذا المثل بعد ذكر طلب كفار قريش من رسول الله ﷺ أن يجعل لهم مجلسًا خاصًا بهم، فأمره الله تعالى بأن يصبر مع الذين آمنوا؛ لبيان أن حال هؤلاء الكفار المغترين بأموالهم وأولادهم، يشبه حال ذلك الرجل الكافر الذي اغتر بماله وجنته وولده، فانظروا كيف كانت نهايته؟!! وأن حال المؤمنين الضعفاء من أصحاب رسول الله ﷺ يشبه حال ذلك الرجل المؤمن الفقير الصادق الذي أقبل على الله، فانظروا كيف كانت نهايته؟!!

---

(1) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 346)، والتفسير الوسيط للواحدي: (3/ 148)، وتفسير البغوي: (5/ 170)، وتفسير الزمخشري: (2/ 720).

قال سبحانه: (واضرب لهم مثلاً رجلين)، **الأول:** مؤمن، **والثاني:** كافر، (جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل)، جعل الله للكافر بستانين، فإن البستان إذا كان كثير الأشجار سمي جنة، والجنة الأصل فيها الخفاء والاستتار، ومنه سمي الجن لأنهم مخفيون، والجنين لأنه مخفي في بطن أمه لا تراه العيون، وهاتان الجنتان وصفتا بأنهما مزروعتان بالعنب، وسورهما محاط بأشجار النخيل، **وفي الآية إعجاز علمي**[1]، فالمزرعة التي تغطى بالأشجار من حولها حتى يحمي ما بداخلها؛ يكون الشجر الذي بداخلها أكثر حماية وأطيب ثمراً من غيره، خاصة وأن شجرة العنب ضعيفة وأن ثمرتها تتأثر بالرياح والغبار وغيرهما، فكان إحاطة هذه المزرعة بالنخل وهي ذات قوة وصلابة وارتفاع، له أثره الطيب على أشجار وثمار المزرعة، **وقوله:** (وجعلنا بينهما زرعًا)، **أي:** أن أرض هذا البستان مستغلة كلها، فأطراف المزرعة محفوف بالنخل، وداخل المزرعة فيه أشجار العنب المتفرقة، وما بينها مستغل بزراعة أنواع أخرى من الزروع مثل البر والشعير ونحوه، وهذا يدل على طيب تربتها، وكثرة مائها واهتمام صاحبها بها.

وقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾، **أي:** أن كلا الجنتين أخرجت ثمارها وحان حصادها، مما هو مزروع فيها من

---

(1) **المقصود بالإعجاز العلمي هو:** "إخبار القرآن بحقيقة كونية أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ مما يُظهر صدقه فيما بلّغ عن رب العزة سبحانه". الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، جامعة المدينة: (71).

نخل وعنب وزروع أخرى ولم تنقص من ثمارها شيئًا، وعبّر بالظلم هنا إشارة إلى ظلم الكافر، فصاحبها ظالم نفسه بكفره، والله تعالى لم يظلمه بنقص أو فساد زرعه، بل أعطاه ثماراً عظيمة مع كفره وظلمه لنفسه، **وقوله**: (وفجّرنا خلالهما نهراً)، **أي**: أن هذه المزرعة لا تسقى بالمطر فحسب، فيخاف صاحبها من انحباسه، ولا تسقى بانتزاع الماء لها من آبارٍ، فيشق على صاحبها نزعه وإخراجه، وإنما أجرى الله نهراً داخل هاتين الجنتين، وهذا يدل على سهولة السقي وإكرام الله لهذا الرجل، وكان المتوقع من هذا الرجل أمام نعم الله التي منحها له، أن يؤمن بالله وأن يشكره عليها، إلا أنه وقع منه نقيض ذلك من الجحود بالله تعالى، وكفر نعمته.!!

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾﴾، **والثَمر** بفتح الثاء: ثمار الأشجار، و(**الثُمُر**)، بضم الثاء والميم، وهي قراءة أخرى[1]، **ومعناه**: المال من ذهب وفضة وغيره، وهو من نتاج المزرعة، فصار يفتخر على أخيه بذلك ويجادله ويناقشه، وكأنه يقول له: أنا نمّيت مالي، فانظر ماذا معي، وأنت انشغلت بالعبادة! فماذا استفدت منها؟ وكأنه يستهزأ به، بل صرح بفخره، فقال: (أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً)، فمالي اليوم كثير، وخدمي أكثر.!!

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾﴾،

(1) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر: (18/ 21).

أي: أخذ يطوف به على أشجارها وثمارها، وهو مستمر في ظلم نفسه بكفره وجحوده، ويقول له: (ما أظن أن تبيد هذه أبداً)، فلا أظن أن هذه المزرعة تهلك وتنتهي وتخرب أبداً، أي: طوال الوقت، وذلك لكرامتي ومكانتي عند الله.

ثم تجاوز في كفره وعناده حتى أنكر قيام الساعة، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾، فناقشه صاحبه المؤمن، وقال له: بأن الساعة حق، فقال له: لو افترضنا أن هناك بعثًا ونشوراً؛ فسأكون في الآخرة مكرّمًا منعّمًا أكثر منك، لأني منعّم ومكرّم في الدنيا، وهذا من غروره وكبره وجهله، فظن أن الله لما أكرمه في الدنيا بالرزق، أنه سيكرمه بالجنة في الآخرة، وسينقلب إلى جنةٍ ونعمةٍ وفضلٍ في الآخرة خيراً من جنة الدنيا، وأن صاحبه محروم من ذلك في الآخرة، كما حرم منها في الدنيا، وهذا قياس فاسد وباطل!! يقع فيه بعض الناس حتى اليوم: حيث يظن أن الله إذا أعطاه نعمًا من الدنيا؛ فإنه يحبه، وسوف يعطيه مثل تلك النعم في الآخرة.!! ونسي أن الدنيا يعطيها الله من أحب ومن لا يحب، أما الآخرة فلا يعطيها إلا لمن أحب.!!

وقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾، فوعظه صاحبه المؤمن بأصل نشأته، وضعف خلقته، فقال له: إن إنكارك للساعة كفر بربك الذي خلق أبانا آدم من تراب، وخلق ذريته من ماء يُمنى، وهي النطفة، (ثم سوّاك رجلاً)، من تلك النطفة المذرة في رحم أمك، ثم خرجت من مخرج البول طفلاً ضعيفًا، فأنشأك الله وأعطاك سمعًا وبصراً وقوة، ولما أصبحت رجلاً؛ كفرت بالله، ثم قال له: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ

أَحَدًا ﴿٣٨﴾، لكن أنا لا أفعل فعلك وأكفر بالله، فأنا أؤمن بالله الذي هو ربي ولا أشرك به أحداً، فأشعَرَ أخاه بكفره، وأقر هو بإيمانه وتوحيده وطاعته، رغم أنه فقير، فالعبرة بالإيمان لا بالمال، ففقر الدين أخطر من فقر الدنيا!!.

ثم استمر في وعظه، فقال له: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾، فهلاّ إذ دخلت الجنة ورأيت هذه النعم، أن تتذكر أنها من الله، فتقول: ما شاء الله المعطي، لأن العطاء من الله، و(لا قوة إلا بالله)، فالقوة من الله وإليه، ولا يمكن للإنسان أن يحصل على شيء إلا من الله وبالله.!!

ويستنبط من هذه الآيات: أنك إذا رأيت ما يعجبك مما تملك، فقل: ما شاء الله؛ حتى لا تصيبه بالعين، وإذا رأيت ما يملكه غيرك، فقل: تبارك الله، **كما جاء في الحديث:** "**هلاّ برّكت**"(1)؛ لأن الإنسان قد يعجب بما رأى من نعمة؛ فيصيب نفسه بعينه؛ فتذهب بسبب إعجابه بتلك النعمة، **وقوله:** (**إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولداً**)، **أي:** إن تكبرك عليّ كان بسبب أني أقل منك مالاً وولداً، فماذا تفيدك الأموال والأولاد إذا كانت كافراً بالله تعالى.!، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾[عبس:34-35]، **وقال:** ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾[الحاقة:28-29]، فلا فائدة من المال والولد إلا الامتحان في الدنيا،

---

(1) أخرجه مالك في الموطأ: (2/ 116) برقم: (1972)، وأحمد في المسند: (25/ 355) برقم: (15980)، والنسائي في السنن الكبرى: (7/ 101) برقم: (7570)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (6/ 148) برقم: (2572).

وقد يكون في الآخرة وزراً على صاحبه.

ثم قال له: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠﴾، فإذا كنت مفتونـًا بجنتيك وما فيهما، فأنا اعتقد أن الله سيعطيني خيراً منها في الآخرة بسبب إيماني وطاعتي له، فجنات الدنيا لا تقارن بجنات الآخرة، وفي الحديث: **"لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها"**[1]، وموضع السوط هو مكانه الذي يعلق فيه، ثم قال: (ويرسل عليها حسبانـًا فتصبح صعيداً زلقـًا)، قيل[2]: إن هذا المؤمن لما رأى من أخيه كفراً بالله بسبب افتتانه بالجنتين؛ دعا الله أن يهلكهما، لعله أن يتوب، والحسبان: هو العذاب سواء باحتراق البستان أو بذهاب ثماره أو بتهدم عروشه وانقطاع ثمره، والصعيد: هو التراب اليابس الذي لا نبات فيه ولا شجر، والزلق: الأملس الذي لا تقر عليه قدم، والمعنى: لا يستطيع أن يستفيد منها لا مسكنـًا ولا مزرعةً.

ثم دعا على مائها، بقوله: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾، أن يذهب الله ماءها، ويجعله غائراً في الأرض مختفيـًا لا أثر له.

وقد استجاب الله دعائه فتحطمت المزرعة وهلكت، فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾، فرجع الرجل إلى مزرعته، فوجد العذاب قد أحاط بها وأهلكها، وصار يقلّب

(1) أخرجه البخاري: (8/ 88) برقم: (6415).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 144).

كفيه ندمًا وحزنًا عليها، أو أنّ أصبح من الصبح: **أي**: أصبح في الصباح فرآها قد هلكت، فقلّب كفيه ندمًا وحزنًا عليها، وهي عادة لدى الإنسان إذا أصابته مصيبة يضرب كفيه بدون شعور، ندمًا وحسرةً، (على ما أنفق فيها)، **أي**: على ما خسر فيها، (وهي خاوية على عروشها)، ساقطة على عروشها قد تحطمت هذه العروش، ويبست تلك الأعناب والنخيل والزروع، وذكر هنا العروش؛ لأن الأعناب لا تثمر إلا إذا وضعت على عروش من الخشب أو الحديد أو غيره، فتنزل عناقيدها من خلالها، فيقول: (يا ليتني لم أشرك بربي أحداً)، فإذا به يفيق، ويتذكر أن هناك إلهًا وربًا له، وذكر نصيحة أخيه له، ولكن بعد أن خربت مزرعته بسبب كفره وعناده.!!

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾، **أي**: لم ينفعه افتخاره بماله وولده على أخيه حينما قال له: (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً)، فأين العشيرة والأولاد والخدم لكي يمنعوا عنك هلاك المزرعة وذهابها؟!! و(ينصرونه من دون)، **أي**: يمنعون عنه عذاب الله إذا نزل به، (وما كان منتصراً)، **أي**: ليس له من ناصر، فعذاب الله لا يرد عن القوم الظالمين، هذا هو المعنى إذا وقفنا على رأس الآية، وإن قلنا: (وما كان منتصراً هنالك)، فالمعنى: وما كان منتصراً حال نزول العذاب في الدنيا.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾، **أما إذا وقفنا عند**: (منتصراً) وبدأنا آية جديدة بقوله: (هنالك الولاية لله الحق)، **فيكون المعنى**: أن الإيمان يوصلك إلى الولاية، والله تعالى إذا صرت له وليًا؛ أعطاك ونصرك

وحماك، فنصر الله ملازماً لأوليائه، وولاية الله هي الولاية الحقة وغيرها باطل، فإن كنت تريد ولاية الله؛ فحقق أسبابها، وسيمنحك الله ما تطلب، ولذلك قال: (هو خير ثواباً وخير عقباً)، **أي**: إن ثواب الله خير، وعاقبته خير، والعاقبة للمتقين، فمن يريد خاتمة حسنة ونهاية حسنة؛ فعليه بولاية الله تعالى والإيمان به وطاعته.

فإياك أيها المسلم، أن تفتن وتغتر بما أعطاك الله تعالى من مال أو جاه أو ولد؛ فتنسى نعمة الله عليك، وتنسى حق الله عليك، وتقع في احتقار وظلم غيرك؛ فربما انطلقت دعوة عليك من إنسان ظلمته؛ فتُدمر حياتك بسببها، أو بسبب كبرك وغرورك وفخرك، وخذ العبرة من هذه القصة، وكيف أصابت صاحب الجنة دعوة أخيه فأهلكته.!! فما بالك بدعوات المظلومين، ودعوات المفجوعين، ودعوات المكلومين؟!!، ستأتي ثمارها المرة وآثارها السيئة على من ظلمهم وأذاهم وتكبر وتغطرس عليهم، عاجلاً أو آجلاً.!!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن يعلم المؤمن أن عطاء الله فوق عطاء البشر، وأن العطاء الدنيوي لا يعني أن الله يحبه، فهو سبحانه يعطي الدنيا المؤمن والكافر على السواء، أما عطاء الله في الآخرة، فيكون على قدر إيمانك واستقامتك في الدنيا.

2- الميزان عند الله هو التقوى وليس المال والجاه، فأنت كريم على الله بتقواك، أما المال والجاه فأعطاك الله لامتحانك واختبارك في الدنيا.

3 – إذا رأيت ما يعجبك؛ فقل: ما شاء الله تبارك الله، حتى لا تصيبه بالعين، لأن العين قد لا تكون حاسدة؛ بل قد تكون عيناً معجبة، فالإنسان قد يصاب من شخص يحبه بسبب إعجابه به، أو من إنسان يكرهه بسبب حسده له.

4 – جواز أن تدعو على من ظلمك، وكلما كنت مظلوماً فانتظر دعوتك في الظالم، لأن دعوة المظلوم مستجابة، وقد رأيتم ذلك المؤمن كيف أصابت دعوته أخاه الظالم له.

تفسير المقطع السابع من سورة الكهف

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ
فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى
ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا
خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ
أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، هذا مثلٌ آخر ضربه الله تعالى بعد المثل الأول، وعطفه عليه، يحدثنا فيه عن صفة الحياة الدنيا، وواقعها الذي نعيشه جميعاً وانشغالنا واهتمامنا بها مع أنها لا قيمة لها عند الله تعالى، فمثل الحياة الدنيا كلها مثل دورة حياة الشجر، والتي تبدأ بماء المطر الذي ينزل من السماء، فيختلط بتراب الأرض، فينبت الزرع به، ثم ينمو ويثمر، ثم يصفر، ثم يتحول إلى هشيم يابس تذروه الرياح يميناً وشمالاً

من خفته؛ لأنه لمّا ييبس يصبح خفيفًا، سواء كان الزرع أو بقاياه الذي يسمى التبن، ودورة حياة الإنسان تشبه دورة حياة النبات!! فلم يكن الإنسان شيئًا مذكوراً، ثم كان نطفة في رحم أمه، ثم جنينًا، ثم ولد هذا الجنين، ثم كبر وصار غلامًا، ثم شابًا، ثم رجلاً، ثم شيخًا هرمًا، ثم مات وانتهت دورة حياته.!! إلا أن الزرع عمره بين ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر، والإنسان بين ستين وسبعين سنة، ولو طالت حياته فمائة سنة.!!

وقول الله تعالى: (وكان الله على كل شيء مقتدراً)، على إنباته وإنمائه وإهلاكه، وقل مثل ذلك في حياة الإنسان، بل في أمور الدنيا كلها، فالله قادر عليها إيجاداً وفناءً.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾، وطبيعة الإنسان أنه يحب المال، كما قال: (وتحبون المال حبًا جمًا)، ولذلك قدّم ذكره هنا لإعجاب النفس به وحاجتها إليه، ثم ذكر البنين، وهم الأبناء ذكوراً وإناثًا، **والزينة:** ما يتزين به، والغالب في الزينة أنها لا تمتاز بالقوة والبقاء والاستمرار، بل كل ما تزين الشيء؛ كلما كان أسرع في الانتهاء، ولذلك أدوات الزينة في الغالب أدوات خفيفة وسهلة وسريعة الاندثار، ولا تتوقع أن الزينة من الحديد الصلب، بل تكون من حاجات خفيفة؛ تعطي منظراً، وتكون سهلة الحمل والنقل، فهي زينة من حيث الجمال والمظهر فقط، وهكذا حال المال وحال الأولاد في حياتك؛ فمهما كانوا في يدك؛ فإنهم يذهبون

أو تذهب أنت وتتركهم، فهم بمثابة الزينة سريعة الذهاب، وفي المقابل، **وصف الله العمل الصالح بقوله:** (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملًا)، فهو باقٍ عند الله لا يزول أجره ولا ينقطع، وقد اختلف في معنى الباقيات الصالحات، هل المقصود بها بعض أنواع الذكر[1]، **كما في الحديث:** "أن **الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**"[2]؟، أو أنه كل عمل صالح من ذكر وغيره[3]؟، وهذا هو الراجح[4]، **فالباقيات الصالحات تشمل** العمل الصالح الخالص لوجه الله تعالى من ذكر وصلاة وصدقة وغيرها من الأعمال الصالحة، وسميت بالباقيات، لأنها تبقى لصاحبها في الآخرة، ولماذا كانت الباقيات الصالحات باقية؟ لأنها مرتبطة بالله الباقي سبحانه، فإن من صفاته البقاء المطلق، فهو الحي القيوم، فما دام أنت فعلتها لله فهي باقية ببقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ووصف الباقيات بالصالحات؛ لأنك أحيانًا ترتكب إثمًا يبقى عليك وزره إلى الآخرة، فهو باقٍ في صحائف أعمالك، فمن سنّ سنّة سيئة وعمل الناس بها؛

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 32).

(2) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره: (18/ 34)، عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في الصحيحة: (7/ 785) برقم: (3264).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 35)، **وقال الشيخ الصابوني** صفوة التفاسير، للصابوني: (2/ 179) وهذا قول الجمهور.

(4) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 36)، والتفسير الوسيط للواحدي: (3/ 193)، وتفسير البغوي: (5/ 174).

يبقى عليه إثمها، كما جاء في الحديث: **"ما من نفس تُقتل إلا كان على ابن آدم الأول وزرٌ منها لأنه أول من سنّ القتل"**[(1)]، فكل نفسٍ تُقتل من بعد هابيل، يكون لقابيل نصيب من الوزر إلى أن تنتهي الحياة، وهكذا من فعل حسنة واقتدى الناس بها، فأجرها مستمر له إلى أن تنتهي الحياة، ولذلك كان الأنبياء والرسل أكثر الناس أجراً؛ لأنهم دلّوا الناس على الخير، ومن دلّ على هدى كان له مثل أجر فاعله لا ينقص من أجره شيئًا، ومن دل على ضلالة كان عليه من الوزر مثل وزر صاحبه لا ينقص من وزره شيئًا.

وقوله: (**خيرٌ عند ربك ثوابًا**)، أي: الباقيات الصالحات خير من الزينة، فثوابها مستمر عند الله، وخير من المال والبنين الذي تشتغلون به في الدنيا، وخير هنا: بمعنى أفضل وأحسن، أي: فانشغلوا بالباقيات الصالحات ولا تنشغلوا بالمال والبنين إلا في حدود ما تنتفعون به في الدنيا والآخرة.

وقوله: (**وخيرٌ أملاً**)، أي: خير ما يؤمله الإنسان عندما يحتاج إليه وينتظره ويرجوه، لأنه قد ينسى بعض أعماله الصالحة، فلما يراها في كتابه ويرى أجرها، فإذا به يمتلئ قلبه فرحًا وسروراً وتفاؤلاً بذلك الخير الذي كتب له وهو لا يشعر.!!

ثم لما حدثنا عن مثال الدنيا؛ أخبرنا عن الآخرة، فهذه الدنيا زينة، والباقيات الصالحات خير منها، وهي التي تنفع في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾، ويوم القيامة يسيّر الله

---

(1) أخرجه البخاري: (4/ 133) برقم: (3335)، ومسلم: (3/ 1303) برقم: (1677).

الجبال إلى العدم، **كما قال:** ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾، [لواقعة:5-6]، **وقوله:** ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾[المعارج:9]، فهذه الجبال التي تحمي الأرض من الاهتزاز والاضطراب تصبح يوم القيامة كذرات التراب والغبار التي تُرى في شعاع الشمس، ثم قال: (وترى الأرض بارزة)، **أي:** ظاهرة غير مخفي شيء منها، فلن تجد فيها عوجـًا، ولا مرتفعات، ولا وديان، فقد صارت أرضـًا متساوية لا اعوجاج فيها، **كما جاء في الحديث:** **"أن الأرض تصير يوم القيامة كقرص النقي"**[1]، **أي:** مثل قرص الخبز الأبيض دائرية متساوية، **وقال بعض المفسرين**[2]: (بارزة)، **أي:** أبرزت ما ببطنها وهم الأموات، فيخرجون منها إلى ظهرها.

وقوله: **(وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً)**، **أي:** حشر الله الخلق أجمعين، فلم نخلّف منهم أحدًا، مأخوذ من غادرت المكان: أي خلفته، ومنه الغدير، وهو بقايا ماء المطر في عين، وسمي غديراً لأنه ما يبقى من السيول، فلم نترك صغيراً ولا كبيراً ولا أميراً ولا حقيراً، فالكل مجموعون بين يدي الله تعالى.!

ثم قال: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾، فبعد أن يحشر اللهُ الخلقَ يوم القيامة، يعرضهم للحساب، حيث يعرض الناس بانتظام مصفوفين لا أحد يتقدم ولا أحد يتأخر، أو: يعرضوا صفوفًا، **أي:** تصفهم الملائكة صفوفًا مرتبة، ثم يخاطبهم الله،

---

(1) أخرجه مسلم: (4/ 2150) برقم: (2790).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 36)، وتفسير البغوي: (5/ 176).

فيقول: (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة)، والتشبيه هنا ليس المقصود به السن والحجم، فإن الناس ولدوا أطفالاً، وسيبعثون بالسن التي توفوا فيها!! إنما التشبيه هنا للحالة، فقد خلقوا عراة حفاةً، بدون خدم ولا مال ولا أولاد؛ فكذلك يبعثون، والناس يهيئون للبعث بهذه الحالة عند الموت، فالجميع يذهب به إلى القبر بقطعة من القماش، تؤكل مع تآكل الجسد في التراب، ثم يبعثون يوم القيامة كما ولدوا، **كما في الحديث:** **"حفاة عراة غرلاً"**[1]، ويعيدهم الله غرلاً، **أي:** غير مختونين، حيث تعود القلفة[2] التي ختنت من الطفل إلى ذكره؛ حتى يكون على نفس الخلقة التي ولد عليها من بطن أمه، فيبعثه الله عليها بين يديه سبحانه.

والحكمة من البعث بهذه الصورة: إشعار الناس بضعفهم وسواسيتهم أمام الله تعالى، الملك والمملوك، والغني والفقير، كلهم يبعثون بصفة واحدة، وإشعاراً لهم أيضاً بعدل الله في الحكم، حيث يقف الناس بين يديه بصفة واحدة سواسية، لا فرق عنده بين كبير وصغير.!!

ثم قال: (**بل زعمتم ألّن نجعل لكم موعداً**)، الخطاب للكفار الذين كانوا ينكرون البعث والآخرة، وادعوا زوراً أنه لا يوجد موعد لحسابهم في الآخرة، فقد شاهدوه الآن بأعينهم.!!

(1) أخرجه البخاري: (4/ 139) برقم: (3349)، ومسلم: (4/ 2194) برقم: (2859).
(2) القلفة: الغرلة وهي جلدة عضو التناسل في ذكر الإنسان، والأقلف: من لم يختتن ينظر: التعريفات الفقهية: (177).

ثم قال: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾، **أي**: يوم القيامة تنشر وتوزع الصحف على الخلق، فبعضهم يأخذها بيمينه، وبعضهم يأخذها بشماله، أو من وراء ظهره، فمن أخذها بيمينه؛ فتلك علامة على الفوز والفلاح!!، ومن أخذها بشماله؛ فتلك علامة على الهلاك والخسارة!!، **ولذا قال**: (فترى المجرمين مشفقين مما فيه)، فالكافر مجرم، وكل مذنب مجرم، مأخوذ من الجرم، وهو ثمرة الذنب ونتيجة المعصية، فحالهم في الموقف حال الخائفين مما احتوته صحف كتابهم من أعمالهم السيئة، فترتجف قلوبهم من الخوف، ويتذكرون جرائمهم الكبيرة، **وهم خائفون من أمرين، الأول**: من عقوبة الله بسبب هذه الجرائم، **والثاني**: من الفضيحة أمام الخلق، لأن بعض الناس ربما كان سجله مغلقاً في الدنيا، فلا يوجد شيء مستور ومخفي، بل ينشر ويفضح كل سر، **كما قال الله تعالى**: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾[الطارق:9]، وكلما كبرت جريمة العبد في الدنيا؛ كلما كانت فضيحته في المحشر أعظم!!، **قال** ﷺ: **"ينصب لكل غادر يوم القيامة لواء؛ يقال: هذه غدرة فلان بن فلان"**(1)، وعلى قدر هذه الغدرة والجريمة؛ وتكون الراية مكتوب عليها غدرته، وهل تتوقعون يرفعها بيده؟ لا؛ بل تكون في دبره!!!، كم سترك الله في الدنيا أيها العبد وأنت تقع في الذنب ولا تتعظ؟!!، فعلى العبد أن ينتبه ولا يظن أنه يخدع الله، وأنه يضحك على الله بفعل الجريمة

(1) أخرجه البخاري: (8/ 41) برقم: (6177)، ومسلم: (3/ 1359) برقم: (1735).

بعد الجريمة والله يستره! لا يظن ذلك، فربما يفضحه الله في الدنيا قبل الآخرة، وإذا لم يفضح في الدنيا فسيفضح في الآخرة، والعياذ بالله.

ثم قال: (ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها)، يدعون على أنفسهم بالويل والثبور، ثم يتساءلون بعد أن يفتحوا صحائف أعمالهم، ويروا أعمالهم فيه محصاة، يقولون: ما ترك صغيرة من أعمالنا ولا كبيرة إلا وكتبها كاملة وأثبت عددها، فلا زيادة فيها ولا نقص!! وهذا يدل على أنه لا يُنسى شيءٌ من أعمال العباد، بل تُحضر كلها في صحائفهم، (ولا يظلم ربك أحداً)، لأنه سبحانه الحكم العدل أحصى على الناس ذنوبهم وحاسبهم عليها، دون ظلم لهم كما في الحديث: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي"(1).

ومن مظاهر عدله أنه لما يحشر الخلق يحشر شاتين إحداهما قرناء والأخرى جلحاء، فيأمر الشاة الجلحاء أن تقتص من الشاة القرناء، ثم يقول لهما: كوني ترابًا، فتكون!!، فيقول الكافر المجرم عندما يرى ذلك: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[النبأ:40]، هروبًا من ذنوبه!!، لا أيها الكفار المجرم؛ أنت لن تكون ترابًا؛ أنت ستحاسب وتعاقب بما اقترفت يداك!!، لماذا لم تفعل ذلك في الدنيا، عندما كفرت وظلمت وطغيت وبغيت وأكلت حقوق الناس؟!! الآن تتمنى أن تكون شاةً؛ حتى يقول الله لك كن ترابًا كما قال للشاتين.!!

(1) أخرجه مسلم: (4/ 1994) برقم: (2577).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- حقارة الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون، وأنها مثل الزينة زائلة ذاهبة.

2- أهمية الباقيات الصالحات، ويجب على أن العبد أن يهتم بها؛ لأنها ستبقى له، وهي كل عمل صالح مثل: الذكر، وقراءة القرآن، والصلوات، والصدقات، وسائر الطاعات.

3- أن الله تعالى وعظنا في هذا القرآن بذكر مشاهد القيامة والحشر وتطاير الصحف، وذكر النار وعذابها، لكي نتوب ونرجع إلى الله ونستعد بالطاعات والقربات قبل فوات الأوان.

تفسير المقطع الثامن من سورة الكهف

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾، **ومناسبة ذكر هذه الآية بعد ما سبق من الآيات**؛ أن الله تعالى لمّا رد على كبراء قريش طلبهم في أن يجعل لهم النبي ﷺ مجلسًا خاصًا بهم بسبب كبرهم واحتقارهم لغيرهم، **فقد عالج هذا الخلق السيء بمجموعة من الأساليب والقصص، منها**: قصة صاحب الجنتين، ومثل الحياة الدنيا ونهايتها، ثم ذكر لنا قصة إبليس، فقد أمره الله تعالى بالسجود لآدم فتكبر وترك السجود، وتكررت قصة الأمر بسجود إبليس لآدم في القرآن الكريم بأساليب متعددة،

وبعض التكرار هو للتأسيس وبعضه للتأكيد[1]، فبيّن هنا أن إبليس من الجن، وهو حلٌ للإشكال الذي يظهر من آية: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس)، فيظن السامع أن إبليس أحد الملائكة، وهو في الحقيقة ليس من الملائكة لعدة أدلة، وإنما دخل بين الملائكة لاشتراكه مع الملائكة في عبادته وصلاحه آنذاك، وترقى في مراتب الصلاح والاستقامة، **ولكن قيل**[2]: خانه أصله، فأصله من الجن، **كما قال**: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[الرحمن:15]، فالملائكة مفطورون على الطاعة المطلقة لله بينما الإنس والجن ليسوا مفطورين على الطاعة المطلقة، وإنما مكلفون بالعبادة، وفيهم الشهوة التي تدفعهم إلى الطاعة أحياناً والترك أحياناً، وسجود الملائكة لآدم سجود تشريف، وليس سجود عبادة، ولكن لما عَلم آدم الأسماء، وعجز عنها الملائكة، وأظهر الله فضل آدم عليهم؛ أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم تكريماً له، فسجدوا، أما إبليس فبدأ يقارن أصل خلقته بأصل خلق آدم، **كما قال الله عنه**: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[الإسراء:61]، **وقوله**: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[ص:76]، وهو استدلال على أنه في أصل الخلقة أفضل من آدم، حيث استدل على أفضليته على آدم بأن النار أفضل من الطين وأكرم، وهذا استدلال

(1) **التأسيس**: عبارة عن إفادة معنى آخر لم يكن أصلًا قبله، وهو خيرٌ من التأكيد؛ لأن حمل الكلام على الإفادة خير من حمله على الإعادة. **والتأكيد**: هو التقرير، أي جعل الشيء مقرراً ثابتاً في ذهن المخاطب، وذلك بتكرار اللفظ أو بألفاظ خاصة، ينظر: التعريفات، للجرجاني: (50).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 151).

باطل، وهو قياس مع الفارق[1].

وقوله: (**كان من الجن**)، إشارة إلى الدافع له إلى عدم سجوده؛ فأصله من الجن، وهم ليسوا مفطورين على الطاعة المطلقة، بل لديهم شهوات تمنعهم منها، وبيّن نوع الشهوة المانعة في آية أخرى، فقال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾[البقرة:34]، فبيّن أن السبب هو الإباء والاستكبار، والاستثناء هنا منقطع[2]، كقولك: قام القوم إلا حمارًا! فاستثنيت الحمار رغم أنه ليس من القوم، وإبليس استثنى من الملائكة وهو ليس منهم، وهو قول عامة المفسرين، وهو الراجح[3]، **وقيل:** إن إبليس من الملائكة، ولكن من إحدى قبائل الملائكة، وتُسمى الجن[4]، ولكن هذا يَرِد عليه أن إبليس عصى والملائكة لا يعصون، والملائكة لا يتناسلون وليس لهم ذرية، وإبليس يتناسل وله ذرية، **وقوله:** (**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني**)، **قيل**[5]: الخطاب هنا للخلق أجمعين، وهو قول وجيه، **وقيل**[6]: هو

---

(1) **القياس مع الفارق:** هو فيما جرى فيه القياس ولكن أعلّ لوجود قادح وهو عدم مساواة الفرع للأصل المقيس عليه، إذ من شروط القياس وجود علة الأصل بتمامها في الفرع، ينظر: نشر البنود على مراقي السعود. للعلوي: (2/ 123).

(2) **الاستثناء المنقطع هو:** ما كان المستثنى من غير جنس المستثنى منه، وتكون: (إلا) بمعنى، لكن ينظر: تاج العروس، للزبيدي: (40/ 382).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (2/ 429).

(4) ينظر: تفسير الطبري: (1/ 505).

(5) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 43).

(6) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 152).

خاص بالمكذبين الذين كذبوا وصار إبليس قدوتهم، **والمعنى**: كيف تتخذون إبليس وذرية أولياء، تطيعونهم وتحبونهم من دون الله، **والأصل أن الولاية لا تكون إلا لله تعالى وحده**، **كما قال**: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[المائدة:55].

وقوله: (**وهم لكم عدو**)، **الواو**: حالية، **والضمير**: يعود على إبليس وذريته، فإبليس وذريته أعداء لجميع المكلفين من الإنس والجن، لأن إبليس يوسوس في صدور الجِنة والناس، **كما قال الله تعالى لآدم**: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه:117]، فعداوته ظاهرة له ولذريته من بعده، وقد أعلن إبليس هذه العداوة بنفسه، **فقال**: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:82]، فالمعركة قائمة بين آدم وذريته، وبين إبليس وذريته منذ تلك اللحظة، وإلى قيام الساعة.!!.

وقوله: (**بئس للظالمين بدلاً**)، **أي**: بئست الولاية التي اتخذها الظالم للشيطان بدلاً عن ولاية الله، فكيف تستبدل بولاية الله ولاية الشيطان؟!! **والظالم هنا**: الكافر والمشرك، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:13]، لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها.

ثم قال سبحانه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾، **قيل**: إن الضمير يعود على الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله وهم إبليس وذريته[1]، **وقيل**: إن الضمير عائد إلى الكفار[2]،

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 44)، وتفسير السمرقندي: (2/ 351).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 473).

والراجح: أنه يعود على كل المعبودات الباطلة[1]، فهذه المعبودات الباطلة وإبليس وذريته منها، **والمعنى**: ما أحضرتهم أثناء خلق السموات والأرض، بل لم يكونوا مخلوقين ولا موجودين في الأرض حين خلقها، ولا أحضرتهم عند خلق البشر، لأستعين بهم في خلقهم، فهم ليسوا حاضرين خلق السموات ولا خلق أنفسهم، فكيف يكونون شركاء لله تعالى في الألوهية، وهذا يسميه العلماء: الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأن الخالق المنفرد بالخلق، هو وحده المستحق للعبادة.!!

وقوله: (**وما كنت متخذ المضلين عضداً**)، **والمضلون هم**: إبليس وذريته ومن سار على دربهم، و(عضداً)، **أي**: معينًا، **والعضد**: عضلة قوية في اليد تعين على حمل الأشياء، والإنسان عضد أخيه **أي**: يعاونه، **ومنه قوله**: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[القصص:35]، **والمعنى**: أن الله غني عن الخلق أجمعين من ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين وعباده الصالحين، فكيف بهؤلاء المضلين المجرمين!!

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾، **والمعنى**: أن هؤلاء الذين اتخذتموهم شركاء وعبدتموهم من دون الله من إبليس وذريته وغيرهم؛ سيحشرهم الله يوم القيامة وسيحشركم معهم ثم يقول للعابدين: (نادوا شركائي الذين زعمتم)، من المناداة، **أي**: أُطلبوا هذا الذي أشركتموه مع الله، وسماه شريكًا من باب التنزّل

(1) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 180).

مع المدعي! وإلا فلا يوجد لله شريك، **أي**: بناء على زعمكم أنهم شركائي، **والزعم هو**: الادعاء الباطل، (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم)، فكل شخص نادى شركاءه، فلما دعوهم لم يسمعوا دعاءهم، ولو سمعوا ما استجابوا لهم، خاصة إذا كان المعبود صنماً، فمن أين يستجيب وهو لا يسمع ولا يعقل؟!!، وكل شخص يوم القيامة مشغول بنفسه، والكل يقول: نفسي، نفسي، ثم قال: (وجعلنا بينهم موبقاً)، **قيل**[1]: بين المشركين وشركائهم، **وقيل**[2]: بين المؤمنين والكافرين، والموبق، في أصل لغة العرب: المكان الذي يقع فيه الهلاك، **والمعنى**: جعلنا بينهم مفازة، أو حاجزاً من اقترب منه هلك، **قال كثير من المفسرين**[3]: إنه وادٍ كبير عظيم من أودية النار يفصل بين المؤمنين والكفار.

وبهذا التصوير يتضح أن المشرك لا يستفيد من معبوده الذي أشرك به، حتى لو كان بجنبه؛ فكيف وهو بعيد عنه، خاصة إذا كان الإشراك بعيسى أو عزير أو الملائكة أو غيرهم من الصالحين، فهؤلاء في وادٍ والمشركون في وادٍ آخر.!!

ثم قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾، **سبق معنا** أن كل كافر مجرم، وكل عاصٍ مجرم، فيشمل العصاة والكفار، لأن الإجرام فعل القبيح من الأعمال، حيث يشاهد من هذا حاله النار في ساحة المحشر، **كما جاء في الحديث**: **"يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام في**

---

(1) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 351)، وتفسير ابن كثير: (5/ 153)، وتفسير البغوي: (5/ 181).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 46)، وتفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2368).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 153).

كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها"[1]، فيراها المجرم فيستيقن، وقد كان ينكرها، **وقوله:** (فظنوا أنهم مواقعوها)، **أي:** تيقنوا أنهم ساقطون فيها، لأن المواقعة للشيء: ملابسته والاختلاط به، **وقوله:** (ولم يجدوا عنها مصرفًا)، **أي:** مكانًا ينصرفون إليه، فلا يجدون لهم مهربًا ولا مكانًا ينصرفون إليه، وبعض الناس اليوم يقول: لا يوجد جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور، لا يوجد عذاب قبر، وغيرها من القضايا الغيبية، ويقولون عقولنا ما تتصورها! فهؤلاء قدموا فهم عقولهم القاصرة على نصوص القرآن والسنة النبوية الصحيحة التي تثبتها!!

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾، فأتبع **قوله:** (ولم يجدون عنها مصرفًا)، **بقوله:** (ولقد صرّفنا)، لأن يوم القيامة يبحث فيه المجرم عن مصرف ومهرب؛ لأنه لم يستفد في الدنيا من تصريف الآيات، وصرّفنا، **أي:** بيّنا ووضحنا للناس في هذا القرآن البراهين والأحكام، وميّزنا فيه طريق الجنة من طريق النار، ومن لم يبصر آيات الله في الدنيا، يحشره الله أعمى يوم القيامة، فالجزاء من جنس العمل، **وقوله:** (من كل مثل) **أي:** نوّعنا الأمثلة التي تدعو للهداية والإيمان، وعدّد الأساليب؛ كالعقلي والعاطفي، وأسلوب الترغيب وأسلوب الترهيب، وغيرها من الأساليب، كل ذلك حتى يتضح الحق للناس.

ثم قال: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً)، **أي:** إن أكثر أصناف الخلق

---

(1) أخرجه الإمام مسلم، باب: في شدة حر جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين: (4/ 2184) برقم: (2842).

مجادلة؛ هم بنو الإنسان، فالملائكة لا يجادلون أبداً، بل يسمعون ويطيعون ولا يعصون، والجن قد يجادلون، والحيوان قد يجادل عند من يفهم لغته، مثل سليمان فقد تجادل وتحاور مع الهدهد والنملة، ولكن الإنسان أكثرهم جدالاً، واليوم تشاهدون الإنسان ما ترك شيئًا حتى الثوابت والقطعيات إلا وجادل فيها!!، وقد تلى النبي ﷺ هذه الآية على عليٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستدل بها لمجرد مخالفة واحدة! وقعت منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكيف لو رأى واقع الناس اليوم؟!! فقد دخل النبي ﷺ على عليٍ وفاطمة وهما نائمان، فقال: ألا تقومان فتصليان؟! قال عليٌ: إنما أرواحنا بيد الله إن ردها قمنا، قال: فتركنا النبي ﷺ وخرج وهو يضرب فخذه، ويقول: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً)[(1)].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الله كرّم آدم وذريّته على سائر الخلق حتى على الملائكة، وصالحوا بني آدم أفضل من صالحي الملائكة؛ لأن الملائكة مفطورون على العبادة، أما البشر ففيهم الشهوات والنزوات، فإذا جاهدوا أنفسهم وعبدوا الله مثل الملائكة؛ صاروا أفضل منهم.

2- السجود لآدم كان سجود تشريف وتكريم، أما سجود العبادة فلا يجوز، فهو محرم، ولا يجوز في شريعتنا، وقد جاء بعض المهاجرين من الحبشة فلما سلموا على النبي ﷺ أرادوا أن يسجدوا له فنهاهم، فقالوا: وجدنا أهل الحبشة

(1) أخرجه البخاري: (2/ 50) برقم: (1127)، ومسلم: (1/ 537) برقم: (775).

يفعلونه لملوكهم. قال: لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"[1]، فالسجود لله فقط، ويدخل في حكم السجود الركوع والانحناء؛ فلا يسجد ولا يركع ولا ينحني الإنسان إلا لله تعالى.

3- وجوب الابتعاد عن اتخاذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله، والاعتصام بالله وحده.

4- عظمة هذا القرآن، وأن الله صرّف فيه الآيات وأقام فيه الدلائل والبراهين على عبادته وبيان الحق من الباطل، فالمخذول من خذله الله.

5- الجدال مذموم إلا أن يكون بالتي هي أحسن، وقول الله تعالى: (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً)، جاء في سياق الذم، فإيّاك أن تحوّل الجدال إلى المراء بالباطل، والتعصّب للرأي مع وضوح الحق.

(1) أخرجه أحمد: (32/ 145) برقم: (19403)، وابن ماجة: (1/ 595) برقم: (1853)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (1203).

تفسير المقطع التاسع من سورة الكهف

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾، هذا إخبار وبيان لطبيعة الكفار والمشركين الذين تطبعوا على الكفر بالله تعالى وعدم الإيمان برسله، واعتادوا على ذلك واجتالتهم الشياطين ومنعتهم عن الإيمان بالله تعالى تحت مبررات متعددة، **وقوله:** (إذ جاءهم الهدى)، **أي:** حينما يأتي الهدى، وهو: ما تحمله الرسل من الحق إليهم، **وقيل:** الهدى هنا هو محمد ﷺ[1]، والأول

---

(1) ينظر: التفسير الوسيط للواحدي: (3/ 154)، والتفسير الوسيط لطنطاوي: (8/ 541).

أرجح، فالهدى هو: ثمرة إرسال الرسل، **وقوله:** (ويستغفروا ربهم)، بمعنى: يطلبون منه المغفرة على ما فات من ذنوب وكفر بالله تعالى، **وقد ذكر هنا مبرَرين عند بعض المفسرين، الأول:** في **قوله:** (إلا أن تأتيهم سنة الأولين)، **أي:** أن يستحضروا سنة الأولين، وهي عقابه وعذابه لمن كفر، وهذا من قلة عقولهم، فهذه حجتهم الأولى، **والثاني:** (أو يأتيهم العذاب قبلاً)، **أي:** أن يأتي العذاب مقابلاً لوجوههم فيرونه فيؤمنون، فتكون (أو) على أصلها للتنويع[1]، **ومن قال من المفسرين:** أن (أو) هنا بمعنى الواو؛ فتكون تفسيرية لما سبق[2]، **أي:** لن نؤمن لك حتى ينزل بنا العذاب ونراه بأعيننا، وعلى كلا القولين هو سؤال تعنت من هؤلاء الكفار لقلة عقولهم، ولو كانوا يعقلون لاستجابوا لله ولرسوله وما دعوا على أنفسهم بالعذاب، **ولذا قال بعدها مباشرة:** ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾، هذا ردٌ على الحجة الباطلة التي طلبها الكفار لتكون دليلاً على إيمانهم، **وهي:** نزول العذاب مع الرسول، **والمعنى:** أن العذاب لا يأتِ مع الرسول، إنما تأتي معه البشارة والنذارة والحجج والبراهين حتى إذا وصل الكفر إلى منتهاه ويئس الرسول من إيمان قومه دعا عليهم بالعذاب، كما فعل نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وغيره من الأنبياء، أما محمد ﷺ فقد عُرض عليه أن تُستأصل أمته بعذاب فرفض، كما في قصة ملك الجبال، لما قال للنبي ﷺ: "**إن**

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 49)، وتفسير السمرقندي: (2/ 351)، وتفسير الثعلبي: (6/ 178)، تفسير الرازي: (21/ 475).

(2) ينظر: التفسير الوسيط: (3/ 154)، وتفسير البغوي: (5/ 182)، وتفسير القرطبي: (11/ 6).

شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال: لا، ولكن أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله واليوم الآخر"[1]، ولم يدع على قومه، بل قال: **"اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة"**[2].

وإذا عرفنا أن مهمة الرسل هي: البشارة والنذارة، فهي كذلك مهمة الدعاة، وهو ما يسمى: بأسلوب الترغيب والترهيب، الترغيب مثل: تذكير الناس بالجنة وبرحمة الله وعفوه ومغفرته، والترهيب مثل: تذكير الناس بالنار وعذاب الله وعقابه.

ثم قال: (**ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق**)، **أي:** إن من صفات الكافر الذي لم يفتح الله قلبه للإيمان؛ كثرة الجدال بالباطل: **أي:** بدون حجة ولا برهان، وإنما من أجل إبطال الحق، **والإدحاض، وهو:** الإذهاب والإهلاك، وقد جاء في وصف الصراط أنه: **"مدحضة مزلّة"**[3]، **أي:** لا تثبت عليه قدم، **والمعنى:** يريدون إزالة الحق وإذهاب أثره بالجدال الباطل، كحال أصحاب الشبهات اليوم، الذين يشغبون على الحق بنشر باطلهم، ولكن الحق لا يذهب لأن من صفاته البقاء، **كما قال الله تعالى:** ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال:8]، ومن صور جدالهم بالباطل: أنهم قالوا: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الجاثية:25]، **وقولهم:** ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[الإسراء:93]، ونحوها، من

(1) أخرجه البخاري: (4/ 115) برقم: (3231)، وأخرجه مسلم: (3/ 1420) برقم: (1795).

(2) أخرجه البخاري: (8/ 67) برقم: (6304)، ومسلم: (1/ 188) برقم: (198).

(3) أخرجه البخاري: (9/ 129) برقم: (7439).

التعنت وطلب المستحيل.!!

ثم قال: (واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً)، الآيات: المعجزات أو البراهين والحجج، التي جاء بها الرسل، (وما أنذروا هزواً)، **أي:** العذاب الذي حذرهم منه الرسل استهزاءً ولعباً، ولم يؤمنوا بها، كما حصل من قريش عندما طلبوا من النبي ﷺ أن يفلق القمر لهم فلقتين؛ فلما أجابهم إلى ذلك، ورأوا القمر فلقتين[1]، قالوا: هذا سحر!!! وهذا هو الاستهزاء بعينه، فكيف يطلبون الآية ثم لا يؤمنون بها؟!!

وقد يكون المقصود بالآيات هنا: آيات القرآن الكريم، فقد كانوا يستهزئون بها، وبعضهم زعم إنه يقدر أن يأتي بمثل القرآن، ثم يأتي بقصة من الأساطير ويقرأها على الناس على سبيل الاستهزاء بالقرآن، فيضحك من حوله ويسخرون ويستهزئون بالقرآن، وهؤلاء هم أعظم الناس ظلماً، ولذلك أتبع هذا الفعل منهم، **بقوله:** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾، **أي:** لا أحد أشد ظلماً من شخص وعِظ بآيات ربه؛ ليهتدي بها فأعرض عن الإيمان بها وقبول الهداية إلى الحق وعمل بخلافه، والإعراض هو: الابتعاد عن الإيمان وعدم قبول الحق، ويسميه العلماء: كفر التولي والإعراض، وفيه دليل على أن عقوبة الله لمن انحرف بعد علمه أشد من عقوبته لمن انحرف وهو جاهل، فالجاهل قد يكون معذوراً، وإن كان سيعاقب بسبب

(1) أخرجه مسلم: (4/ 2158) برقم: (2800).

إعراضه عن العلم والتعليم والحضور إلى أماكن تعليم الحق، ولكن الأشد ظلماً وعقوبة عند الله؛ من بلغته الحجة واتضح له الحق؛ فكذّب بها.!!

وقوله: (ونسي ما قدمت يداه)، **أي:** أضاف إلى جانب كفر الإعراض، نسيان ما فعلته وارتكبته جوارحه من الكبائر والجرائم، وعبادة غير الله وأذية المخلوقين!، وعبّر هنا باليدين، مع أنه قد يفعل الجرائم برجليه أو بلسانه أو بعينيه أو بفرجه؛ لأنها أبرز الجوارح التي يتصرف بها، أو أنه عبّر بالجزء وأراد الكل، وهذا أسلوب من أساليب اللغة.

ثم قال: (إنّا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه)، **أي:** عاقبهم الله بالطبع على قلوبهم وجعل عليها أغطية، والكنان: ما يستكن به من المطر، وهو الغطاء، والمقصود منع عنها الفقه والفهم، **وكقوله:** ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة:87]، **والمعنى:** منع وصول الهداية إلى قلوبهم ومنع عنهم أسباب الفهم للهدى، بسبب إعراضهم عن الحق.

ثم قال: (وفي آذانهم وقراً)، **أي:** وجعلنا في آذنهم صمماً، والوقر هو: الشمع الذي يكون بداخل الأذن، فيسدها عن السماع، وليس المقصود به هنا شيئاً حسياً يظهر على قلبه وأذنه، بل هو شيء معنوي، منعه من الفهم والسماع الذي ينفعه ويهتدي به، كما قال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:21]، كيف أثبت السماع ونفاه في آن واحد؟، **الجواب:** أثبت السماع الحسي، ونفى السماع المعنوي، وهو الثمرة للسماع، الذي يستفيد منه الإنسان.

ثم قال: (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً)، ومهما دعوتهم يا محمد لما فيه صلاحهم وهدايتهم وعزهم في الدنيا والآخرة، فلن تحصل لهم الهداية أبداً؛ لأن الله لم يأذن لقلوبهم أن تفهم، ولا لآذانهم أن تسمع سماع استفادة، بسبب إعراضهم، وهذا من أعظم الحرمان، والعياذ بالله!!، **ولذلك كان النبي ﷺ يسأل الله الهداية دائماً بقوله: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى"**[1]، فاسأل الله تعالى دائماً التوفيق والهداية والاستقامة، فمهما كان ذكاؤك ومنزلتك في العلم، إلا أنك محتاج أن تدعو الله تعالى بالتوفيق والهداية.!!

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾، ومع هذا الإعراض والتكذيب من الخلق؛ إلا أن رحمة الله كبيرة، وسعت كل شيء حتى الكفار، ومن آثار رحمته على هؤلاء الكفار أنه أخّر عنهم العذاب الدنيوي، لعلهم أن يؤمنوا ويرجعوا إلى الله، ولو أن الله تعالى يعاقب العاصي المذنب بعد ذنبه وإجرامه ومعصيته مباشرة؛ ما ترك على ظهر الأرض أحداً، ولكنه يترك العاصي ربما سبعين سنة؛ لعله يتوب ويرجع، وقد انتفع بهذا كثير من أهل مكة، من مسلمة الفتح، كخالد بن الوليد، الذي كان قائدًا للمشركين في أحد، وكان سبباً في هزيمة المسلين فيها، ولكنه انتفع بسنة الإمهال، ومنَّ الله عليه بالهداية قبل الفتح بأيام فأسلم، ومثله أبو سفيان، وباقي مسلمة الفتح.!.

وقوله: (بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً)، بل جعل الله لهلاكهم

(1) أخرجه مسلم: (4/ 2087) برقم: (2721).

وقتًا محدداً، إذا جاء ونزل بهم العذاب فلن يجدوا منه ملجأً، والموئل؛ هو الذي تؤول وتلجأ إليه، غير الله تعالى، فهو الذي بيده الأمر سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾، القرى هي: قرى قوم هود وصالح وغيرها من القرى التي حول كفار مكة، أهلكهم الله بسبب كفرهم، فالهلاك مرتبط بوقوع الظلم، وأعظمه الكفر والشرك بالله، والنجاة مرتبطة بالعدل، وأعظمه التوحيد، فمن أراد النجاة في الدنيا والآخرة، فعليه بالعدل، وقوله: (وجعلنا لمهلكهم موعداً)، أي: حددنا وقتًا لهلاكهم، فلم يهلكوا إلا في الموعد الذي قدّره الله تعالى لهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان خطر الإعراض عن الهداية، وأن من آثاره أن يختم الله على القلب، فيُحرم الإيمان.

2- فضل الرحلة في طلب العلم، لأنه سبب من أسباب الهداية، والإعراض عنه سبب من أسباب الحرمان، وحرص الإنسان على العلم والهدى، دليل على أنه مقبل على الله، فيقبل الله عليه بالخير.

3- بيان سعة رحمة الله تعالى في الدنيا، وأنها تدرك الكافر بالإمهال وحصول النعم.

4- أن رحمة الهداية ورحمة الآخرة خاصة بالمؤمنين.

5- أن هلاك الأمم محدد بزمن وأجل لا يتقدم ولا يتأخر.

تفسير المقطع العاشر من سورة الكهف

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾، قصة موسى مع الخضر؛ هذه القصة مذكورة في هذه السورة بتفصيلها، ولم تُذكر في غيرها، وذلك أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قام خطيباً في بني إسرائيل فخطبهم، فلما انتهى من خطبته، سأله أحدهم: هل يوجد أحد في الأرض أعلم منك؟! فقال: لا، فرد الله عليه: بلى، عبدنا الخضر أعلم منك[1]،

---

(1) حديث موسى مع الخضر أخرجه البخاري: (1/ 26) برقم: (74)، وأخرجه مسلم: =

قال: كيف الوصول إليه؟!، قال: هو في مجمع البحرين، خذ حوتـًا واذهب إليه، فمتى تحرك الحوت فثَمَّ الخضر، فعزم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الرحلة في طلب العلم، ومع أن موسى كلّمه الله تعالى وخط له التوراة بيمينه، إلا أن الله تعالى أراد منه أن يقوم برحلة شاقة في طلب العلم؛ ليتعلم بعض المسائل من شخص هو أدنى منه في المرتبة، كنوع من التربية له بسبب أنه لم يُرجع العلم إلى عالمه؛، ثم قص الله علينا قصته مع الخضر، لأخذ الدروس والعبر منها.

وموسى هو ابن عمران، الكليم، نبي بني إسرائيل، وهذا هو الراجح[1]، لعدة أدلة، منها: أنه إذا أُطلق موسى في القرآن؛ فالمقصود به موسى بن عمران، أحد رسل أولي العزم، ولو أراد غيره لبيّنه، **ومنها:** أنه ثبت في صحيح البخاري تكذيب ابن عباس لنوف البكالي، الذي ادعى أن موسى هذا غير موسى بن عمران، فقال: كذب نوف[2]!!، **وقيل:** إنه موسى آخر من بني إسرائيل غير موسى الكليم، وهو قول ضعيف[3]، وهو قول جمهور اليهود[4].

وإنما استشكل من قال: أن موسى هذا ليس موسى بن عمران، لأن موسى نبي وكليم الله، فكيف يطلب العلم عند من هو أدنى منه رتبة وهو الخضر، سواء

= (4/ 1853) برقم: (2380).

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 55)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية: (3/ 553)، وتفسير الرازي: (21/ 477).

(2) أخرجه البخاري: (1/ 35) برقم: (122)، ومسلم: (4/ 1847) برقم: (2380).

(3) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 169)، وتفسير الرازي: (21/ 477).

(4) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 477).

كان الخضر نبيـًا أو وليـًا من أولياء الله تعالى، فهو أدنى منه رتبة؟

والجواب: أن هذا لا إشكال فيه؛ فقد يجد الإنسان بعض جوانب العلم عند غيره ممن هو أدنى منه مرتبة، فإن الإنسان لا يحيط بكل شيء علمـًا، وقد ثبت أن الخضر عندما لقي موسى قال له: أنت على علمٍ علّمك الله لا أعلمه، وأنا على علمٍ علّمني الله لا تعلمه، وما علمي وعلمك في علم الله إلا كما يأخذ الطير من البحر[1]..!!

قوله: (**وإذ قال موسى لفتاه**)، **فتاه هو:** يوشع بن نون، كان يقوم برفقة موسى وخدمته ومساعدته، وعندما مات موسى أعطاه الله النبوة، فكان نبيـًا في بني إسرائيل، وهو الذي دخل بهم الأرض المقدسة بعد موت موسى وهارون.

وقوله: (**لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين**)، **أي:** لا أزال أمشي وأسافر حتى أبلغ مجمع البحرين، وهو المكان الذي وُصف لموسى أن الخضر فيه، وقد اختلف المفسرون في مجمع البحرين على أقوال، **ويمكن تلخيصها في قولين:** **الأول**[2]: هو التقاء البحر الأحمر بالبحر الأبيض من جهة جنوب شرق مصر، عند خليج العقبة، **والثاني**[3]: هو التقاء البحر الأبيض بالمحيط الأطلسي من جهة شمال غرب، عند مضيق جبل طارق، والراجح الأول، باعتبار أن بني إسرائيل كانوا بعد خروجهم من مصر في سيناء، **وملتقى البحرين:** البحر الأحمر

(1) هو نفس الحديث السابق لأنه في سياق قصة واحدة.

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 55).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 56)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور: (5/ 423).

مع البحر الأبيض، كما يسمى الآن، وكان يُسمى قديمًا بحر القلزم مع بحر العرب، وهو المكان الأقرب لهم، فإذا أطلق فينصرف الذهن إليه.

وكلمة (**لا أبرح**): تُفسّر حسب سياقها، فالسياق هنا في المشي والسفر، يعني: لا أترك المشي والسفر حتى أبلغ مبتغاي، وابن يعقوب الأكبر قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾[يوسف:80]، **فمعناها**: لا أمشي ولا أتحرك من مصر حتى يأذن لي أبي، **وقوله**: (أو أمضي حقبًا)، جمع حقبة، والحقبة، قيل: سبعين سنة، وقيل ثمانين سنة[1]، **والمعنى**: لا أزال أسافر وأقطع المسافات الطويلة والأزمان الكثيرة حتى أصل إلى بغيتي، وهذا يدل على التصميم والعزيمة للوصول إلى الهدف قريبًا كان أو بعيداً.!!

فانطلق موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فتاه، وأخذا معهما مكتلاً ووضعا فيه حوتًا مملحًا مقليًا أو مشويًا، **وقيل**: أخذا مجموعة من الحيتان[2]، وكانا يأخذان منها ويأكلان كلما جاعا، وبقي واحد منها هو الذي دخل البحر، ويظهر أن تحرك الحوت ودخوله البحر قد جُعل علامة ومعجزة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمعرفة مكان الخضر، **والمعنى**: خذ معك حوتًا مملحًا مشويًا وأينما تحرك الحوت وعادت له الحياة، فهناك يوجد الخضر، فهي علامة له ومعجزة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾،

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 56)، وتفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2376)، وتفسير الرازي: (21/ 479).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 480).

أي: سافرا ومشيا وقطعا المسافات الطويلة حتى وصلا إلى ملتقى البحرين، البحر الأحمر مع البحر الأبيض، والظاهر أن انطلاقهم كان من سينا، لأن بني إسرائيل بقوا في سيناء ومات موسى وهارون في سيناء، فلما وصلا ذلك الموضع ارتاحا قليلاً، فنام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبقي يوشع مستيقظاً، فاستل الحوت من المكتل ودخل البحر، فاستيقظ موسى، ونسي يوشع أن يحدثه بانسلال الحوت وتحركه ودخوله البحر، واستمرا في السفر[1]، **وقيل**[2]: إن يوشع نسي المكتل والحوت عند الصخرة أثناء استيقاظ موسى، وهذا القول من حيث التعليل أولى، لأن نسيان الأغراض أسهل من أن ينسى قصة غريبة ونادرة، وهي خروج الحوت وتحركه بعد أن كان ميتاً ودخوله البحر، فهذه قصة غريبة غالباً لا تنسى!! وهو كذلك من حيث السياق، إذ ربط النسيان بالحوت وليس بانسلاله!!، وأجيب عن هذا بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيراً فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم، فجاز حصول النسيان عليه[3].

فلما نسياه وتحرك، هناك حذف وتقديره: فلما نسيا الحوت وصار حياً وتحرك، (فاتخذ سبيله)، **أي**: شق طريقه في البحر، (سرباً)، مثل السرب في الأرض، **أي**: على شكل طاقة، حيث لا يرجع الماء بعده على ما كان عليه، أو يمشي ويتحول الماء يبساً.!!

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 57)، وبحر العلوم: (2/ 354).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 323).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 480).

قولـــه تعـــالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾، فلما جاوزا المكان الذي نزلا فيه، وأحس موسى بالتعب والجوع؛ طلب من الفتى الغداء، **أي**: الأكل، وهو: الوجبة التي تؤكل في الغُدو، وهو الصباح، **وكان لا يوجد عند الناس إلا وجبتان: وجبة** صباحية، **ووجبة** مسائية، أما وجبة الغداء المعروفة الآن بعد الظهر، فهو عرف حادث، **والنَّصَب**: هو التعب الذي وجده من يوم قام إلى أن طلب الطعام، **قيل**: إن موسى لما تجاوز المكان ومشى بعده مسافة، شعر بالتعب، ولم يشعر به من بداية الرحلة، قالوا: إنما شعر بالتعب إشارة إلى أنه تجاوز المكان الذي كان هدفه[1]!!.

فتذكر الفتى أنه نسي المكتل الذي فيه طعامهم، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾، **فقال لموسى**: هل تعلم أننا لما نزلنا وارتحنا عند الصخرة، نسيت أن أخبرك أن الحوت قد أُحيي ودخل البحر، وأنت كنت نائماً وما أنساني إخبارك إلا الشيطان، فنسب النسيان إلى الشيطان، **قيل**: بالوسوسة، **وقيل**: إنه شغله بعمل آخر لمزيد من إتعابهما في الطريق[2]، وفيه دلالة على أن الشيطان يحاول أن يحرف طالب العلم عن هدفه، فإن لم يستطع أتعبه وطوّل عليه المسافة، فإذا كان هذا فعل الشيطان بموسى، فكيف لا يقف الشيطان في طريقك يا طالب العلم، ويؤذيك في بدنك وفي قلبك؟!!، فتقوّى عليه بالتقوى!.

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 65)، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (2/ 732).

(2) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (2/ 733)، وتفسير الرازي: (21/ 480).

وقوله: (واتخذ سبيله في البحر عجبًا)، أي: كان مسير الحوت في البحر سربًا، ولمن يراه، وهو موسى والفتى، شيئًا يتعجب منه!! فقد صار حيًا بعد أن كان ميتًا، وصار الماء بعد مروره فيه يابسًا!! أو صار الماء بعده طاقة مفتوحة، والأصل أن يرجع الماء بعده كما كان، ولكن هذا نوع من الإعجاز، وقد سبق أن حصل مثل هذا لموسى ولقومه، فقد جعل الله لهم البحر يبسًا، عندما أنجاهم من فرعون وجنوده.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾، اسم الإشارة (ذلك) يعود إلى ماذا؟، قيل[1]: أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب، وقيل[2]: إن الحوت قد نزل البحر قبل ذلك، وأن موسى لما رجع ورأى سرب الحوت كان يتعجب من سرب الحوت في البحر، وقيل[3]: إن الأمرين معًا كانا علامة لموسى على مكان الخضر، وأن النسيان تم للحوت مع المكتل، وعند العودة إلى المكان ورؤية المكتل، تحرك الحوت وانسل أمام موسى وفتاه ودخل البحر بتلك الصفة فتتبعاه حتى وصلا إلى مكان الخضر.

واختلف العلماء: كيف كان إحياء الحوت، هل كان بسبب معين أم بدون سبب؟ فقيل[4]: إن الله خلق هناك عين الحياة، وهو ماء يشربون منه، وأن يوشع

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 15).
(2) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 13).
(3) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 64)، وتفسير الثعلبي: (6/ 182).
(4) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 66)، وتفسير الرازي: (21/ 480).

أراد أن يغسل يديه منه، فطار على الحوت بعض قطراته فحيي، **وقيل**:إنه أُحيي بدون ماء، وهو الثابت في نصوص الحديث[1]، فالله تعالى يخلق المعجزات ولو بدون سبب، فهذه المعجزة الأولى في أمر هذا الحوت وهي: إحياؤه.

والمعجزة الثانية: أنه كان لا يلامس ماء البحر إلا صار ماء البحر يابساً[2]، هذا قول، **والقول الثاني**[3]: أنه عندما دخل البحر، فإذا بالمكان الذي دخل منه ظل طاقة مفتوحة، كما في **قوله**: (سرباً)، **أي**: مسرباً، والمسرب هو النفق الصغير الذي يمشي فيه.

لكن القول الأول: وهو أنه كان إذا لامس ماء البحر صار يابساً أقوى[4]، لأن الله تعالى جعل ذلك علامة لموسى حتى يصل إلى الخضر، لأن الخضر لم يكن عند الصخرة، **بل كما جاء في بعض الروايات**: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تتبع أثر الحوت ومشى في ذلك اليبس الذي كان يتحول عندما يلمسه الحوت حتى وصل إلى جزيرة وراءه؛ فإذا شخص مسجى ببرد أخضر مغطى به وجهه ورجلاه، فلما راءه موسى، قال: السلام عليكم، ففتح الخضر وجهه، وقال: وعليك السلام، وأنى بأرضك السلام؟!، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟، فقال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشداً[5].

(1) رواه البخاري: (1/ 35)، (122).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 59).

(3) ينظر: المصدر السابق: (18/ 58).

(4) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 354)، وتفسير الثعالبي: (6/ 181)، وتفسير ابن كثير: (5/ 157).

(5) ينظر: البخاري: (1/ 35)، (122)، وتفسير القرطبي: (11/ 15).

وقوله: (فارتدا على آثارهما قصصًا)، أي عادا من حيث أتيا، يمشيان ويتتبعان الأثر، وهذا يدل على أنهما كانا في الساحل، لأن الرمل أكثر حفظًا من غيره لأثر القدم عليه، و(قصصًا)، من القص وهو اتباع الأثر، كما في قول أم موسى لأخته: ﴿قُصِّيهِ﴾[القصص:11]، أي تتبعي أثره، فلما وصلا إلى المكان الذي نسيا الحوت فيه، وجرى لهما مع الحوت ما سبق بيانه.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾، وهذا يدل على أن موسى ويوشع مشيا معًا حتى التقيا بالخضر، لكن بعد ذلك هل تركهما يوشع أم استمر معهما؟!، **قال بعض المفسرين**[1]: إنه لما التقى موسى بالخضر تركهما يوشع، لأن المقصود هو أن يتعلم موسى فقط، وقالا له: اجلس هنا حتى نرجع إليك، **وقال آخرون**[2]: إنهم استمروا مع بعض، وإنما لم يذكر يوشع معهما في القصة، لأن الحديث كان عن موسى والخضر فقط، وهو تابع لهما، ونص القرآن يدل على الأول، ولكن عندما وجداه كان يوشع مع موسى، (فوجدا عبداً من عبادنا)، **والعبد المقصود به هنا:** هو الخضر، كما صح ذلك بالسنة، وهو لقبٌ له وسمي به، لأنه لم يكن يجلس على أرض يابسة إلا اخضرت، وهذا من كراماته، أو لأنه كان له طنفسة خضراء يجلس عليها، ويعرف بها[3].

---

(1) ينظر: تفسير السمرقندي: (2/ 355)، وتفسير الثعلبي: (6/ 183)، وتفسير البغوي: (5/ 189)، وتفسير ابن كثير: (5/ 164).

(2) ينظر: البحر المحيط في التفسير: (6/ 140).

(3) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر: (18/ 70)، وزاد المسير في علم التفسير: (3/ 97).

قوله: (آتيناه رحمة من عندنا)، جمهور المفسرين على أن الرحمة هنا هي النبوة[1]، فالخضر عندهم نبي، ومن قال: إنه ليس بنبي وإنما ولي[2]، قالوا: الرحمة هنا؛ نعمة الإلهام، حيث علمه وألهمه بعض المسائل دون أن يحتاج تعليم أحد.

(وعلّمناه من لدنا علمـًا)، على القول بأنه نبي؛ فالعلم يأتي إليه بواسطة الوحي، وعلى القول بأنه ولي؛ فالرحمة هي نعمة الإلهام والكرامات، والعلم هنا: علم الإلهام والكرامات، وهذا مستند قوي يتمسك به بعض الصوفية بشدة، لأنهم يقولون بأن الخضر ولي، وأن الولي أفضل من الرسول، ولذلك جاء الرسول ليتعلم من الولي!! وجمهور المفسرين على أنه نبي، وليس ثمة إشكال في أن يتعلم الأعلى من الأدنى، أو الفاضل من المفضول بعض المسائل.

(وعلمناه من لدنا علمـًا)، وهذا يسميه بعض أهل العلم: علم الباطن، ولكن الذي ظهر من تفسيره للحوادث التي أنكرها عليه موسى أن المقصود به: علم المقاصد الشرعية، أو المآلات الشرعية للفعل – كما سيأتي بيانها – وأن تلك الأشياء التي فعلها الخضر، مآلاتها الشرعية ومقاصدها حسنة، وإن كان ظاهرها منكر، فهذا النوع من العلم لم يكن عند موسى، وكان عند الخضر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾﴾،

---

(1) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2377)، وفتح القدير للشوكاني: (3/ 355)، وتفسير الألوسي: (8/ 302).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 168)، وروح البيان: (5/ 270)، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (3/ 288).

هذا من تواضع موسى، **والمعنى:** قد أتيت تابعـًا لك؛ أطلب العلم على يديك، واسترشد بتوجيهاتك ونصحك، فأنا تلميذ لك وأنت أستاذي، **فرد عليه الخضر:** ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾؛ لأن عندي علم لا تستطيع أن تصبر عليه، لغموضه وتعلقه بالمآلات، **وعلّل له ذلك بقوله:** ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾، فاستبعد حصول الصبر منه على أشياء سيفعلها لم يقف موسى على حقيقتها بعد، **فرد عليه موسى:** ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾، وعد موسى الخضر بالصبر واستعان بالله على ذلك، والتزم له بعدم عصيان أوامره، **فرد عليه الخضر:** ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾، فإن أردت اتباعي وتعلّم العلم الذي عندي، فإني اشترط عليك ألا تسألني عن شيء أفعله، مهما كان غريبـًا، فلا تقل لماذا فعلت هذا؟ أو كيف فعلت هذا؟ ولماذا لم تفعل هذا؟ فهذا كله ممنوع عليك، إنما تصبر حتى أبيّن لك سببه ووجهه ومنتهاه ومآله، فكان هذا شرط الخضر على موسى، ووافق موسى على هذا الشرط، والسؤال: من أين علم الخضر أن موسى سيناقشه أو يجادله؟!! الجواب: عرف ذلك من حاله، فموسى عالم، والعلماء لا يأخذون المسائل إلا بالدليل والبرهان ولا يأخذونها تقليداً!، وهذا يعني أن هناك فرقـًا بين طالب العلم المتقدم الذي له حق النقاش والحوار مع أساتذته حتى يصل إلى الدليل والبرهان، وبين طالب العلم المبتدئ الذي حقه أن يتبع شيخه ويحفظ المتون، ويتقوى في الفهم، ولا داعٍ لدخوله في إشكالات ولا في مناقشات لأقوال العلماء قبل تأهله!!.

وفي الآية دليل على جواز أن يشترط الشيخ على الطالب بعض الشروط لقبوله طالبًا عنده، ووجوب أن يلتزم بها الطالب، وعند المخالفة يعطى ثلاث فرص، وكل ذلك جائز ولا حرج فيه، فعلى طالب العلم أن يتواضع كتواضع موسى، وأن يلتزم بالشروط كما التزم موسى بشرط الخضر ووافق عليه، "والمسلمون على شروطهم" كما في الحديث(1).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- استحباب أن يكون للشيخ والرجل الكبير خادمًا يساعده ويقوم بشأنه.

2- أن المعونة تتنزل على العبد بحسب قيامه بالمأمور، وأن الموافق لأمر الله يعان.

3- بيان أهمية التواضع في طلب العلم.

4- الالتزام بالشروط التي يشترطها مشايخ العلم ومراكزه لقبول طلابهم.

5- أن يكون الطالب في بداية الطلب تابعًا لشيخه.

6- أن العالم له أن يمنع الطالب في بداية الطلب عن السؤال والنقاش والجدال في بعض المسائل.

7- طبيعة النسيان موجودة عند البشر، فقد نسي الفتى الحوتَ، ونسي موسى الشرطَ -كما سيأتي- .

(1) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا: (3/ 92) برقم: (2273)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (2915).

تفسير جزء الكهف

(16)

تفسير المقطع الحادي عشر من سورة الكهف

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا
إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ
لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥ قَالَ إِن
سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ
قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ
شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ
صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ
يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا
وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع
عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢ ﴾.

وبدأت الرحلة العلمية في صورة تطبيق عملي، فليست إعطاء معلومات نظرية، وذلك لأن الإنسان قد تكون عنده معلومات نظرية، ولكنه إذا خرج إلى

الواقع؛ لقي عقبات أثناء التطبيق، فيحتاج إلى صبر وخبرة لتجاوز تلك العقبات، ثم إن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وافق على الشروط في عدم السؤال وعدم الاستفسار حتى يعلمه الخضر، لكنه لما مارس معه جانباً من العلم على الواقع، أو ما نسميه اليوم: "البرنامج التطبيقي"؛ للحصول على العلم؛ وجد شيئاً لم يستطع السكوت عليه.!!

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾، فانطلق موسى والخضر من المكان الذي كانا يجلسان فيه باتجاه الساحل، وبينما هما يمشيان في الساحل بحثا عن سفينة تأخذهما إلى الجهة الأخرى من الجزيرة؛ فوجدا سفينة، **والسفينة يقصد بها هنا:** الزورق أو القارب على عادة الناس في ذلك الوقت، وكان هذا القارب لمجموعة من الناس، وكأنهم كانوا يعرفون الخضر؛ فأركبوهما دون مقابل، فركبا القارب، وكان جديداً سليماً، فلما نظر إليه الخضر، وكان قد أعلمه الله أن أمامهم ملك ظالم يقطع الطريق، ويأخذ الأحسن والصالح مما يجد، وهذا من العلم المخفي على موسى، وكان معلوماً للخضر، فقام الخضر إلى جدار السفينة، فخلع لوحاً منها، وهذا اللوح يؤثر على السفينة لكن لا يوصلها إلى حد الغرق، فاستغرب موسى من هذا الفعل!!، ونسي الشرط الذي بينهما، فقال: (أخرقتها لتغرق أهلها)، **اللام هنا:** لام العاقبة، وليست للتعليل، يعني: أفعلت فيها خرقاً، فيدخل الماء فيمتلئ به القارب فيغرق، فعاقبة الخرق هو الغرق، وهو احتمال، واحتمال ألا يغرق، لكنه بالنسبة لموسى فعلٌ لا يليق أن يفعل بدون سبب، ومع قوم أكرموهما بالركوب، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، ولذلك قال: (لقد

جئت شيئًا إمراً﴾، **إمراً:** يعني أمراً مستبشعًا، أو متعجبًا منه، أو غير لائق؛ وإن قلنا أن الغرق محتمل، لأن الخرق ليس كبيراً، فالأمر حينئذ منكر، ولكنه دون النكارة الكبرى، أما إذا كان الخرق واسعًا بحيث يؤدي إلى الغرق؛ **فالأمر هنا** أشد نكارة وأشد فضاعه!!.

فذكّره الخضر بالشرط، وعدم قدرته على الصبر: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾﴾، **أي:** قد نبهتك أني سأفعل أشياء لا تستطيع الصبر عليها، وأنت وعدت بالصبر، فلا بد أن تتصبر، **والظاهر** أن هذا الفعل حدث من موسى نسيانًا، حيث ذهل عن الشرط، **فلذلك طلب إعذاره، فـ**﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾﴾، **أي:** لا تحاسبني على مخالفتي لك لأني نسيت الشرط، ولا تشد عليّ، وعاملني باليسر والسهولة، فقبل منه الخضر هذا العذر ولم يشدد عليه.

وقوله: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾﴾، **أي:** وبعد أن وصلا إلى الجهة الثانية من الساحل نزلا من السفينة، فانطلقا يمشيان، فوجد ذلك العبد الصالح مجموعة من الغلمان يلعبون، فنظر في واحد منهم ودقق النظر فيه، ثم أمسك برأسه، وكسر رقبته حتى مات، **قيل:** كسره بيده[1]، **وقيل:** ضربه بسكين[2]، ولما رأى موسى هذا الفعل والموقف من العبد الصالح؛ لم يستطع الصبر هذه المرة رغم أنه ذاكراً للشرط، ولم يتحمل

(1) ينظر: التفسير الوسيط للواحدي: (3/ 159).

(2) رواه البخاري: (6/ 89) برقم: (74 26)، وتفسير الرازي: (21/ 487)، وتفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (3/ 288).

الموقف، فقال له: (أقتلت نفساً زكية)، **وفي قراءة أخرى**[1]: (زاكية)، **أي**: ليس عليها ذنب، ولم تبلغ الحلم، ولم تقتل نفساً حتى تقتلها قصاصاً، فلماذا فعلت هذا الفعل بدون مبرر؟!، **ثم وصف فعله بقوله**: (لقد جئت شيئاً نكراً)، **أي**: مستنكر، وهو كذلك، فإن القتل بغير حق منكر في حق الحيوان بدون الحاجة، فما بالك بقتل طفل لم يبلغ، ولم يرتكب جرماً، ولم يقتل نفساً.؟!!

فالتفت إليه الخضر؛ و﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾، **ففي الأولى قال**: (ألم أقل إنك)، **وهنا قال**: (ألم أقل لك إنك)، **زاد فيها لفظ**: (لك)، التي تدل على التوكيد.

فأدرك موسى أنه خالف الشرط ولا عذر له، لأنه تكلم عمداً، دون نسيان، فـ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾، **أي**: إن اعترضت عليك أو سألتك سؤال اعتراض أو استفهام؛ (فلا تصاحبني)، بل اتركني وفارقني، وينقضي الاتفاق بيننا؛ لأنك قد أعطيتني الوقت الكافي، والعذر الكافي، وأنا السبب في عدم الاستمرار معك!!، **قال النبي ﷺ كما في الصحيح**[2]: **"وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما"**.

فقبل منه الخضر ذلك الشرط: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾، **فانطلقا**: يمشيان باتجاه مكان آخر حتى وصلا إلى قرية، وقد عبّر

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 74-75).

(2) أخرجه البخاري: (4/ 156) برقم: (3401).

عنها بقرية، **وفي آية أخرى:** (مدينة)، مما يدل على أنها بين المدينة والقرية سواء في الحجم أو السكان، ومنهم من يقول: القرية هي المدينة، وأنها من المترادف، وأن التفريق بينهما مصطلح عصري، **وقد اختلف المفسرون[1] في اسم القرية، فقيل:** أنطاكية، **وقيل:** الأيلة، وهي من القرى التي على ساحل البحر الأبيض المتوسط، **وقوله:** (استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما)، **أي:** بعد أن وصلا إلى القرية، وقد أصابهما الجوع الشديد، طلبا من أهل القرية طعاماً كضيافة، فرفضوا أن يعطوهما طعاماً، وسماها ضيافة، لأن من دخل قريةٍ فمن حقه أن يطعمه أهلها، **وقد جاء في الحديث:** "**وكان أهل القرية قوم لئام**"[2]، يعني بخلاء لا يعطون الضيف شيئاً، فبينما هما يتجولان في هذه القرية لغرض ما، رأى الخضر: (جداراً يريد أن ينقض)، **أي:** جدار معمور قد تهيأ للسقوط، **وقد جاء في الحديث:** "**أن الخضر لمسه بيده فرجع كما كان**"، **وفي رواية أخرى:** "**أن الخضر هدم الجدار وبناه مرة أخرى**"[3]، والأولى أكثر لفتاً للانتباه لظهور الإعجاز فيها.!!

فلما نظر موسى هذا الفعل من الخضر، قال له: (لو شئت لاتخذت عليه أجراً)، **أي:** قل لهم: أعطونا أجرة إصلاح الجدار؛ لنشتري لنا بها طعاماً، **والمعنى:** قوم لئام ونحن جياع، طلبنا منهم الطعام فمنعونا، وأنت أصلحت لهم

---

(1) ينظر: تفسير الثعلبي: (6/ 185)، تفسير الزمخشري: (2/ 737).

(2) أخرجه النسائي: في السنن الكبرى: (10/ 165) برقم: (11247).

(3) أخرجه مسلم: (4/ 1847) برقم: (2380).

هذا الجدار دون مقابل!!، ولم ينتبه أن هذا مخالف للشرط، وأن هذه آخر فرصة له حسب طلبه.!!

فلم يجبه على اقتراحه، وإنما بيَّن له أنه قد استكمل كل فرص البقاء معه، وتحقق شرط المفارقة بينهما، فـ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾، لأنه قد قال له: (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني)، فموسى هو الذي حكم على نفسه، وهو الذي خالف الشرط!! ولذا كان الجواب له من الخضر: (هذا فراق بيني وبينك)، ولكن قبل أن نفترق لا بد أن أبيّن لك السر في هذه الأفعال التي فعلتها واستنكرتها، فهناك سر وراءها، وهذا السر هو العلم الذي علمني الله، ولم يعلمك إياه، ولذلك: (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً)، **أي**: سأُخبرك وأُبيِّن لك وأفسّر لك العلة والسبب لفعل تلك الأفعال!، فقال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾، **أما قصة السفينة التي أخذت لوحًا من ألواحها**، فقد كانت لمجموعة من المساكين، وقد ورد أنهم عشرة أخوة[1]، خمسة مرضى في البيت، وخمسة أصحاء يشتغلون على هذا القارب، وكانت هذه السفينة مصدر رزق لهؤلاء المساكين، (فأردت أن أعيبها): أردت أن أجعل فيها عيبًا، (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا)، بسبب أن عندي علم أن أمامهم - وراء هنا بمعنى أمام، والأصل في وراء أنها ما وُورِي عنك وتوارى عنك، **أي**: غاب عنك- ملك معه مجموعة من

(1) ينظر: تفسير الثعلبي: (6/ 186)، وتفسير البغوي: (5/ 194).

قطاع الطرق، وهم من يسمون اليوم: بـ (قراصنة السفن)، وكانوا موجودين في الأماكن التي ترسوا فيها السفن يفتشون عن أحسن وأصلح السفن؛ فيأخذون كل سفينة خالية من العيوب بالقوة، فأراد الخضر أن يجعل هذه السفينة أو القارب معيبًا حتى إذا رآه هذا الملك وجماعته؛ تركوه لأصحابه، فما الذي فعله الخضر؟! لقد خلع منه لوحًا لكي يعيبه في نظر قطاع الطريق!! ومع أن هذا الفعل مفسدة كما نظر إليها موسى وأنكرها عليه، إلا أنها مفسدة صغرى ارتكبت لدرء مفسدة كبرى، وهذا جائز شرعًا وعقلاً!!، فخلْعُ لوحٍ من السفينة - عند أصحابها المساكين الذين لا حول لهم ولا قوة برد ظلم ذلك الملك - أهون عليهم من أخذ السفينة كلها!!

فلما سمع موسى هذا البيان والتعليل لفعل الخضر، اقتنع به، ولسان حاله يقول: هذا كلام صحيح، ولو كنت أعلم علته آنذاك، ما أنكرت عليك.!!

وفي القصة الثانية: علّل له بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾﴾، **(وأما الغلام)** الذي قتلته؛ فقد طُبع هذا الغلام على الطغيان والكفر، وهو طفل، وكان وحيد والديه، وهما يحبانه كثيراً، ولو كبر على ذلك الطبع لأدى إلى كفر والديه واتباع مذهبه بسبب حبهما له، وهذا من العلم الذي أعطاه الخضر، ولم يعلم به موسى، فأيها أخف -بالنسبة للوالدين- أن يخسرا هذا الولد المجرم ويبدلهما الله ولداً صالحًا، ويبقيان على الإيمان، أو يبقى هذا الولد المجرم ويكفر الأبوان، لا شك -من الناحية الشرعية- أن ذهاب هذا الولد المجرم أحسن لهما من أن يكفرا ويكونا من أهل

النار، **ثم علّل فقال:** ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾، فأردنا بهذا الفعل، وهو: قتل الولد، التخلص منه لكفره وطغيانه مستقبلاً، وأن يحصل أبواه على بديل عنه أفضل منه صلاحًا، **قيل:** كانت أمه حاملاً[1]، فجاءت بولد صالح بار بأبويه، **وقيل:** بل كانت حاملاً بجارية وكانت صالحة فقامت على خدمتهما وبرهما[2].

فذكر صفتين حسنتين في البديل، وهما: (زكاة وأقرب رحمًا)، فالزكاة: أي الصلاح والاستقامة بدل الطغيان والكفر، (وأقرب رحمًا)، **أي:** طائع وبار بوالديه، بدلاً من ذلك العاصي لهما، فلما سمع موسى هذا التعليل لذلك الفعل؛ اقتنع موسى بذلك، وهو بمثابة ارتكاب المفسدة الصغرى لدرء المفسدة الكبرى.

ثم حدّثه عن القصة الثالثة وسببها، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾، **أما قصة الجدار،** فقد كان صاحباه غلامين يتيمين، في هذه المدينة المعروف أهلها باللؤم!!، والذين بخلوا على ضيوفهم بشيء يسير من الطعام!!، فتخيل لو سقط هذه الجدار، وظهر الكنز الذي تحته، وعلم هؤلاء اللئام، فكيف سيفعلون به؟ سيأخذونه عليهم، ولكن الله أعلمني بهذا الكنز وبحال أصحابه، وأمرني بإقامة

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 87).

(2) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 86).

الجدار حتى يكبر الغلامان ويستخرجا كنزهما بطريقتهما الخاصة، **والسبب في حفظ الله لكنزهما بفعلي هذا، هو: أن جدهم السابع كان صالحًا، كما قال جعفر بن محمد** -وهو من أئمة التفسير-: كان بين الغلامين والرجل الصالح سبعة آباء[1]. وهذا أثر من آثار صلاح الآباء على الأبناء.

وقوله: (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما)، **أي:** بفعلنا هذا أراد الله أن يبقى الكنز محفوظًا ومخفيًا عن عيون أهل تلك القرية، إلى أن يبلغ الغلامان مرحلة الرشد والقوة، (ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك)، ويقومان باستخراج الكنز والاستفادة منه، فهذا العمل الذي فعلته هو رحمة من الله، رحم الله بها هذين اليتيمين، كثمرة لصلاح أبيهما.

وهل كان الغلامان يعلمان بالكنز؟ قيل: لا، ولكن كان يعرف الكنز وصيهما، وكان الوصي مسافراً عن المدينة حال دخول الخضر إليها، وكاد الجدار أن يسقط، وقام الخضر بإصلاحه وإقامته، وبعد أن يرجع الوصي هو من سيقوم بحفظه إلى أن يبلغ الغلامان، ويستخرج الكنز ويسلمه لهما.

والكنز إذا أُطلق فهو مالٌ[2]**، وقال بعض المفسرين:** المقصود به كنز العلم[3]، كان عبارة عن كتب فيها معلومات، وضُعّف هذا القول، لأن أصحاب القرية لئام،

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 89)، والتفسير الوسيط للواحدي: (3/ 163).

(2) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 90).

(3) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 88).

وليسوا في وادي طلب العلم، **وقال آخرون:** هو لوح من ذهب مكتوب عليه وصايا علمية مهمة[1]، وهذا القول يجمع القولين السابقين، وهو وجيه، فالذهب مال ينتفع به، وكذلك الوصايا العلمية علم يستفيد منها الغلامان.

ثم ختم هذا البيان بقوله: (وما فعلته عن أمري)، **أي:** كل هذه الثلاث القضايا التي فعلتها وهي مخالفة في ظاهرها للحكم الشرعي الذي يعلمه موسى، لم أفعلها بأمري ولا باجتهادي وإنما بوحي من الله تعالى، وإنما أنا مأمور من الله تعالى بفعلها؛ لأعلمك نوعًا جديداً من العلم الذي كان غائبًا عنك!!، وهذا من الأدلة على أن الخضر نبي، وليس بولي.

ثم قال له: (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً)، **أي:** هذا تفسير لما استنكرته من الأفعال، ولم تستطع السكوت عليه عند رؤيته، **وقوله:** (تستطع، وتسطع)، **في الأولى:** أتى بالتاء، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، لأن في الأولى كان الوضع شديداً والأمر بالصبر على شيء لا يعرف ما حجمه شديد أيضًا، وحذف التاء **في الثانية؛** لأن الأمر بالصبر قد أصبح سهلاً، بعد بيان السبب له، فكأنه يقول له: هل تستطع أن تصبر لو عدنا مرة أخرى؟ فقال: نعم أستطيع.

وبهذه الآيات انتهت قصة موسى مع الخضر عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ.

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 89).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- التأني في الحكم على الأشياء مهمٌ جداً، خاصة العالم وطالب العلم، فالجاهل لو استعجل ممكن يعذر، بخلاف طالب العلم أو العالم، وكما قيل: "في التأني السلامة وفي العجلة الندامة".

2- أن المفسدة الكبرى تدفع ولو بارتكاب مفسدة صغرى، ومن تطبيقات ذلك في الواقع، مثال: امرأة تعسرت عليها الولادة ولا يوجد إلا طبيب رجل، فيجوز له أن يكشف عورتها لعلاجها، فكشف العورة مفسدة لكنها صغرى بجانب موت المرأة.

3- أن الصاحب لا يفارق صاحبه إلا إذا وصل معه إلى طريق مسدود، فالخضر لم يفارق موسى من أول مرة، بل صبر عليه مع تكرار المخالفة، فاصبر على صاحبك حتى تستفد منه.

4- استعمال الأدب مع الله تعالى في كثير من الألفاظ، فالخضر قال: (فأراد ربك)، عند فعل الخير، وعند فعل الشر قال: (فأردنا)، وكما قال إبراهيم الخليل: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾[الشعراء:80]، فنسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله، رغم أن المرض والشفاء كلاهما من الله، إلا أنه من باب الأدب مع الله تعالى.

5- لا بد من كشف المسائل الغامضة بدليلها، حتى يذهب الاعتراض عنها والشك من السامع لها، وحتى يتعرف على حقيقتها.

تفسير المقطع الثاني عشر من سورة الكهف

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾، **هذه هي القصة الرابعة في سورة الكهف.**

القصة الأولى: كانت تتحدث عن أصحاب الكهف، **والثانية:** عن صاحب الجنتين، **والثالثة:** قصة موسى مع الخضر، **وهذه هي القصة الرابعة:** وهي قصة ذي القرنين.

وقد سبق معنا أن كفار قريش طلبوا من النبي ﷺ -كما أخبرهم بذلك يهود المدينة- أن يخبرهم عن قصة ذي القرنين، وسبق معنا أن القصص القرآني يهتم بالإجمال ويبتعد عن التفاصيل الجزئية سواء عن أسماء الأشخاص أو غيرها من التفاصيل التي لا فائدة منها إذ يُقصد من القصة الدروس والعظة والعبرة.

وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾، **أي:** ويسألك يا محمد المشركون عن قصة ذي القرنين؛ فـ(قل سأتلو عليكم منه ذكراً)، **أي:** سأعطيكم طرفاً من قصته، مما يكون فيه تذكرة وعظة لمن تذكر واعتبر منكم.! دون الدخول في تفاصيل لا فائدة لكم منها.

وذو القرنين؛ اختلف المفسرون في اسمه وشخصه، لكن النص القرآني يبيّن أنه رجل مؤمن يدعو إلى التوحيد ويحارب الشرك، وأنه ملك الأرض، وأن الله أعطاه أسباباً من كل شيء حتى وصل إلى مُلك الأرض مشرقها ومغربها.

وقد مَلَكَ الأرض أربعة: اثنان مؤمنان، وهما: سليمان بن داود، وذو القرنين، **واثنان كافران، وهما:** النمرود وبختنصر[1].

ثم اختلفوا: هل ذو القرنين نبي أم رجل صالح؟! على قولين[2]، واختلفوا في اسمه على أقوال متعددة، **منها:** أنه الإسكندر المقدوني[3]، وهذا قول باطل، لأنه كافر، وهذا مسلم، **ومنها:** أنه رجل من حمير[4]، واستدلوا على ذلك بأن الأسماء الحميرية يكثر فيها [ذا، وذو، وذي] ذو نواس، ذي الكلاع، وغيرها.

والخلاصة: أن الله تعالى أخفى علينا اسمه وشخصه؛ لأنه لا فائدة من ذلك، إنما الفائدة من القصة بمجملها وما احتوت عليه من الدروس والعبر، وعلى

(1) ينظر: تفسير السمرقندي بحر العلوم: (2/ 360).

(2) ينظر: التفسير الوسيط للواحدي: (3/ 163)، وتفسير البغوي: (5/ 197).

(3) ينظر: تفسير الماوردي النكت والعيون: (3/ 337)، التفسير الوسيط: (6/ 915).

(4) ينظر: التفسير الوسيط: (6/ 916).

ذلك فلا ينبغي للمسلم أن يكثر من الجدال حول اسمه أو شخصه بدون حجة ولا برهان، خصوصاً أن أكثر المعلومات عنه، إما من كتب الإسرائيليات مثل التوراة والإنجيل، وهي كتب محرّفة قد زيد فيها ونقص منها، أو من كتب التأريخ، وبعض المؤرخين لا يهتم بصحة المعلومة، وبعضهم ربما زوروا التأريخ، إما لبعدهم عن الأحداث أو لأشياء في نفوسهم.

ولماذا سُمّي بذي القرنين؟ ذُكر في كتب التفسير أسباب لذلك، **منها**: أنه بلغ قرني الشمس أي مكان طلوعها وغروبها[1]، **ومنها**: أنه كان رجلاً صالحاً دعا قومه إلى الخير فضربوه على قرن رأسه فمات، فأحياه الله، ثم عاد فنصحهم ثانية، فضربوه على القرن الثاني فمات، فأحياه الله، فصار ذا القرنين[2]، **وقيل**: صفحة رأسه كانت من نحاس تشبه القرنين[3]، **وقيل**: كان له ظفارتان طويلتان تشبه القرنين[4]، **وقيل** غير ذلك[5] من الأقوال التي لا يوجد دليل على ترجيح واحد منها.!!

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾﴾، التمكين؛ إما أن نقول: إن الله مكّن له في الملك والسلطان، أو إن الله مكّن له بالنبوة وصار له

(1) ينظر: التفسير الوسيط للواحدي: (3/ 163).
(2) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 93).
(3) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 93).
(4) ينظر: تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (2/ 316)، وتفسير الماوردي النكت والعيون: (3/ 337).
(5) ينظر: تفسير الثعلبي الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (6/ 190).

تمكين في الأرض بها، وسواء قلنا إنه عبد صالح أو نبي؛ فقد مكّن الله له في الأرض وخضعت له فصار يحكمها، أو إن الأسباب التي أعطاه الله إياها كانت سبباً في تمكينه، ولم يذكر لنا هنا ما هي تفاصيل الأسباب التي أعطاها الله له، بحيث إن الله أخضع له الجبابرة، وصار من أتى إليهم استسلموا له ومن خالفه نصره الله عليه.

وقوله: (وآتيناه من كل شيء سبباً)، **أي:** أعطيناه من كل شيء يتعلق بالتمكين سبباً، وليس (كل شيء) هنا لعموم مطلق الأشياء، بل لما يحتاج عليه من أسباب التمكين، وما ذكر من أنه كان يربط فرسه بالثريا؛ فهذا باطل، لأنها ليست من أسباب التمكين ولا داعي لها، أما أن الله سخر له الريح أو أنه سخر له الجن فهذا ممكن، لأنها من أسباب التمكين.

وقوله: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾، **وفي قراءة**[1]: (فاتّبع)، **أي:** أنه أخذ بالأسباب التي أعطاه الله؛ للتوصل بها إلى مراده من التمكين في الأرض وطوافها ونحوها.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾، فأول رحلة له كانت باتجاه الغرب، حيث سار في الأرض حتى وصل إلى نهاية الأرض باتجاه المغرب، فوجد الشمس، وهي تدنوا من الغروب و(وجدها تغرب في عينٍ حمئة)، والحمئة: التي يوجد فيها ماء وطين أسود، **كما جاء في قصة خلق آدم:** ﴿مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[الكهف:85]، **والحمأ:** هو الطين المتصلب الذي لونه

(1) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر: (18/ 94).

أسود، وفي قراءة (حامية)[1]، أي: عين حارة، وعلى كلا المعنيين يمكن أن توصف العين بهما معًا، فهي حارة، بها ماء وطين أسود.

وقوله: (وجدها تغرب في عين)، وهي لا تغرب في العين نفسها؛ لأن الشمس أكبر من الأرض بأكثر من مائة وعشرين مرة، إنما تنزل خلفها، لكنه أخبر عن ما يراه الرائي، فأنت مثلاً: لو كنت في الساحل وقت الغروب ونظرت للشمس وهي تغرب لظَهَرَ لك أن الشمس تسقط في البحر، وهي لم تسقط في الحقيقة فيه، إنما اختفت خلفه!! فيكون معنى: (وهي تغرب في عينٍ حمئةٍ)، أي أن الرائي يرى قرص الشمس وهي تغرب وكأنها سقطت أو دخلت في العين الحامية.!!

ولما وصل ذو القرنين إلى هذه المنطقة، يعني: أنه وصل إلى حدود المحيطات التي كانت موجودة آنذاك، وتمثل نهاية الأرض من جهة الغرب، قيل: المحيط الأطلسي، وهذا قبل اكتشاف أمريكا وأستراليا[2].

وقوله: (ووجد عندها قومًا) أي: وجد عند هذه العين مجموعة من البشر، كانوا يعيشون في تلك المنطقة، فلما وصل إليهم خيّره الله فيهم، بقوله: (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا)، أي: وهبه الله أهل هذه الأرض، بعد أن فتحها؛ ولك أن تفعل فيهم ما تشاء، إما أن تحسن إليهم، وإما أن تسيء المعاملة لهم، فهم تحت سلطانك.

---

(1) ينظر: تفسير الثعلبي: (6/ 190)، وتفسير الرازي مفاتيح الغيب: (21/ 495).

(2) لأن أمريكا اكتشفت عام 1492م من قبل كريستوفر كولومبوس: (الملاح الإيطالي). وأما أستراليا اكتشفها الملاحة الهولنديون عام 1606م، ينظر: الموسوعة الحرة: (ويكيبيديا)، مقالة: (اكتشاف أمريكا – اكتشاف أستراليا).

فأعلن ذو القرنين دستوره المطلق في كل البلدان التي يفتحها، **بقوله:** ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾، فهذا دستورنا في الحكم في البلدان التي نحكمها، وأعلن ذو القرنين هذا الدستور لكل من سمعه، ولم يذكره في المشرق مرة أخرى، لأنه قد عُلم عنه واشتهر به!!.

وهذه القاعدة: هي قاعدة الملوك الصالحين الذين يقيمون شرع الله ويحكمون به في الأرض، لا يستوي عندهم الصالح مع الطالح، ولا المجرم مع المحسن، ولا المؤمن مع الكافر، بل يحاسبون المسيء ويجازون المحسن!!

وقوله: (قال أما من ظلم فسوف نعذّبه)، وظَلَم، هنا بمعنى أشرك وكفر بالله[1]، **لقوله:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[لقمان:13]، فهذا نبي أو عبد صالح يدعو إلى التوحيد، **والمقصود:** أنتم يا أهل الأرض أمامكم خياران؛ الأول: إما أن تستمروا على الشرك والكفر، فتجدوا الحساب العسير، سواء بالقتل أو الأسر أو غيره، وهذا عذاب الدنيا، (ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً)، **أي:** إن استمر على شركه وكفره، فيرد إلى ربه في الآخرة فيعذبه عذاباً شديداً فضيعاً، لأن عذاب الدنيا مهما كانت شدته، فهو يسير مقابل عذاب الآخرة، **كما في قوله:** ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[السجدة:21]، **الخيار الثاني في قوله:** (وأما من آمن وعمل

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 98)، والتفسير الوسيط: (6/ 920).

صالحاً فله جزاءً الحسنى)، **أي**: من أسلم وحسن إسلامه، فله الجزاء الحسن، والحسنى: كلمة يوصف بها الثواب الحسن، وتوصف بها الجنة، والكلمة الحسنة، فهذا وصف شامل للمعاملة الحسنة سواء في مخاطبته وتقديره في الدنيا، أو في أثناء عودته إلى الله تعالى وجزائه في الآخرة، **وقوله**: (وسنقول له من أمرنا يسراً)، **أي**: وسنعامله معاملة ميسرة حسنة بعيدة عن التشديد، بل برفق ولين، معاملة تجعله يشعر بقيمته لأنه في ظل حكم عادل صالح!!، وهذه المعاملة؛ هي التي جعلت ذا القرنين يفتح الأرض، ويوفقه الله للتمكين ويكون سبباً لإنقاذ الناس من الشرك والكفر الذي كانوا فيه.

وانتهت الرحلة الأولى لذي القرنين، وكانت جهة الغرب، وفتح الأرض كلها التي في جهة الغرب وأعلن فيها دستوره وخضعت له.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾، **أي**: أخذ بالأسباب التي أعطاها الله له، واتجه في رحلته الثانية نحو مشرق الأرض، حتى وصل نهاية الأرض من جهة الشرق، فلما وصل إليها، (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً)، **أي**: وجد الشمس تشرق على قوم وصفهم **بوصف يحتمل أحد أمرين، الأول**[1]: أن لا يكون بينهم وبين الشمس ساتراً، **بمعنى**: أنهم قوم ليست لهم بيوت يسكنون فيها، فهم يعيشون في الصحراء، فإذا أشرقت الشمس أشرقت على أجسادهم،

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 100)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور: (5/ 454).

حتى اكتوت أجسادهم فصارت سوداء، وهم قوم الزنج[1]، **والثاني**[2]: أن عندهم بيوتًا لكنهم قوم عراة لا يلبسون ثيابًا يسترون بها أجسادهم.

وعلى هذا فالستر المنفي هنا عنهم؛ إما أن يكون: البيت أو الخيمة أو غيره، وإنما يغورون في المياه، أو يدخلون في أنفاق تحت الأرض، وكانوا يختبئون بالنهار ويظهرون بالليل، مثلهم مثل الحيوانات المتوحشة، أو أنه كان لديهم بيوت ولكن كانوا لا يلبسون الثياب، لبداوتهم وقلة حيلتهم.!!

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾، **أي**: فعل ذو القرنين معهم، مثل ما فعل مع أصحاب المغرب، وطبق عليهم دستوره، فمن آمن جعل له من أمره يسراً، ومن كفر عذبه وأخضعه لسلطانه، **وقوله**: (وقد أحطنا بما لديه خبراً)، الإحاطة هنا: إما بمعنى العلم المطلق، أو بمعنى السيطرة، فالله تعالى أحاط بكل شيء علمًا وقهراً وحكمًا، **والمعنى**: أحاط الله تعالى علمًا بما لدى ذي القرنين من الأسباب والإمكانيات، وهو الذي أعطاه ومنحه، فلا يظن أنه يفعله دون علم الله! بل هذا من تيسير الله له، ومن الأسباب التي منحه الله تعالى.

وما أحوج الحكام والملوك اليوم إلى الأخذ بقانون ودستور ذي القرنين مع شعوبهم، ولو أخذوا بهذا القانون؛ لفتحت عليهم الأرض وعاش الناس في سلام ووئام ومحبة.!

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 100)، وتفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2387).

(2) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 100)، وتفسير الثعلبي: (6/ 192).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن ذا القرنين ملك مؤمن أو نبي ممَّكن - وهما قولان للمفسرين - أعطاه الله ملك الدنيا فعدل، بل ما حصل له هذا التمكين إلا بسبب عدله وإحسانه إلى الخلق، واليوم كم تحصل من مصائب للبشرية، بسبب ظلم الحكام وبُعدهم عن شرع الله، ولو حكّموا شرع الله وعدلوا بين الرعية؛ لحصل لهم الأمن والاستقرار والتمكين، فالله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويهزم الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، فالعدل أعظم سبب في بقاء الأمم أو هلاكها.

2- من واجب الحاكم المسلم: رعاية الخلق، وحماية مصالحهم، والإحسان إليهم، وحفظ ديارهم وأموالهم، وإقامة العدل فيما بينهم، وتحصين ثغورهم، وهذا هو هدف الحكم في الإسلام، ولذلك عرّف العلماء الخلافة أو الإمامة بقولهم: هو حفظ الدين وسياسة الدنيا به، فإذا حافظ الحكام على الدين وساسوا الدنيا به؛ بسط الله عليهم الرزق وبسط لهم الأمن والأمان، وإذا تركوا ذلك؛ فسيجدون ما يجده الناس اليوم من الظلم والطغيان، كثمرة خبيثة من ثمار الاستبداد والظلم، كحال كثير من بلاد المسلمين اليوم.

تفسير المقطع الثالث عشر من سورة الكهف

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾﴾، **هذه هي الرحلة الثالثة**، وكانت باتجاه الشمال حيث انطلق من الشرق باتجاه شمال الأرض.

وقوله تعالى: (ثم أتبع سببًا)، **أي:** أخذ بما أعطيناه من وسائل وطرق يتوصل بها إلى مطلوبه؛ ليفتح الأرض ويحكمها، فانطلق هذه المرة باتجاه الشمال؛ حتى بلغ بين السدين، **واختلف المفسرون في تفسير السدين**[1]، **هل هما سدان** حقيقيان من فعل البشر لتجميع الماء، **أم هما جبلان** عظيمان سدا الأفق، **والراجح** أنهما جبلان عظيمان خلقهما الله في تلك الجهة، وكان بين

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 103)، وتفسير الثعلبي: (6/ 193).

هذين الجبلين وادٍ على شكل ممر إلى جهة أخرى، وكان هذا الممر هو الطريق الذي يخرج منه قوم يأجوج ومأجوج، فيغيرون على من أمامهم من أهل الأرض؛ فيؤذونهم ويفسدون عليهم حياتهم.

ولما وصل ذو القرنين إلى هذين الجبلين العظيمين في جهة الشمال: (وجد من دونهما قومًا)، **أي**: وجد قرب السدين مجموعة من البشر، ووصفهم، ب**قوله**: (لا يكادون يفقهون قولاً)، **أي**: أن لغتهم تختلف عن لغة ذي القرنين ومن معه، أو أنهم لا يفهمون الخطاب بسهولة، وذلك لبلادتهم وبعدهم عن العلم والمعرفة، ونحوها[1].!!

والله تعالى قد أعطى ذا القرنين وسائل وأسباب التمكين في الأرض، قد يكون من ذلك أنه يفهم كلامهم، أو أنه قد يكون اتخذ مترجمًا له، أو أنه حاول أن يفهمهم.

وفي كل مكان يصل إليه ذو القرنين يفتح ذلك المكان، ويخضع له أهله، وهذا من التمكين الذي أعطاه الله له، فلما تمكّن منهم؛ شكو إليه مشكلة تواجههم، ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾، فقالوا له: عندنا مشكلات مع قبيلتين، هما: قبيلة يأجوج، وقبيلة مأجوج، وهما من أولاد آدم على الصحيح[2]، **وقيل**[3]: هم من

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 103)، وتفسير الثعلبي: (6/ 193).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 175).

(3) ينظر: تفسير السمرقندي، بحر العلوم: (2/ 362).

أولاد نوح، ونوح من ذرية آدم، ثم اختلفوا في تعيين من هم يأجوج ومأجوج؟! **فقال بعضهم**: هم الترك، **وقال بعضهم**: هم من الجيل والديلم، **وقال بعضهم**: هم التتار، **وقيل**: غير ذلك من الأقوال[1].

ومهما يكن جنسهم، فهم قوم صفتهم الفساد في الأرض؛ وإفسادهم عام يشمل إفسادهم الحرث والنسل، وقتل النفس، وأكل الحرام، ونحوها.

والخلاصة: أن أهل تلك المنطقة كانوا متأذين جداً من يأجوج ومأجوج، الذين كانوا يغيرون عليهم بين الحين والآخر من ذلك الممر الذي بين الجبلين العظيمين، فطلبوا من ذي القرنين أن يعمل لهم حلاً، واقترحوا الحل، بأن يعمل بينهم وبينهم سداً، فقالوا: (فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً)، يعني اجعل بيننا وبينهم سداً بحيث لا يأتون إلينا، ولا نذهب إليهم، ونكتفي شرهم، وعرضوا عليه أن يجمعوا له مبلغًا من المال يدفعوه له، قالوا: (فهل نجعل لك خرْجًا)، **والخرْج هو**: المال المتبرع به، **وفي قراءة**: (خراجًا)[2]، **والخراج، هو**: المال المأخوذ بمقابل، **ورجح ابن جرير الثانية**[3]، لأن القوم إنما عرضوا على ذي القرنين أن يعطوه من أموالهم ما يستعين به على

---

(1) ينظر: تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (6/ 193)، وتفسير البغوي: (5/ 202)، وتفسير الزمخشري: (2/ 746).

(2) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 112)، وتفسير الثعلبي الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (6/ 199).

(3) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 112).

بناء السد، وعلى القراءة الأولى يكون المال الذي تبرعوا به ليس أجرة لذي القرنين، وإنما هو مال يستعين به على بناء السد، وهي أرجح عندي، وهي نفس العلة التي بها رجح ابن جرير القراءة الثانية، **وقد سبق معنا** أنه حاكم عادل وله دستور واضح، ومن واجبات الحاكم العادل أن يقوم بحقوق الرعية بدون مقابل أو جبايات أو إتاوات منهم، ولذا كان الجواب لا هذا ولا هذا، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٥﴾، **أي**: لا أريد منكم خرْجًا ولا خراجًا، فما أعطاني الله من خيرٍ كثير؛ يغنيني عن أن آخذ منكم ذلك التبرع أو تلك الأجرة على عملي.

وهذا حال الأنبياء الملوك وحال الملوك الصالحين، كما حكى الله عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قدّمت له ملكة سبأ هدية، فقال: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[النمل: 36].

ولما اعتذر لهم عن أخذ الجعل منهم؛ أراد أن يشركهم في تنفيذ المهمة، فقال: (فأعينوني بقوة)، ويمكن تفسير القوة هنا بأمرين: الرجال، والآلات، **والمعنى**: لا أريد منكم مالاً، وإنما أريد منكم رجالاً لديهم القوة في الجسد ومهارة في البناء، يعملون معي في المشروع، وفق ما آمرهم به، ومدّوني أيضًا بالآلات اللازمة للبناء، من أجل أن: (أجعل بينكم وبينهم ردمًا)، وهل السد؛ هو الردم، أم بينهما فرق؟ من حيث الفكرة كلاهما يؤدي نفس الغرض، إلا أن الردم أقوى من حيث المتانة وطريقة بنائه، ولذا عدل عن السد إلى الردم، وكأنه يقول: سأفعل بينكم وبينهم حاجزاً أعظم من السد الذي طلبتم.!!

ثم شرع في بيان خطة البناء للردم، فقال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾، **أي**: اجمعوا لي قطع الحديد الضخمة الصلبة، فلما جمعوها له؛ أمرهم بحفر الأساس المناسب، ثم أمرهم ببناء قطع الحديد الضخمة فوق بعضها، (حتى إذا ساوى بين الصدفين)، **أي**: حتى إذا تساوى البناء مع قمة الجبلين من طرفي البناء، (قال انفخوا)، طلب منهم أن يشعلوا ناراً وينفخوا فيها بالمنافيخ؛ حتى يزداد لهيبها، فينصهر الحديد، ويصبح كتلة ملتهبة بالنار، **قال بعض العلماء**[1]: أن هذا العمل جعل الله فيه لذي القرنين شيئاً من الإعجاز باعتباره نبيّاً، وإلا فالمنافخ اليدوية العادية لا تصل قدرتها إلى أن تحوّل قطع الحديد الضخمة إلى كتلة واحدة ملتهبة بالنار، فإننا نشاهد اليوم في المصانع المعدة لذلك كم تستخدم من تقنيات ومن أجهزة وآلات بعيدة عن البشر لخطورتها، لتنفيذ هذا الغرض، قلت: وما المانع أن الله تعالى قد هيّأ ذلك ويسّره لذي القرنين وتكون من تلك الأسباب التي منحها الله له، كما **قال تعالى**: (وآتيناه من كل شيء سبباً)، **وقوله**: (حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً)، **أي**: حتى إذا صار الحديد مشتعلاً كالنار قال: أعطوني نحاساً مذاباً حتى أفرغه عليه، **والقطر**: هو النحاس، كما في قصة سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾[سبأ:12]، **أي**: عين النحاس، وبعد أن نفخوا، وصارت قطع الحديد كتلة ملتهبة من النار، طلب منهم أن يصهروا النحاس حتى يذوب، ثم يصب على فراغات قطع الحديد المبني، فصار صب

(1) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 500)، وتفسير روح البيان: (8/ 136).

النحاس على الحديد كالإسمنت المخلوط الذي يوضع بين الحجارة المبنية فيسد الفراغ الموجود ويقوي البناء ويجعله مترابطـًا.

وخلْط الحديد بالنحاس حتى يصير طبقة واحدة بعد برودته، يستفاد منه أمران: الأول: القوة والمتانة، والثاني: الملاسة، وهذا سبق علمي للعلوم الحديثة، فقد اكتشفوا أخيراً أهمية خلْط الحديد بالنحاس وأثره في تشكيل مادة أكثر صلابة ومتانة!! فمن الذي أعطى ذا القرنين هذه الوصفة آنذاك؟!!، إنه توفيق من الله له.

فلما انتهى من بناية هذا السد بين الجبلين خلّص أهل تلك القرية من شرور يأجوج ومأجوج، الذين حاولوا التخلص من هذا السد أو صعوده.

وقوله: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾، **أي**: فما استطاع جماعة يأجوج ومأجوج أن يصعدوا على ظهره؛ لملاسته وارتفاعه، فهو أملس مرتفع يساوي الجبل، (وما استطاعوا له نقبـًا)، وما قدروا على أن يحدثوا فيه فتحة أو نافذة حتى يخرجوا منها.

وقد جاء في الحديث[1]: أن النبي ﷺ قال: **"إن يأجوج ومأجوج كل يوم يحاولون أن ينقبوا السد حتى يكادوا أن يروا الشمس** - أي أنه مغلق عليهم - **فيقول لهم الذي عليهم: ارجعوا وتعودون غداً، ولا يقول: إن شاء الله، فيرجعون إلى أهليهم، ثم يرجعون في الغد فيجدونه قد عاد كما كان، فيمكثون على هذا**

(1) رواه مسلم: (4/ 2250) برقم: (2937) بألفاظ مقاربه لهذه الألفاظ.

أزمانــًا، حتـى إذا أذن الله بخـروجهم يـأتون ينقبونـه فيقـول لهـم الـذي علـيهم: ارجعـوا اليـوم، وعـودوا غـداً، إن شـاء الله، فيعـودون غـداً، فيجدونـه كمـا تركـوه بالأمس، فينقبونه ويخرجون".

ويأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى، حيث يخرجون قبل قيام الساعة، فيعيثون في الأرض فساداً، **وقد ذُكر في الحديث: "أنهم يـأتون على بحيرة طبرية، فيشربون ماءها كله!!، فيأتي آخرهم فيقول: كان هاهنا ماء؛ ويهرب الناس منهم إلى الجبال من كثرتهم وضخامة أجسادهم، فيطوفون الأرض، فلا يجدون أحداً أمامهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فتعود إليهم وعليها آثار دم!!، فيفتنون بذلك، ويقولون: قتلْنا أهل الأرض وأهل السماء!!، حتى إذا كانوا كذلك أرسل الله إليهم دوداً فيموتون بسببها"**.

وفي هذا الحال يكون عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع المؤمنين في الجبال، فيدعون الله تعالى أن يرفع عنهم جيفهم، فتأتي نسور ضخمة جداً كالبخت فتأخذ أجسادهم وترميها بعيداً، ويخلّص الله تعالى الناس من جيفهم ومن شرهم.

وبناءً على هذا؛ فإن من يقول: إن يأجوج ومأجوج من الترك أو التتار أو الصينيين أو غيرهم، فقوله هذا يتعارض مع النصوص التي تقول إنهم من علامات الساعة، وقد ظهر الترك والصينيون والتتار والمغول، ولم يفعلوا فعل يأجوج ومأجوج، ولم تقم الساعة بعد.!!

وهنا يبقى سؤال؛ يقولون: إن الأرض قد كُشفت تماماً ولم يبق شيء إلا وقد

كُشف؛ فأين هذا السد؟ ولماذا لم يكتشف حتى الآن، ولم تطّلع عليه الأقمار الصناعية؟!

والجواب: إما أنه مخفي لم يظهر حتى الآن، خاصة إذا قلنا إنهم لا يرون الشمس، كما في بعض الروايات، أو أنهم قوم خلقهم الله بطبيعة معينة، وسيظهر أمرهم قبل قيام الساعة، أو أن أمرهم من الغيب الذي يصعب على الإنسان أن يدخل في تفاصيله بعقله، فيلزمه أن يؤمن بما جاء في الكتاب والسنة من وصفهم، **وقد جاء في الحديث الصحيح**: **"أن الله تعالى يقول لآدم يوم القيامة: يا آدم أخرجْ بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحد في الجنة"**، فخاف الناس. فقال النبي ﷺ: **"ما أنتم في الأمم السابقة إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود"**[(1)]، **أي**: واحد من المؤمنين من أمة محمد، وتسعمائة وتسعة وتسعون من غيرهم.

ولما انتهى ذو القرنين من عمله؛ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾، فنسب ما قام به إلى توفيق الله له ورحمته بخلقه، وقد استدل بعضهم بهذه الآية على أنه نبي، وفسّروا الرحمة بالنبوة، **ومن قال**: إنه عبد صالح أو ملك صالح؛ فسّر الرحمة بالنعمة التي أنعم الله بها عليه من العدل وإصلاح حال الرعية ونحوه[(2)].

---

(1) رواه البخاري: (4/ 138) برقم: (3348)، ومسلم: (1/ 201) برقم: (222).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 118)، وتفسير الزمخشري: (2/ 748)، وتفسير الرازي: (21/ 500).

ثم قال: (فإذا جاء وعد ربي)، **أي:** قرب قيام الساعة؛ فيتطابق النص القرآني مع الحديث، وهو: أنهم يأجوج ومأجوج يخرجون قبل قيام الساعة.

وقوله: (جعله دكاء وكان وعد ربي حقـًا)، **أي:** ينهدم، فإن البناء إذا بنيته ثم هدمته فهو بمعنى الدكّ، **والدكُّ:** تسويته بالأرض كما كان، ووعد الله آتٍ لا محالة، فهو حق، ووعد الله لا يتخلف.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن ذا القرنين كان قائداً محنّكـًا ناجحـًا، والقيادة الناجحة هي قوة التأثير بمن هم حولك، أو هي: كيف تستفيد من الآخرين وتؤثر فيهم؟!! ومن صفات المدير أو القائد الناجح أنه يؤثر في العاملين، فيعملون بنجاح، من خلال إتقانه لأسلوب التوجيه.

2 - كلما كنت صاحب قرار حكيم وتوجيه سليم وأسلوب إدارة مناسب وتأثير على الآخرين؛ كلما كانت مشاريعك ناجحة، وكلما كنت غير قادر على إدارة الآخرين ولا توجيههم ولا إدارتهم كلما كانت مشاريعك فاشلة، فذو القرنين لم يعمل كثيراً، لكنه أحسن التوجيه، وأحسن الإدارة، وأحسن إيصال الفكرة للآخرين وجعل العمل ينجح.

3 - تواضع ذي القرنين وعدله وعدم أخذه لأموال رعيته مقابل أن يعمل لهم السد.

4- رد الأمر إلى الله تعالى، فذو القرنين قال: (هذا رحمة من ربي)، نسب الأمر إلى الله، فهو المعطي، وهو الذي يسّر له هذا العمل، وهذا ديدن الصالحين، أما غيرهم فإذا فعلوا شيئًا نسبوه لأنفسهم، قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما رأى عرش بلقيس: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾[النمل:40]، أما قارون فلما رأى خزائنه وكنوزه قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[القصص:78]، فشتان بين الفريقين.!! فالإنسان المؤمن الصالح ينسب النعمة إلى الله، ويعلم أن ما وصل إليه من النعم، إنما هي من الله تعالى وبفضله، أما الإنسان الذي لا يؤمن بالله؛ فعنده أشر وبطر، ويدعي أنه فعل ذلك بقدرته وذكائه ونحو ذلك.

تفسير المقطع الرابع عشر من سورة الكهف

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ
يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا
﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾
قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا
﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾
ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ
لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ
رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾، **الضمير للمفسرين فيه قولان، الأول**(1): أنه يعود على يأجوج ومأجوج، **ومعناه:** أنهم إذا خرجوا بعد أن يُهدم ذلك السد؛ خرجوا يموجون في الأرض، **أي:** يموج بعضهم في بعض من شدة ازدحامهم، وكثرتهم واضطرابهم، وعدم معرفتهم بالطريق الذي يسيرون فيه.

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 500)، والبحر المحيط في التفسير: (6/ 156).

والقول الثاني[1]: أنه يعود على البشر جميعًا، وذلك علامة من علامات قرب الساعة، فحينما تبدأ الجبال تنهد والسماء تنشق، يضطرب الناس ويموج بعضهم في بعض.

وكلا القولين وجيه باعتبار ما سبق، لكن السياق يدل على أن الراجح هو القول الثاني، وهو الموج الذي يحدث للخلائق جميعًا، قبل يوم القيامة بدليل قوله: (ونفخ في الصور)، إلا إذا قلنا: إن يأجوج ومأجوج من آخر علامات الساعة، فيصح حمل المعنى على القولين معًا، حيث يموج يأجوج ومأجوج مع بعضهم، ثم تقوم الساعة بعدهم فيموج الخلق كلهم.

وعبّر هنا بالموج، والموج من صفته أنه غير منضبط يرتفع أحيانًا، وينزل أحيانًا، ويأتي أحيانًا كبيراً وأحيانًا صغيراً، بحسب نوع وشدة الرياح، ومن يعرف طبيعة موج البحر، **يتبيّن له معنى قوله**: (بعضهم يومئذ يموج في بعض)، لأن من صفات الموج: أن بعضه يذهب، وبعضه يرجع، فيصير فيه تداخل واضطراب، وهكذا سيكون حال البشرية في الحشر، كما في **قوله**: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾[القارعة:4]، **أي**: الذي يطير ويصطدم بعضه ببعض.

ثم قال تعالى: (ونُفخ في الصور فجمعناهم جمعًا)، **الصور هو**: البوق، وقد التقمه إسرافيل، وحنى رأسه ينتظر الأمر بالنفخ، كما في الحديث[2]، **وإسرافيل**

---

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 120)، وتفسير ابن أبي حاتم: (7/ 2391)، وتفسير ابن كثير: (5/ 178).

(2) أخرجه الترمذي: (4/ 620) برقم: (2431)، والنسائي في السنن الكبرى: (10/ 54) برقم: (11016).

له نفختان، الأولى: تموت فيها جميع الخلائق، **والثانية:** تحشر فيها جميع الخلائق، وهذه هي النفخة الثانية، لأن الجمع بعد الحشر، إذ يقوم الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية، ثم يحشرون ويجمعون إلى أرض المحشر.

وقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾، **أي:** إذا جُمع الناس في ساحة المحشر، أظهر الله لهم جهنم وسعتها وحرها وشدة عذابها وما فيها مما يخوّف القلوب ويجعل من ينظر إليها يشعر بالهلاك قبل دخولها، **وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "يُؤتي بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها"**[1]، فكم مجموع الملائكة التي تجر جهنم؟ أربعة مليار وتسعمائة مليون، ولا تظن أن الملك شخص عادي، فبعض الملائكة حجمه ما بين السماء والأرض، وخزنة جهنم معروفون بكبر أجسامهم وغلظ أخلاقهم، **كما قال:** ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[التحريم:6]، فدل ذلك على عظمة النار وكبرها وسعتها.

ولذلك من عقيدة المؤمن أن يشهد أن الجنة حق، وأن النار حق، وأن البعث حق، وأن الساعة حق، وأن محمداً ﷺ حق.

ثم قال تعالى في وصف هؤلاء الكفار: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾، **أي:** كانت أعين قلوبهم، فالإنسان له بصر في وجهه يرى به الأشياء، وله بصيرة في قلبه يرى بها الحق، **كما قال:** ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[الحج:46]، فمن لم يرَ الحق في

---

(1) أخرجه مسلم: (4/ 2184) برقم: (2842).

الدنيا، فقد عُميت بصيرته، حتى لو كان بصره سليمـًا، ولكنه أعمى البصيرة، فما أبصر الحق ولا عرف طريقه.

فهؤلاء الكفار كانت على قلوبهم الأغطية؛ فلم يروا الحق رؤية اتّباع، وإن رأوه بأبصارهم، فحيل بين قلوبهم وبين وصول الحق إليها!!، وهذا الحجاب الذي وضع على أعينهم، هو في الحقيقة حجاب وضع على قلوبهم فلا يستطيعون رؤية الحق.

وقوله: (عن ذكري)، **أي:** عما يذكّرهم بي، **وقيل:** عن الإيمان بي، **وقيل:** عن الإسلام، وهي معانٍ متقاربة، فكل ما يوصلك إلى الله ويهديك إليه فهو من ذكر الله.

ثم قال: (وكانوا لا يستطيعون سمعـًا)، السماع نوعان: سماع حسي؛ بأن تسمع الصوت، وسماع معنوي؛ بأن تفهمه، فبعض الناس يسمع ولكنه لا يفهم، ويبصر ولكنه لا يرى الحق، **كما قال:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[الكهف:57]، **والمعنى:** منعوا من أن يصل الحق إلى آذانهم بسبب الغطاء، ومنعوا أن يصل الحق إلى قلوبهم بسبب الصمم، وليس معناه أنهم لا يسمعون الأصوات؛ فهم يسمعونها، لكنهم لا يسمعون سماع تدبر، ولذا قال: (وكانوا لا يستطيعون سمعـًا)، وهو تعبير بليغ، لأنه لو وصفهم بالصمم؛ فربما لو صرخت في أذنه لسمع،!!، ولكن هذا لا يستطيع السماع لا كثيراً ولا قليلاً، فدل ذلك على أن قلوبهم مقفلة، وأن آذانهم صماء، وأعينهم عمياء عن الحق،

فلم يصل الحق إليهم بسبب إعراضهم، **كما قال في آية أخرى:** ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[الأنعام:110]، فمن أعرض عن الحق، عاقبه الله بالحرمان من الهداية.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾، حسب، هنا بمعنى: ظن، فالكافر لمّا يتخذ عبداً من عبيد الله، ويجعله إلهـًا له، يعبده ويتقرب إليه، مثل حال النصارى الذين جعلوا المسيح إلهـًا، أو اليهود الذين جعلوا عزيزاً إلهـًا، أو بعض العرب الذين جعلوا الملائكة آلهة، فهؤلاء في الأصل كلهم عبيد لله، خلقهم لعبادته سبحانه، **فهل يظنون أنهم سينصرونهم من دون الله؟! الجواب:** لا؛ لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعـًا ولا ضراً.!!

فإن كان الاستفهام في قوله: (أفحسب)، إنكاريـًا؛ فواضح، وإن كان استفهامـًا حقيقيـًا؛ فأين جوابه؟ **الجواب** محذوف، وتقديره يفهم من سياق الآية، وهو: أيظنون أني لا أغضب عليهم، أو: أيظنون أني لا أعذبهم على هذا الاختيار الباطل، أو: أيظنون أني أسكت عن معاقبتهم.!!

ثم بيّن مكان تنفيذ العقوبة لهم، فقال: (إنّا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً)، **والمعنى:** أن الله قد أعدّ لمن أشرك به ناراً يعذبه فيها، **وانظر التعبير بقوله:** (نزلاً)، وهو ما يقدّم للضيف عندما ينزل، وهذا أسلوب تهكّم وسخرية!! **والمعنى:** أيها الكافر الذي اتخذت من دون الله أولياء؛ قد أعددنا لك طعامـًا

نضيّفك به في النار، وهو العذاب الأليم! **مثل قوله:** ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[الدخان:49]، **أو يكون نزلاً:** بمعنى منزلاً، فمنزل ومأوى الكافر سيكون في جهنم، ولا أشد مستقراً ولا عذابًا من جهنم التي أعدها الله لهؤلاء الكفار.

ثم انتقل الحديث إلى قوم يعملون أعمالاً صالحة في نظرهم، ولكنها ليست صالحة عند الله تعالى، بسبب عدم موافقتها لشرع الله، أو أنهم يعملون عملاً صالحًا، لكن لا يريدون به وجه الله، أو يعملون أعمالاً صالحة في الظاهر وهم كفار بالباطن كحال المنافقين، **فقال تعالى:** ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾، قل لهم: يا محمد، هل أخبركم وأُعلمكم بأكثر الناس خسارة لأعمالهم في الآخرة، **قيل**[1]: إن المقصود بهم قساوسة النصارى وضُلّالهم، فقد اشتهر عن النصارى التعبّد بغير علم، حيث يتنسّكون ويتبتلون وتضيع أعمارهم في عبادة على جهل، **ولذا قال تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾﴾، **ضل سعيهم:** أي ضاع عملهم، (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا)، وهم يظنون أن عملهم صالح مقبول عند الله، ويلحق بهذا كثير من المبتدعة الذين يعبدون الله على جهل بعباداتٍ لم يشرعها الله ولا رسوله ﷺ، مثل بعض المتصوفة المنحرفين، وكذلك بعض الشيعة الرافضة، وغيرهم من الذين زين لهم الشيطان الشرك والبدع والخرافات، فتعبدوا لله بها.!!

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 126)، والتفسير الوسيط: (6/ 933).

ثم حكم على فعلهم هذا بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾، فالكفر ذنب عظيم، وكل من أنكر البعث والنشور، فهو كافر، وكل من عمل عملاً صالحًا وهو كافر لم يُقبل منه، فقد كان في قريش أناس يعملون الخير وهم كفار، **ومنهم:** عبد الله بن جدعان، الذي كان من الكرماء الأجواد، وكانت له مائدة يأكل منها الراكب وهو على بعيره من كبر حجمها وكثرة طعامها[1]، **وقد سألت عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، رسول الله ﷺ، عنه، فقالت: إن عبد الله بن جدعان كان يقري الضيف، ويصل الرحم، ويفعل، ويفعل، أينفعه ذلك؟ قال: **"لا ، إنه لم يقل يومًا قط: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"**[2]، نعم! لقد ذهب عمله في الآخرة بسبب كفره، وحصل على أجرٍ دنيوي، وهو السمعة، فقيل عنه: أنه كريم وجواد وفاعل خير ونحوها، ومثله اليوم ما يقوم به بعض الكفار من عمل الخير، **مثل:** كفالة الأيتام والمساكين والأرامل، فقد يجد الواحد منهم راحة نفسية وانشراح صدر، أو يذكرهم الناس بخيرٍ، فهذا هو أجرهم الدنيوي، **أما حالهم في الآخرة:** (فحبطت أعمالهم)، **أي:** بطلت، والتعبير بحبطت؛ له مدلوله، فالحَبَط في اللغة[3]: مرض يصيب البهائم إذا أكلت نباتات سامة، حيث تنتفخ بطونها فيظنها الراعي قد شبعت، وما هي إلا دقائق وتموت، **فالحبط إذاً:** هو انتفاخ بطن البهيمة من أكل الأشجار السامة،

---

(1) ينظر: البداية والنهاية، ط الفكر: (2/ 229).

(2) أخرجه أحمد: (41/ 381) برقم: (25531)، والحاكم في المستدرك: (2/ 477) برقم: (3581)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 1118).

وهكذا حال الإنسان الكافر الذي يظن أن أعماله صالحة وكثيرة، ولكنها بسبب كفره تكون سبباً في هلاكه، كما كانت تلك الأشجار التي أعجبت تلك البهيمة سبباً في هلاكها وموتها، فهو تعبير بليغ يبيّن حال من يعمل خيراً بدون إيمان، وأن عمله الذي ظن أنه صالحًا، ثم عندما يلقاه لا يجده شيئًا!! **كما قال تعالى:** ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان:23].

وقوله: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا)، **فيها تفسيران، الأول**[1]: أن ميزانهم فارغ من الحسنات ولا وزن فيه، وهذا واقعهم، فحسناتهم لا قيمة لها؛ لأنها بدون إيمان ولا إخلاص، **والثاني: أي:** ليس لهم قدر ولا مكانة عندنا[2]، فقدْر الناس عند الله يوم الحشر يكون بحسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة، فأولهم الأنبياء، **كما قال تعالى:** ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب:69]، **أي:** له عند الله وجاهة وقدر ومكانة، ثم صالح المؤمنين، كحال السبعة الأصناف يوم القيامة الذين يكونون في ظل العرش، أما الكافر فليس له قدر ولا مكانة، بل يسحب سحبًا ويرمى في النار، والعياذ بالله، ويمكن الجمع بين المعنيين، فلا قيمة ولا مكانة للكافر عند الله ولا وزن له في الميزان، لأن أعماله كلها غير صالحة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾، (ذلك)، يعود إلى ما سبق من حبوط أعمالهم، وأنه لا قيمة لهم ولا وزن عند الله، وهذا هو

(1) ينظر: تفسير الطبري جامع البيان: (18/ 129).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 210)، وتفسير الزمخشري: (2/ 749)، وتفسير الرازي مفاتيح الغيب: (21/ 502).

الجزاء المعنوي لكفرهم، أما جزاؤهم الحسي؛ فهو عذابهم في جهنم بسبب كفرهم، وهذا هو السبب الأول، والسبب الثاني في **قوله:** (واتخذوا آياتي ورسلي هزواً)، فلم يكتفوا بكفرهم بالله، بل قرنوه بالاستهزاء بالآيات القرآنية، وبالرسل عليهم الصلاة والسلام، وبعباد الله المؤمنين.

وهذا يشير إلى أن بعض الكفار قد يجمعون بين عدم الإيمان، وقلة الأدب وسوء أخلاقهم مع المؤمنين، وأن بعض الكفار يتصفون بالأدب في تعاملهم مع المسلمين، رغم كفرهم، وينظرون إلى المسلمين نظرة احترام.!!

ولما انتهى الحديث من القسم الأول، وهم الكفار وذكر عقوبتهم في الآخرة، أتبعه بذكر حال المؤمنين في الآخرة؛ حتى يتضح الفرق بين جزاء من آمن، وجزاء من كفر، **فقال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾، **فذكر من صفاتهم:** الإيمان والعمل الصالح، وهما ضروريان لاستكمال شروط الإيمان، فلا فائدة من عمل صالح بدون إيمان، ولا ينفع إيمان بدون عمل صالح!!

وقوله: (كانت لهم جنات الفردوس نزلاً)، وعبّر بالفعل الماضي؛ لأنها معدة وجاهزة لهم، كما في **قوله:** ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:133]، **والفردوس في اللغة**(1): البستان، **قيل:** هو لفظ عربي واستعملته العرب، وجنات الفردوس: وصف للجنة فهي كلها فراديس: أي بساتين، أو نقول: أن الفردوس درجة

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 959).

خاصة بالمقربين والسابقين، وهي أعلى درجات الجنة، **وقد جاء في الحديث:** **"إذا سألتم الله فسلوه الفردوس الأعلى، فإنه أعلى الجنة ومنه تفجّر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن"**[1]، **وقوله:** (نزلاً) النزل -كما تقدم بيانه - إما الضيافة التي تُقدّم للضيف، أو المنزل، **وقد جاء في الحديث:** **"أول طعام يأكله أهل الجنة كبد الحوت"**[2]، فهذه ضيافتهم، والجنة منزلهم.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾، هذا وصف لحال المؤمنين في الجنة وأنهم مستقرون فيها، ولا يرغبون بالتحول عنها إلى مكان آخر، ذلك أن طبيعة النفس البشرية في الدنيا تختلف عن طبيعة النفس البشرية في الآخرة، ففي الدنيا تطبّعت على حب التنقل والتحول، ويمل ويسأم من استمراره على شيء واحد، فلو شربت عسلاً باستمرار لسأمته وطلبت غيره، كما حصل من بني إسرائيل؛ فقد كان طعامهم المن والسلوى، فسأموه وطلبوا غيره!!، فالإنسان في الدنيا طبع على حب التغيير، فلا يعجبه البقاء على حال واحد، سواء في المأكل أو الملبس أو المسكن، فنفسه تتوق للتبديل والتحويل.

أما في الآخرة؛ فتتغير تلك الطباع، وترضى النفس بما أعطيت في الجنة، فلا تتوق إلى تغييره ولا ترغب بالتحول عنه، فمن دخل الجنة يرغب في الخلود فيها، ولا يسأم العيش فيها، وكلما نظر إلى ربه ازدد له شوقًا، وكلما جلس مع الحور العين، كلما ازداد لهن شوقًا، فليس فيها سأم ولا تحوّل، **فالإنسان كلما**

---

(1) أخرجه البخاري: (4/ 16) برقم: (2790).

(2) أخرجه البخاري: (4/ 132) برقم: (3329).

كان في نعم الدنيا، تأتيه مشكلتان تنغصان حياتـه، الأولـى: الخـوف مـن المـوت، **والثانية:** الخوف من زوال النعمة، فأمّنه الله تعالى في الآخرة بأن جعله خالداً لا يموت، وكذلك أخبره بأن النعمة التي أعطاه خالدة لا تزول ولا تتحول عنه.

ثم ختم الله سورة الكهف بآية عظيمة تقرّب للخلق علـم الله تعـالى وصـفاته، وإلا فـصفاته تعـالى لا يمكـن قياسـها بغيرهـا، فيبـيّن للخلـق أن علمـه وصـفاته وكلماته لا تنتهي، ولا يُقدّر سعتها ولا عظمتها ولا عددها أحد مـن الخلـق، مـن خلال ضربه المثال، **فقال:** ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ١٠٩﴾، قل لهم يا محمد: لو كان البحر، **أي:** جنس البحـر، ومعروف أن نسبة الماء: 71 ٪، ونسبة اليابسة: 29 ٪، والمداد هو: الحبر الـذي يستخدم للكتابة، والمقصود: أن هذه النسبة من المـاء الموجـودة في الأرض، لـو قُدّر أنها تحولت إلى مدادٍ، وكُتـب بهـذا المِـداد كلمـات الله؛ لانتهـى مـاء البحـار كلها، وما انتهت كلمات الله، **وهذا كقولـه تعـالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[لقمان:27]، **أي:** لو تحوّلت أشجار الأرض كلها أقلامـًا، وتحولت مياه البحار كلها مِداداً، فكُتب بها كلمات الله، لانتهت المياه والأقـلام، ولـم تنتـه كلمـات الله، فـدل ذلـك علـى سعة كلمات الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، ولو جئنا بمثل البحـر الموجـود، (مَـدداً)، **أي:** زيـادة ومعونـة، وأطلـق هنـا لفـظ: (مَـدداً)؛ لأن معنـاه هنـا الـدعم المطلـق بـدون تحديد لعدد البحور التي ستمد البحر المنتهي مـاؤه، فكلمـا انتهـى البحـر خلفه

ببحر آخر، فدل ذلك على سعة علم الله تعالى وكلامه.

ثم قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾، قل يا محمد لجميع البشر ووضّح لهم ما هي ماهيتك؟ وما الفرق بينك وبينهم؟ حتى لا يغلوا فيك ولا يرفعوك فوق مكانتك، قل لهم: أنا محمد بن عبد الله، بشرٌ مثلكم، ولدتُ كما يولد البشر، وخُلقتُ مثل خلق البشر من لحم وعظم، يأكل ويشرب، ويتزوج وله ذرية، وينام ويقوم، كحال البشر، والفرق بينه وبين غيره من البشر في خصلة واحدة؛ في **قوله:** (يوحى إليّ)، وهذا الوحي الذي أعطاه الله له هي صفة الرسالة والنبوة، وهي التي أعطته قيمة عند الله وقيمة عند خلقه، **وأمرنا بطاعته لأنه رسول:** ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[التغابن:12]، لا لأنه إلهٌ، بل لأنه رسول من الله، كرّمه الله بالرسالة.

ثم بيّن ما الذي أوحاه الله إليه؛ (إنما إلهكم إلهٌ واحد)، فأوحى إليه أن الألوهية خاصة بالله تعالى، وأنه لا إله إلا الله، وأن ما يتخذه الناس من آلهة من دونه؛ إنما هي آلهة باطلة، وهو الله تعالى الإله الواحد الفرد الصمد الذي لا شريك له سبحانه.

ثم قال تعالى: (فمن كان يرجوا لقاء ربه)، فالذي يرجو ويرغب أن يلاقي الله ملاقاة محب؛ فيكرمه الله ويدخله الجنة، فعليه بأمرين مهمين، **وهما شرطان** لقبول أي عمل؛ **الشرط الأول:** (فليعمل عملاً صالحًا)، والعمل الصالح، هو: الذي شرعه الله، وجاء به رسول الله ﷺ، **بمعنى:** لا تعبد الله إلا بما شرعه الله في

كتابه، أو بيّنه رسول الله ﷺ في سنّته.

والشرط الثاني: (ولا يُشرك بعبادة ربه أحداً)، وهذا معناه تحقيق الإخلاص في كل عمل صالح، فيمكن أن تصلي صلاة صحيحة وفق الشرع، لكنك تُرائي بها الناس، فتحقق شرطٌ، وانخرم شرطٌ، ويمكن أن تكون مخلصاً لله في قصدك وإرادتك، لكنك عملت عبادة على غير وفق الشرع الذي جاء به محمد ﷺ، فإذا أردت أن يقبل الله طاعتك ويؤجرك عليها ويدخلك الجنة، ويكون عملك صالحاً مقبولاً عند الله؛ فعليك بالإخلاص واترك الرياء والشرك بالله تعالى، وعليك أن تعمل العبادة وفق شريعة محمدٍ ﷺ.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن من أعرض عن سماع الحق، عاقبه الله بالحرمان من الهداية.

2- بيان عاقبة من يعبد الله بجهل في الدنيا، وخطورة البدع والخرافات على أصحابها.

3- أن بعض الكفار قد يجمعون بين عدم الإيمان وقلة الأدب وسوء أخلاقهم مع المؤمنين، وأن بعض الكفار يتصفون بالأدب في تعاملهم مع المسلمين، رغم كفرهم، وينظرون إلى المسلمين نظرة احترام.!!

4- أن طبيعة النفس البشرية في الدنيا تختلف عن طبيعة النفس البشرية في الآخرة، ففي الدنيا تطبّعت على حب التنقل والتحول، أما في الآخرة؛ فتتغير تلك الطباع، وترضى النفس بما أعطيت في الجنة، فلا تتوق إلى تغييره ولا ترغب

بالتحول عنه.

5- بيان سعة كلمات الله سبحانه، وأنها لا تنتهي.

6- بيان بشرية محمد ﷺ واختصه الله بالرسالة.

7- بيان شرطي قبول الأعمال في الآخرة، وهما: الإخلاص لله وعدم الشرك به، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

تفسير سورة مريم

تفسير المقطع الأول من سورة مريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً
خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ
رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن
لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ
وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ
عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ
ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ
إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢
وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ
عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾.

شخصية السورة:

سورة مريم؛ سورةٌ مكية[1]، بل هي من السور التي نزلت مبكراً في مكة، وقد حملها معهم المهاجرون إلى الحبشة، وقراؤوها على النجاشي أثناء مناظرتهم مع وفد قريش[2]، **ومن مقاصد هذه السورة** أنها تتحدث حول إبطال عبادة غير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وتُبطل نسبة الولد والشريك لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وتُبيّن سعة رحمته جَلَّوَعَلَا بأمثلة متعددة.

وابتدأت السورة بقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾، وهي خمسة حروف من حروف الهجاء في لغة العرب، **وأن الحكمة من ابتداء بعض السور القرآنية بها** هو الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وأنه مكوّن من هذه الأحرف التي تتكوّن منها لغة العرب، ومع ذلك عجز العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، بدليل أن كل السور التي ابتدأت بالحروف ذكر فيها القرآن صراحةً بعد هذه الحروف إلا ثلاث سور فقط لم يُذكر فيها القرآن صراحة، وهي سورة مريم والروم والعنكبوت.

وقوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾، ثم ذكر صورة من صور رحمة الله تعالى بالخلق، وهي رحمته بعبده ونبيه زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وغالبًا الرحمة تأتي بالتاء المربوطة إلا هنا ومواضع أخرى، مما يدل على أن رسم المصحف توقيفي، وزكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وكان قد بلغ من الكِبر

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 211).

(2) ينظر القصة بطولها في: مسند أحمد: (3/ 263)، برقم: (1740)، وإسناده حسن.

عِتيًا، قيل: تسعين عامًا، ولم يُولد له ولد، وكانت زوجتُه غير صالحة للحَمل، فدعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرحمه ويرزقه بالولد.

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، حين دعا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه، وطلب منه وألح عليه وتضرع إليه بصوت خفي، والأصل في النداء أن يكون بصوت مرتفع، فلماذا وصفه بالخفي؟! **قيل**[1]: لأن زكريا كان قد كبر سنُّه، فمهما رفع صوته فسيكون ضعيفًا، فكان نداءً نظراً إلى قصده، وخفيًا نظراً إلى الواقع، **وقيل**[2]: بل دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعاءً بينه وبين نفسه سراً، ليكون أخلص، أو أنه استحى من قومه لكبر سنه، فأخفى الدعاء.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾، ثم بدأ بشرح حاله لربه، فقد ضعف جسمه وكبر سنه، والتعبير بضعف العظم كناية عن ضعف الجسد كله، فالهيكل العظمي هو الذي يحمل الجسد، فإذا ضعُف؛ فقد ضعف سائر الجسد، واشتعل شيبُ رأسي، وهو كناية عن انتشار الشعر الأبيض في رأسه، وهو لا يكون إلا في مرحلة متأخرة من الكهولة، فإذا بلغها الإنسان أصبح شعر رأسه كله أبيض، وشبّه سرعة انتشار الشيب في الرأس في هذه المرحلة من العمر بسرعة اشتعال النار في الهشيم اليابس، فوصف نفسه بالضعف وكبر السن، وهذا من التذلل والخضوع بين

(1) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 507).

(2) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 354).

يدي الله في الدعاء، ثم أخبر أن نعم الله وفضله بالدعاء عظيم، فما دعا ربه دعوة إلا واستجاب دعاءه، ولم يكن الدعاء يوماً ما سبب شقوتي، بل كان سبب سعادتي، وهذا من التلطف في الدعاء، أن يعترف العبد بالنعم السابقة التي وهبه الله إياها، وهو من أسباب شكرها وزيادتها، **كما قال:** ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم:7]، فهكذا كان حال الأنبياء مع ربهم، بخلاف حال بعض الناس اليوم، خاصة الذين يتسولون في المساجد، فإنهم يُنكرون نعم الله عليهم، فيقول أحدهم: ما عندي شيء، ولم آكل شيئاً ونحوها، قد يكون كاذباً فيما يقول، ولذلك لا يتعاطف الناس مع من هذا حاله، ولا يمُن الله عليه بنعمة جديدة؛ لأنه أنكر النعم القديمة التي أسداها الله إليه، بخلاف حال الأنبياء والصالحين، فإنهم يذكرون نعم الله عليهم أولاً، ويتوسلون إلى الله بها ليزيدهم الله من فضله.

ثم ذكر سبب طلبه للولد، فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾، فإنه خاف أن ينفرط الدين والمِلة بسبب عدم وجود شخص صالح من ذريته يقوم بتذكير الموالي بالله، وهم عصبتُه الباقون بعده من بني إسرائيل، وحثهم على الاستقامة على دينه، فبيّن أن السبب الباعث له على الدعاء دينيٌ وليس لغرض دنيوي، بل يريد أن يكون له ولدٌ صالحٌ يقوم بالدعوة والبلاغ بعده، ويرث علمه ودعوته، وعرّض في دعائه بأن زوجته التي معه لا تحمل، فطلب إصلاحها، ليكون منها الولد، وهذا من وفائه لها حيث لم يتزوج

غيرها، والعاقر هي المرأة التي لا تحمل[1]، فقدّم هذه التعليلات والأسباب بين يدي دعائه استلطافًا لكي يستجاب له، ثم طلب الولد الصالح؛ لأن الولد العاق لا يصلح لوراثة العلم والدعوة إلى دينه، وآل يعقوب، هم ذرية يعقوب بن إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصيّر هذا الغلام يا رب مرضيًا عندك بسبب استقامته وصلاح دينه وخُلقه، ومرضيًا ومقبولاً عند الخلق كذلك، وهذا أمر مهم جداً للداعية إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بأن يكون مقبولاً عند الله، ومقبولاً عند الخلق، حتى ينتفع به الخلق ويسمعوا نصحه وتوجيهاته.

وقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾، فاستجاب الله دعاءه وبشره بغلام، وسماه يحيى، فحصل زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ على البشارة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **واختص يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمرين:** أن الله سماه ولم يُسمه أبوه ولا أمه، وأن هذا الاسم لم يسبق أن تسمى به أحد قبله، وليس له شبيه ولا نظير في زمنه في صلاحه واستقامته!.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾، فلما بشره الله بالولد تعجب واستغرب كيف يكون له ولد مع وجود الأسباب المانعة منه، فامرأته عاقر غير صالحة للحمل، وهو قد بلغ من الكِبَر عتيًا، والعُتو معناه اليبس في الأعضاء والمفاصل[2]، فقد انهارت قواه وليس لديه همة الرجال.

(1) ينظر: لسان العرب: (4/ 595).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 971).

وقولـــــه: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾، فقالت له الملائكة: نحن نبلّغك ما تكرَّم به ربك عليك، فإيجاد الولد من أب وأم أمر هين وسهل على الله، ولو كان لديهم مشكلة في الحمل والإنجاب، فالله قادر على كل شيء، فلا تستغرب من ذلك وتتعجب منه، فهناك ما هو أعجب منه!، فقد أوجدك الله من العدم ولم تك شيئًا، فقدرته مطلقة لا يقف أمامها شيء، وقد جاء رجل إلى أحد الشيوخ يسأله، فقال له: هل تحمل زوجتي وقد قُطعت رحمها؟، فقال له الشيخ: لا، فقال: وبقدرة الله؟!، فقال له الشيخ: أما بقدرة الله فتحمل أنت وليس زوجتك التي قطعت رحمها!!.

وقولـه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾، فلما زال عن زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التعجب؛ استشرف أن يعرف متى تحمل زوجتُه، وطلب علامة لذلك، ليزداد بها يقينًا وإيمانًا، وهذا من طبيعة الإنسان أنه يرغب في التأكد ومزيد من الاطمئنان، **كما قال عن إبراهيم**: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[البقرة:260]، فالإيمان حاصل ولكنه أراد مزيداً من الاطمئنان، فأعطاه الله علامة على ذلك وهي أن يُحبَس لسانه عن الكلام ثلاث ليال دون مرض ولا علة(1)، **وفي آية أخرى**: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾[آل عمران:41]، فدل مجموع الآيتين على أنها ثلاثة أيام بلياليها.

وقوله: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾، فلما حصلت له العلامة، وكان كثير النصح والتوجيه لقومه، خرج من

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 215).

المحراب، وهو من مكان الصلاة الذي كان يجلس فيه، وسُمي محراباً؛ لأن المصلي يحارب فيه الشيطان والنفس الأمارة بالسوء[1]، فأشار وأومأ إليهم بالرموز من غير كلام، فأمرهم بالتسبيح لله في الصباح والمساء، أو بالصلاة، أو بهما معاً، فإن التسبيح يطلق على الذكر المطلق الذي فيه تسبيح الله وتنزيهه، كما يُطلق على الصلاة[2].

وقولـــه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾﴾، فلما وجد هذا الغلام المبشر به، نادى الله باسمه الذي سماه به، وهو يحيى، وأمره أن يتعلم كتاب التوراة، فلم يذكر أن الله أنزل عليه كتاباً غيرها، وهذا من أدلة من يفرقون بين الرسول والنبي، فالرسول من أنزل عليه كتاب، والنبي من يُجدد شرع من قبله من الرسل، وأمره أن يحفظها، وأن يعمل بما فيها، والمقصود بالقوة هنا قوة العمل والتمسك بها، والدعوة إليها، وفي الآية إشارة إلى أهمية النشاط والجدية في العمل لدين الله، وترك الكسل والتهاون والضعف في طلب العلم والدعوة إلى الله، وخاصة ممن تفرغوا لهذا الأمر وعرفوا به، فعليهم أن يتركوا الكسل والخمول، وأن يكونوا جادين فيه، فليست الدعوة بأقل شأناً من أعمال الدنيا الأخرى التي ينشط فيها أصحابها ويضحون من أجل نجاحها!، فأصحاب العلم والدعوة إلى الله أولى منهم بالنشاط والجدية، لعظم أثرها على الناس ولعظم أجرها في الآخرة، ومنحه الله الفهم والعلم ومعرفة الأحكام، ومنحه الجد والعزم والإقبال على الخير

(1) ينظر: المصباح المنير: (ص: 70).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 971).

والاجتهاد فيه، وهو صغير السن[1]، فكونه قرأ التوراة واستوعبها وفهم أحكامها وهو طفل، فهذه مِنة وكرامة من الله لـه، **وقيل:** أعطاه الله النبوة وهو ابن ثلاث سنين[2]، ومعلوم أن الأنبياء لا يُبعثون إلا بعد أربعين سنة، فيكون مستثنى من هذا الأمر، **وقد جاء عن ابن عباس موقوفًا أنه قال: "من قرأ القرآن قبل البلوغ فقد آتاه الله الحكم صبيًا"**[3]، **أي:** من أتقن قراءة القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن آتاه الله الحُكم صبيًا، أما لو حفظه فهذه نعمة أكبر، وكثير من العلماء المبدعين هم ممن حفظ القرآن قبل أن يبلغ، وتحنّن الله على يحيى فرحمه رحمة من عنده وأعطاه الفهم والعلم والعقل الكامل وهو صبي، ومنحه الله الطهارة من الذنوب والمعاصي، ووفقه للعمل بما يرضي الله تعالى، وجعله ممن بلغ الرتبة العليا من التقوى، وكان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة ولا همّ بها[4].

وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾، وجعل الله يحيى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ باراً بوالديه، وهذه خصلة عظيمة وصفة حميدة يبحث عنها كل الآباء والأمهات في أولادهم، فالأولاد نعمة وزينة الحياة الدنيا، ولكنها تتحول إلى نقمة إذا كانوا عصاة وعاقين لوالديهم، وفي قصة الخضر مع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أذن الله للخضر أن يقطع رقبة

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 216).

(2) ينظر: التفسير البسيط (14/ 206).

(3) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي: (ص: 374)، برقم: (639)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (5/ 485).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 8).

ذلك الغلام الشقي خشية أن يُتعب أبويه، **كما قال:** ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾[الكهف:80]، كما مدح اللهُ يحيى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ برحمته وتواضعه ورفقه ولينه في التعامل مع الخلق، وبعده عن الجبروت، وهو الغِلظة والشدة، وبعده عن المعاصي والمنكرات، فلم يجعل الله له في زمنه مثيلاً في زهده وتقواه وعبادته، **ثم ختم الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قصته بالسلام عليه، وهي التحية المعروفة والثناء من الله عليه، **وخصه بها بثلاث محطات تمر بها النفس البشرية، المحطة الأولى:** حين يخرج من بطن أمه، من مكان ضيق إلى مكان واسع ودار مختلفة عنها، وهي دار الدنيا، **والثانية:** حين يخرج من دار الدنيا إلى دار البرزخ، وهي دار تختلف عن دار الدنيا، **والثالثة:** حين يخرج من دار البرزخ إلى المحشر والدار الآخرة، فمن سلم في هذه المراحل الثلاث، فقد حصلت له السلامة المطلقة والأمان الكامل، فهي أشد المواطن التي يمر بها الخلق وأكثرها خطورة، وقد شرّف الله يحيى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وحياه في هذه المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف وقلة الحيلة والفقر والحاجة إلى الله سبحانه(1)، فقد حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله، وذلك يقتضي سلامته من الشيطان والشر والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، وأنه من أهل الجنة دار السلام(2).

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 8).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 491).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من آداب الدعاء أن يذكر العبد ضعفه وحاجته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من التوسل المشروع، وهو يدل على تبرؤ الإنسان من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.

2- أن يتذكر العبد ما أعطاه الله من النعم والخير فيشكر الله عليها ويطلبه المزيد.

3- أن يُقدم العبد في دعائه المصلحة الدينية الأُخروية على المصلحة الدنيوية.

3- يُستحب أن يسمي أولاده بالأسماء الحسنة التي فيها شيء من التفاؤل.

4- بيان أهمية الجدية في طلب العلم والدعوة وتبليغ الرسالة.

5- بيان فضل بر الوالدين وأهميتها وأثرها على العبد في الدنيا والآخرة.

6- بيان فضل ومنزلة يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عند ربه سبحانه.

تفسير المقطع الثاني من سورة مريم

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن
دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ
إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ
وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ
بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا
وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا
تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ
بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا
﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ
وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾
وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾، **بعد أن ذكر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قصة زكريا ورحمته له بالولد بعد أن كبر سنه وضعف جسده، وكانت من الآيات العجيبة، انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجـًا من الأدنى إلى الأعلى[(1)]، فأمر رسوله محمداً ﷺ أن يذكر في القرآن الكريم لقومه وللناس عامة قصة مريم، وهي مريم ابنة عمران، وقد كانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل المستمر، ومن صلاحها واستقامتها أنها اعتزلت وتنحّت عمن كان معها في الدار، واتخذت لها مكانـًا خاصـًا بها للعبادة من جهة مشرق الشمس[(2)]، وجعلت بينها وبينهم ستاراً يستُرها عنهم؛ لتعبد الله دون رياء ولا سمعة، ولتأخذ راحتها في العبادة والذكر والطاعة، وأثناء اختلائها بنفسها في ذلك المكان؛ أرسل الله إليها جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فدخل عليها مكان عبادتها بدون إذن في صورة رجل كامل الخِلقة حسن المنظر[(3)]، فلما رأته فزعت وخافت منه وظنته يريدها على نفسها، فاستعاذت بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ منه ومن أذيته لها، قبل أن يقول لها شيئـًا، لأن وجود رجل أجنبي مع امرأة أجنبية في خلوة تامة أمر محرم، والتجأت إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وتوسلت إليه باسمه الرحمن أن يرحمها ويُخلصها من أذية هذا الشخص، ثم وعظته وطلبت منه الابتعاد عنها إن كان يتّقي الله ويخاف

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 491).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 972).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 219).

عقابه، فإن هذا الفعل لا يفعله الأتقياء، وفي ذلك إشارة إلى أن الشخص المتقي لله الخائف منه؛ يكفي لدفعه أن يذكّر بالله، بخلاف الشخص المجرم قاسي القلب البعيد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمهما ذكّرته بالله فلا يندفع، فيحتاج إلى وسيلة أخرى غير الموعظة لدفع شره.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾، **فأجاب عليها جبريل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بأنه ليس برجل سوء يخشى منه الأذية، بل هو رسول من الله أتى إليها لمهمة كُلف بها، **وهي**: إبلاغها بأن الله سيُعطيها غلامًا صالحًا مستقيمًا ليس فيه فساد ولا انحراف، والحكمة من مجيء جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مريم في صورة بشر مكتمل الخَلْق والخُلُق؛ لأن الخِطاب بين شخصين من جنس واحد أكثر فهمًا واستيعابًا، ولو خاطبها ولم تره لتخيّلت أن يكون شيطانًا ونحوه، ويحتمل أن يكون ابتلاء لها لمعرفة ثباتها والتجائها إلى الله عند نزول المِحن بها.

وقوله: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾، فردت عليه مستغربة ومتعجبة من قوله، فكيف يوجد لها ولد، وهي لم تتزوج ولم تكن امرأة مجاهرة بالزنا؟!؛ لأن سبب الحَمل للمرأة يكون بأحد أمرين: إما عن طريق الزواج الشرعي والحلال، وإما طريق البغي والزنى، وهما منفيان عنها، فهي غير متزوجة وليست بغية، بل امرأة عفيفة مُحصِّنة لفرجها من الحلال والحرام على حد سواء!.

وقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾، فرد عليها جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن خلق الولد من دون أب، أمرٌ هيّن على الله، فإن الله لا يُعجزه شيء، وأن الحكمة من خلقه بهذه الطريقة الخارقة للعادة؛ ليكون علامة ومعجزة بيّنة للناس وحجة عليهم، ورحمة من الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لأمه خاصة، ولمن آمن به من بني إسرائيل عامة، فإن بِعثة الرسل في الأمم رحمة لها، وسبب لهدايتهم ودعوتهم إلى الخير، وأن هذا الأمر الذي أخبرها به هو أمر قد قضاه الله وقدّره وكان خلقه أمراً محكوماً به مفروغاً منه سابقاً في علم الله أن يقع[1]، وهو كائن لا محالة، وقد أُرسل لتنفيذه، فلا داعي للحوار والجدال حوله!.

وقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾، أي: وبعد أن انتهى الحوار معها، نفخ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في جيب درعها، فتسلل ذلك النفخ إلى فرجها، فحملت منه، فلما تعلقت النطفة بالرحم شعرت بالحمل، فاعتزلت بحملها في مكان بعيد عن قومها وأهلها حتى لا ينكشف أمرها، وخوفاً مما يقوله الناس عنها، خاصة أن اليهود معروفون بسوء طباعهم وفجورهم، والمكان القصي، قيل[2]: إنه مكان مرتفع في بيت لحم[3]، وهو المذكور في

(1) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 217).

(2) ينظر: المحرر الوجيز: (9/ 445).

(3) بيت لحم: بالفتح وسكون الحاء قرية قرب البيت المقدس، وهي مهد عيسى عليه السلام، وهي اليوم مدينة عامرة في فلسطين. ينظر: معجم البلدان: (1/ 521).

قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾[المؤمنون:50]، وقد حملت به تسعة أشهر مثل حمل عامة النساء[1].

وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾، فلما اقترب موعد الولادة ألجأها ألم الولادة، وهو الطلْق[2] الذي يحصل للمرأة عند قُرب الولادة، فاستندت إلى جذع نخلة، ثم تذكرت ماذا سيقول أهلها وقومُها عنها بسبب ولادتها من غير زواج، وشعرت بالحسرة والألم، فتمنت أنها ماتت قبل أن تحمل بالغلام بهذه الطريقة وتلده، وأنها كانت شيئًا حقيراً لا يذكر ولا يبحث عنه أحد، فقد كانت في حالة من الحزن والألم ورأت أن الموت أهون عليها من الطعن في عرضها وإدخال العار على أهلها، وهو اجتهاد منها، أثبت الواقع أنها كانت مخطئة فيه، فإن الله أراد لها الرفعة والمكانة بهذا الأمر، وبلغت درجة الصدّيقة، وأصبحت قصتها مع ابنها معجزة وعلامة للعالمين.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾، **لفظ** "مِن" فيه **قراءتان**[3]، "مِن" على أنه حرف جر، و"مَن" على أنه اسم موصول، ويحتمل أن الذي ناداها

(1) ينظر: أضواء البيان: (4/ 244).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 219).

(3) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 175).

من تحتها هو ابنُها عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن ولدته، أو أنه جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي كان في مكان مُنخفض عنها[1]، والقول الأول هو الراجح[2]، والقرائن تدل عليه كما سيأتي، فنهاها عن الحزن وأوصاها بتركه، فقد سمعها تمنت الموت بسبب الضيق والحزن الذي أصابها، وبشرها بأن الله قد صيّر لها جدولاً صغيراً من الماء العذب تحتها، وصيّر لها جذع النخلة اليابس مثمراً بالرطب الذي قد طابت وصلحت للاجتناء، وأمرها أن تهزه فيسقط منه الرطب عليها، فتأكل منه وتشرب من الماء العذب الذي أجراه الله تحتها، وهذا يدل على فائدة أكل الرطب للنفساء، ولو علم الله شيئًا هو أفضل منه للنفساء لأطعمه مريم[3]، وأمرها أن تطيب نفسًا وتقر عينًا بولدها، ولا تفكر في أمرها ولا تلتفت إلى ما تخشاه من قومها؛ فسيجعل الله لها مخرجًا منه، وفي الآية إشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب ولو كانت ضعيفة، فامرأة ضعيفة في مرحلة مخاض تؤمر بهز جذع نخلة، ومعروف أن جذوع النخل لا يهتز بسهولة كغيرها من أشجار الفواكه الأخرى، ورتب على هذا الهز الضعيف سقوط الرطب عليها، بإذن الله، أمرها أن تسكت ولا تتكلم مع أحد من قومها، وتعتذر عن الكلام معهم بسبب نذرها الصوم عنه، وقد كان النذر بالصوم عن الكلام مشروعًا في بني إسرائيل، وجاء الإسلام فأبطله، **فقد جاء في الحديث: "أن رجلاً نذر ألا يتكلم، فأمره**

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 364).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 174).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 96).

بالكلام وأبطل عليه نـذره"[1]، وبهـذه الوسـيلة خلّصها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مـن شـر الجدال والخصام والمِراء مع قومِها الذين أطلقوا ألسنتهم عليها، وجعل ولـدها هو من يتحدث معهم بدلاً عنها، وهذه قرينة ترجح أن الذي تكلم من تحتهـا هـو عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد أنطقه الله عند ولادتها به حتى لا تفاجأ بنطقه عند ملاقاتهـا لقومها به.

وقولـه: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾، فتركـت مكانهـا وعـادت إلـى قومها بولدها تحمله في حضنها، وهذا يدل على قوة يقينها بما سمعته ورأتـه مـن الكرامات التي أعطاها الله لها ولولدها، ولما رآها بعض قومها تحمـل رضيعها، أساءوا بها الظن واتهموها بالفاحشة، وأنها وقعت في ذنب عظيم وفِرية قبيحة في حقها وحق أسرتها، وولدت غلامها من الزنى، ثـم نادوهـا بوصـفها المعروفـة بـه قبل ذلك، وهو الاستقامة والـصلاح، فقـد كانـت تـشبه بـصلاحها هـارون، وهـو رجـل صـالح كـان في قومهـا[2]، **فقـد جـاء في الحـديث: "أنهـم كـانوا يتـسمون بالأنبياء والصالحين"**، ثـم عاتبوهـا علـى مـا ظنـوا بهـا مـن سـوء، قـائلين لهـا: إن أسـرتك أسـرة عفيفـة وصـالحة ومـشهورة بالعبـادة والزهـادة، فكيـف صـدر هـذا منك؟! وهو تعريض لها بالانحراف وفعل الفاحشة.

وقولـــه: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾، فلـــم

---

(1) ينظر: صحيح البخاري: (8/ 143)، برقم: (6704).

(2) تفسير ابن كثير: (5/ 226).

تكلمهم ولم ترد عليهم، بل أشارت لهم أن يتخاطبوا مع ولدها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو لم تكن تعلم أنه سيتكلم لما أشارت إليه، فاستغربوا من ذلك، فكيف يتخاطبون مع طفل رضيع صغير في فراشه لا يتكلم، ولا يستطيع أن ينقلب يميناً ولا شمالاً!.

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)﴾، فلما سمع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم قولهم في أمه؛ **رد عليهم بقوله:** أنا عبدٌ من عبيد الله خلقني الله بهذه الطريقة المعجزة، وقضى أن يجعلني نبيًا، وأن يعلّمني فهم التوراة وزادني معها الإنجيل، ومنحني البركة، وهي كثرة الخير ونماؤه، وجعلها تحل في المكان الذي أحل فيه، وهي بركة الإيمان والتوحيد والدعوة إليه، فإذا مَنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على العبد بالعلم النافع والعمل الصالح، ووفقه للدعوة إلى الله والبلاغ لدين الله؛ فهو رجل مبارك، مثله مثل الغيث أينما نزل نفع الله به، وقضى أن يجعلني محافظًا على أداء الصلاة والزكاة طيلة حياتي، وأن أكون ولداً باراً بوالدته مُحسنًا إليها، ومنحني الرفق واللين في التعامل مع الخلق ولم يصيرني غليظًا في الخُلق، بل أبعدني عن الأخلاق السيئة كالتجبر والكِبر والغطرسة، وعصمني من الأعمال السيئة كالمعاصي والمنكرات التي تُؤدي إلى الشقاء في الدنيا والآخرة، وفي هذه الآيات بشارة لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بحسن الخاتمة والاستمرار على الصلاح والاستقامة إلى أن يموت، وأن الله كتب له السلامة

والأمن والأمان من كل أذى في حياته، وخصها بثلاثة مواطن، وهي: حين الولادة، وحين يخرج من الدنيا إلى دار البرزخ، وحين يخرج من البرزخ إلى الدار الآخرة، فمن سلم في هذه المواطن الثلاثة فغيرها أسهل منها.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الشخص المتقي لله الخائف منه؛ يكفي لدفعه أن يذكّر بالله.

2- أن مجيء جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى مريم في صورة بشر مكتمل الخَلْق والخُلُق نوع من الابتلاء لها لمعرفة ثباتها والتجائها إلى الله عند نزول المِحن بها.

3- أهمية الأخذ بالأسباب ولو كانت ضعيفة.

4- بيان فضل مريم ومعجزة حملها وولادتها بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

5- بيان فضيلة الصمت عن الكلام حينما لا ينفع ولا يُفيد، وترك الجدال والخصومة.

6- فضل العلم النافع والعمل الصالح، وأنهما سبب لحصول البركة لصاحبهما.

تفسير المقطع الثالث من سورة مريم

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ
سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ
مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ
وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ
وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا
يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا
﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن
يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ
إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ
أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ
وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥)﴾، اسم الإشارة يعود إلى ما سبق ذكره من قصة مريم وولادتها لغلام من غير أب، وهذا الغلام هو عيسى بن مريم، وما قال الله لنا عنه فهو القول الحق، فهو عبد الله ورسوله، خلقه الله بكلمته، خلافًا لما تعتقد فيه الفِرق الضالة من اليهود أو النصارى، فإنهم يكثرون من المراء والخصام فيه بغير حق، ويشكون فيه بالباطل، فاليهود لم يعترفوا بنبوته واتهموا أمه بالفاحشة، وقالوا عنها قولاً عظيمًا، والنصارى بالغوا في رفعه فوق قدره وجعلوه ابن الله، فرد الله عليهم هذا القول البطل، ونزه نفسه عن ذلك، فلا يجوز في حق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يكون له ولد، ثم بيّن السبب في كون عيسى خُلق من غير أب، بأن قدرته لا يقف أمامها شيء، فإذا أراد أن يخلق شيئًا صغيراً أو كبيراً أوجده بقوله له: كن؛ فيكون، فلا يتخلف عن أمره شيء!.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (٣٦)﴾، ما سبق من آيتين جاءت معترضة بين كلامه لتوضيح حال عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وافتراق الفرق حوله، ثم عاد الحديث إليه مرة أخرى، وهو يخاطب بني إسرائيل بأنه عبدٌ لله الذي خلقه وخلق بني إسرائيل ورباهم، وهو مالكهم المتصرف فيهم جميعًا، وأمرهم أن يوحدوا الله ويطيعوه ويمتثلوا أمره، وأن توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له من الخلق هو الطريق السليم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

وقوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾، الفاء فاء التفريع، وتفيد العليّة والسببية، والأحزاب هم الجماعات المتعددة من

النصارى[1]، الذين اختلفوا فيما بينهم في أمر عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على أقوال متعددة، وقد ذكر الله لنا في كتابة اعتقاد ثلاث فِرق، الأولى: تعتقد إن عيسى ابن الله، والثانية: تعتقد أنه هو الله، والثالثة: تعتقد أنه ثالث ثلاثة، ثم انقسمت هذه الفرق بعد إلى فرق متعددة، وأشهر الفرق الباقية من النصرانية إلى اليوم هي: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، وبين هذه الفرق خلاف كبير، وكلهم غالوا في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ورفعوه فوق قدره، وقد كفّرهم جميعاً في القرآن الكريم وتوعدهم بالويل والهلاك حين يشهدون أهوال يوم القيامة العظيمة ويذوقون حسابهم الشديد فيه، وفي الآية وعيد وتهديد لكل المختلفين في شأن المسيح، ممن أسقط منزلته من اليهود أو غالى فيه من النصارى.

وقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾، "أسمِع بهم وأبصِر!!" أسلوب من أساليب البلاغة، ويُقصد به التعجب من حال المشركين[2]، **والمعنى:** لو نظرت في سمعهم وأبصارهم يوم القيامة لتعجبت من قوتها، لكنهم ضلوا في الدنيا وكانوا في غفلة كبيرة وبعدٍ واضح عن الحق، فلم يفتحوا آذانهم وأعينهم لسماعه ورؤيته، وآثروا الهوى على الهدى الذي جاءتهم به الرسل.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾، **الخطاب للنبي** ﷺ بأن ينذر

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 248).

(2) ينظر: الدر المصون للسمين الحلبي: (7/ 602).

المشركين، وأن يحذّرهم من يوم الحسرة والندامة في يوم القيامة، وأُضيف اليوم إلى الحسرة لكثرة ما يحدث فيه من تحسّر الكافرين على ما فرطوا من أسباب النجاة[1]، وتحل بهم الحسرة العظمى إذا فرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وحكم عليهم بالخلود في النار[2]، **كما في الحديث:** **"يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ هذه الآية"**[3]، والحال أنهم في دار الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم وهو البعث والنشور، وما يجري فيه من أهوال عظيمة، ولذا فهم لا يفكرون فيه، فلم يحصل لهم الإيمان والتصديق به، فبقوا على الكفر بالله والإعراض عن دينه.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾، هذا إخبارٌ عن حال الأرض بعد موت الخلق جميعًا، فالوارث لها هو الله مالكها ومُنشئها، وعبّر بالوارث؛ لأن الوارث هو الذي تؤول إليه تركة ومُلك من مات قبله، فالله هو الذي يميت سكان الأرض فلا يبقى وارثٌ لها إلا الله، وسيرجع الخلق

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 109).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 109).

(3) صحيح البخاري: (6/ 93)، برقم: (4730).

جميعًا إلى الله يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم في الدنيا، وفي ذلك تهديد ووعيد للمشركين، والتذييل بهذه الموعظة على قصة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أهم خصائص القَصص القرآني، فإنه يجمع بين الخبر والموعظة والعبرة به.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41)﴾، ثم أمر نبيه محمداً ﷺ أن يذكر لقومه في القرآن الكريم قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي وصفه بأنه كان صدّيقًا، وهي صيغة مبالغة من الصدق، **أي:** كان كثير التحري للصدق في اعتقاده وأقواله وأفعاله، **وفي الحديث: "وإن العبد ليتحرى الصدق، حتى يُكتب عند الله صديقًا"**[1]، وقد كان موصوفًا بالصديّق قبل النبوة، ثم منحه الله النبوة والرسالة، فهو رسول من أولي العزم، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين بعد محمد ﷺ.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42)﴾، ثم ذكر الله محاورته مع أبيه الكافر الذي كان يصنعُ الأصنام ويبيعها على الناس، فلم يكن شخصًا عاديًا، بل كان صاحب مشروع وداعية إلى الشرك، وقد استخدم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه الأسلوب الأمثل في الدعوة، حين لاطفه وسأله سؤال استنكار وتعجب من عبادته لهذه الأصنام التي لا تسمع ولا تُبصر ولا تنفع ولا تضر، فإن العاقل لا يعبد من هذا وصفه، ولكنه لم يصرح لأبيه بذلك، وإنما جعله يفكر في الجواب ليستنبط سخافة عقله بنفسه!.

ثم كرّر له الخطاب، فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)﴾، وهذه المقدمة الخبرية من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومخاطبته

(1) صحيح مسلم: (4/ 2013)، برقم: (2607).

له بوصف الأبوة ليشعره أنه مخلص له في النصيحة[1]، **والمعنى:** لا تظنني صغيراً جاهلاً لا أفهم، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد حصلت على شيءٍ من العلم لم تحصل أنت عليه، وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى[2]، والمقصود بالعلم هنا علم النبوة والرسالة، وهو سبب كافٍ لو كان يعقل لكي يتبعه ويعبد الله وحده لا شريك له، ويترك عبادة الأصنام، فالأصل أن يتبع الجاهلُ العالمَ، لا العكس، فإن الله جعل العلم والعلماء منارات للهدى، وسبباً لهداية البشرية إلى الصراط المستقيم، وهو طريق التوحيد والإيمان بالله الموصل إلى الجنة.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾، ثم ترقى معه بالخطاب، فنهاه عن طاعة الشيطان في عبادة الأصنام؛ لأن الشيطان هو الذي دعا الناس إلى عبادتها وشجعهم عليها، ومن أطاعه في ذلك فقد صار عاصياً للرحمن، وحاله كحال الشيطان البعيد عن طاعة الله، وفي إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أن المعصية مانعة من الرحمة، فمن أراد أن يرحمه الله فعليه بالطاعة وترك المعصية.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾، ثم بيّن له حرصه عليه وشفقته به، وأنه يخاف عليه من أن يصيبه عذاب من الله بسبب طاعته للشيطان الذي عصى الرحمن فأبعده عن رحمته، فيكون بسبب

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 113).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 494).

موالاته في العذاب معه[1]، فمن أطاع الشيطان فقد صار مصاحبًا وقرينًا له في جهنم وبئس المصير!.

وقوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾، فلما سمع أبوه منه هذه النصائح؛ انزعج منه وغضب عليه، وسأله سؤالاً استنكاريًا! كيف تترك آلهة أبيك وتبتعد عن عبادتها، ما هذا العقوق؟! وما هذا العصيان؟! ثم هدده إن لم يمتنع عن شتمها وعيبها، وتحذير الناس من عبادتها ليقتلنّه رجمًا بالحجارة، ثم طرده وأمره أن يبتعد عنه ويعتزله فلا يريد أن يراه زمنًا طويلاً[2].

وقوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾، فلما سمع إبراهيم من أبيه هذا التهديد والوعيد الشديد، قال له: سلمت مني فلا أصيبك بمكروه، ولن يلحقك مني أذى، وسأتركك وأبتعد عنك، فالسلام هنا سلام مُتاركة لا سلام تحية[3]، كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[الفرقان:63]، ووعده بأنه سيستغفر له ربه، وذلك قبل أن يُؤمَر بترك الاستغفار له، أو بأنه سيدعو له بالهداية للإسلام الذي تحصل له به المغفرة[4]، **وعلّل هذه الموعدة** بأن الله

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 396).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 339).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 19).

(4) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 495).

كان به لطيفًا باراً[1]، فألطافه عليه كثيرة، ومنها: أنه يستجيب دعاءه ولا يرد له طلبًا، والحفاوة في اللغة المبالغة في الإكرام[2]، ثم خاطب أباه وقومه بأنه سيتركهم ويفارقهم ويبتعد عنهم وعن أصنامهم التي يدعونها من دون الله، ويتفرغ لعبادة الله وحده لا شريك له، وفي ذلك إشارة إلى أنه لن يسوؤه ذلك الهجر، لأنه في ذات الله تعالى ومرضاته، وقد كان رجاء إبراهيم في ربه عظيمًا، فهو مُطمئن إلى عبادة الله، وأنه لن يشقى بسببها، بل إن الله قد أسعده ورحمه بها، واستجاب له دعاءه!، وفي ذلك إشارة إلى أن المشركين قد أصيبوا بالشقاء بعبادتهم للأصنام؛ لأنها لا تنفعهم ولا تستجيب دعاءهم!.

وقوله: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾، فلما اعتزلهم وترك بلادهم وهاجر إلى الشام مع زوجته سارة رفيقة دربه؛ أكرمه الله وأعطاه منها ولده إسحاق، وبشّره بأن إسحاق سيكبُر ويتزوج، ويكون له ولد اسمه يعقوب، و**"كلاً"** يعود على من سبق ذكرهم، وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاللفظ يشملهم جميعًا، وذكر هنا إسحاق مع أبيه ولم يذكر إسماعيل، بل ذكره مستقلاً بعد ذلك؛ لأن الهجرة هنا كانت بزوجته سارة وهذا ابنُها، أما إسماعيل فهو الولد الكبير له من أمه هاجر، والرحمة عامة، ومنها النبوة، والولد الصالح، ونحوها من النعم المتعددة، وأبقى الله لهم الذكر الحسن فيمن أتى بعدهم، فلا

(1) ينظر: التفسير البسيط (14/ 259).

(2) ينظر: لسان العرب: (14/ 187).

يُذكرون إلا بخير في جميع الملل والأديان[1]، وشأنهم مرتفع وظاهر فيمن أتى بعدهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن من خذلان الله للكافر أن لا يستخدم سمعه وبصره لسماع الحق ورؤيته في الدنيا.

2 – أن طرد الإنسان من بلده ومفارقته لأهله أمر شاق على النفس.

3 – أن من وسائل الدعوة الناجحة: التلطف مع المدعو ومناداته بأحب الأسماء وألطف العبارات حتى يقبل ويستجيب لها.

4 – أن المعصية مانع للعبد من رحمة الله، وأن الطاعة سبب لها.

5 – أن صلاح العبد واستقامته في الدنيا سبب لبقاء الذكر الحسن له في الناس بعد وفاته، والعكس صحيح.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 237).

تفسير المقطع الرابع من سورة مريم

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ۝٥٨ ۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ۝٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ۝٦٣﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١﴾، أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يذكر لقومه قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ للعظة والعبرة، ووصفه بأنه كان مخلصاً، **وفيها قراءتان**[1]، **بفتح اللام**، **ومعناها**: أن الله اصطفاه

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 209).

واجتباه وقرّبه واستخلصه لنفسه، **وكسر اللام، ومعناها**: أنه كان كثير الإخلاص لله في عبادته، وكلا المعنين ينطبق على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، فالنبوة من الإنباء والإخبار، والرسالة من الإرسال، وهذا يعني أن الرسالة غير النبوة، فالرسالة أعم من النبوة، فكل رسولٍ نبي وليس كل نبيٍ رسولاً، وكل منهما يُوحى إليه من الله تعالى، ولكن الرسول ينزل عليه كتاب جديد وشريعة جديدة ويؤمر بتبليغها، والنبي يجدد الشريعة السابقة فقط[1].

وقوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾، ونادى الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الناحية السفلى لجبل الطور من الجهة اليُمنى لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لأن الجبل لا يمين له ولا شمال[2]، وأفرده الله بالمناجاة، وهي الكلام الخاص بين اثنين، وقرّبه منه حتى أسمعه كلامه، والهِبة هنا مخصوصة بالنبوة التي منحها الله لهارون، وإلا فهارون أكبر من موسى، فقد أجاب الله سؤاله وقبل شفاعته في أخيه، فجعله نبيًا، وهي أعظم شفاعة وقعت في الدنيا[3]، ووصف هارون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالنبوة فقط، ووصف موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالرسالة والنبوة، مما يدل على أنه أفضل منه.

وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾، **وأمر الله نبيه محمداً** ﷺ أن يذكر

---

(1) ينظر: النبوات لابن تيمية: ص: 255.

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 210).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 238).

لقومه قصة إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو الابن الأكبر لإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأمه هاجر، ووصفه بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك؛ لأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً فيه، **ومن ذلك:** أنه وعد والده بالصبر على الذبح فوفى بذلك، كما في **قوله:** ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ﴾[الصافات:102]، وكان ينتظر من وعده الأيام والليالي، فقد واعد شخصاً موعداً فنسي ذلك الشخص الموعد فانتظره إسماعيل يوماً وليلة، حتى ذكر الرجل وأتى إليه[1]، والوفاء بالوعد مطلوب شرعاً من المسلم، وإخلاف الوعد من علامات المنافق، ووصفه الله بالرسالة والنبوة، فقد أُرسل إلى قبيلة جرهم اليمانية التي نزلت مكة وعاشت فيها وتزوج منهم، فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله، وكان إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كثير النصح لأهله، وهم القبيلة التي تأهّل منهم[2]، وكان حريصاً على أمرهم بالمحافظة على الصلاة وإقامتها في أوقاتها، وكان يأمرهم بإعطاء الزكاة لمن يستحقها، وهذا يدل على أن أصول العبادات كانت مفروضة على كل الأنبياء، وإنما الاختلاف بينهم في هيئتها وعددها، وكان إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في نفسه راضياً صالحاً، وعند ربه مقبولاً مُقرباً منه.

ثم قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾، واذكر يا محمد لقومك خبر النبي إدريس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فهو أول نبي بُعث إلى أهل الأرض بعد آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أول من خط بالقلم[3]، وذكر قصص الأنبياء في هذه السورة ليس

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 21).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 399).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 980).

على التسلسل الزمني لهم، بل هو لمقصد آخر، ووُصف إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كان كثير الصدق في قوله وسلوكه وأعماله، وأن الله قد رفعه مكانًا عليًا، والمقصود بالرفعة هنا أنه رفع إلى السماء وقُبضت روحه فيها[1]، **وفي حديث الإسراء والمعراج** أن النبي ﷺ رآه في السماء الرابعة[2]، أما رفعة المكانة والتشريف فهي حاصلة لكل الأنبياء؛ لأن من اختاره الله واصطفاه واجتباه للنبوة فقد رفع مكانته عنده سبحانه، ورفع مكانته على الخلق.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾، فمن سبق ذكرهم من الأنبياء والرسل في هذه السورة، فأولئك من الذين أنعم الله عليهم بالنبوة أو الرسالة، **فمن ذرية آدم**: يعني إدريس ونوحًا، وممن حملنا مع نوح: يعني إبراهيم، ومن ذرية إبراهيم: يعني إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن ذرية إسرائيل: يعني موسى وهارون وعيسى من جهة أمه وزكريا ويحيى، وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل، فهؤلاء جميعًا كما فضّلوا بأعمالهم الصالحة، فلهم مزيد في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء[3]، وقد هداهم للإسلام واجتباهم بالنبوة واصطفاهم بالرسالة، ثم وصفهم بأنهم إذا سمعوا آيات الرحمن المنزلة في كتبه السماوية المتضمنة لتوحيده وحججه، بأنهم كانوا

(1) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 212).

(2) مسند أحمد: (21/ 279)، برقم: (13739)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: تفسير الرازي: (21/ 550).

يسجدون عند تلاوتها، ويبكون عند ذكرها[1]، **والمقصود بالخرور** أن من كان واقفًا نزل وسجد، ومن كان جالسًا خفض رأسه حتى يضع الجبهة والأنف على الأرض خضوعًا وتذللاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أعظم العبادات، ولذلك لا يجوز أن يسجد لغير الله في الشريعة المحمدية لأنها حافظت على جناب التوحيد، وقد كان سجود التحية جائزاً في بعض الشرائع السابقة، والبُكيّ جمع باكٍ، **أي**: يسجدون بين يدي الله خاضعين مُتذللين قد ذرفت أعينُهم بالدمع خشيةً لله، فإن من علامات الخشوع البكاء من خشيته سبحانه، وهذا الوصف ليس خاصًا بالأنبياء، بل مطلوب من كل مسلم أن يتصف به، فهم الأسوة والقدوة للبشرية، كما قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:90].

وقد قرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هذه الآية فسجد، فقال: هذا السجود فأين البكاء؟![2]، وكأنه يشير إلى ضرورة التلازم والترابط بين خضوع الجسد وخشوع القلب ونزول الدموع من العين، بذلك تحقق القدوة والأسوة بهؤلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾، **الخلَف** هو الذي يخلُف غيره، **والخلْف** بفتح اللام يكون غالبًا

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 120).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 215).

العاقبة في الخير، وبسكون اللام يكون غالبًا العاقبة في الشر[1]، **أي**: جاء من بعد هؤلاء الأنبياء الصالحين قرون وأمم فاسدة مُنحرفة لم يقتدوا بالأنبياء في صلاحهم وخيرهم، بل ضيّعوا الصلاة وهي عمود الدين، وإضاعة الصلاة يشمل نوعين، الأول: الترك المطلق، وهذا أقبحها، والإجماع على أن من ترك الصلاة تركًا مطلقًا فإنه يكفر، والثاني: التساهل والتضييع الجزئي للصلاة والإهمال لأوقاتها، مثل من يُصلي أحيانًا، ويترك أحيانًا، أو يكون لديه إهمال في ضبط أوقات الصلاة، فيصلي العصر قبل الغروب، والفجر عند الشروق، فهذا كله من الإضاعة للصلاة، ولكنه أخف في الإثم من النوع الأول، فالأول من الكفر، والثاني من الكبائر، وجمعوا بين إهمال وتضييع الصلاة، والسير وراء ما تشتهيه الأنفس من الشهوات المحرمة كشهوة البطون والفروج والألسن، وشهوة الملك والسلطان ونحوها، وهذا وصفٌ عامٌ لكل أمم الأنبياء، فما من نبي يموت إلا وحصل لأمته من بعده انحراف حتى يبلغ مداه، فيبعث الله بعده نبيًا يصلح ذلك الانحراف ويعيد الأمة إلى دينها واستقامتها، وكل من اتّصف بهذه الأوصاف فقد توَعّده الله بأن يناله جزاء ضلاله وانحرافه وهو العذاب الشديد في جهنم، والغي اسم للشر والعذاب الذي يقع لهم، فسمّى العذاب بسببه[2]، وهو الغواية والانحراف عن دين الله وشرعه، واستثنى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من هذه العقوبة الشديدة التي توعّد بها هؤلاء المفسدين من حصلت منه التوبة

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 26).

(2) ينظر: تاج العروس: (39/ 201).

الصادقة والعودة الصحيحة إلى الله تعالى، وهي التي اكتملت شروطها، من الندم، والإقلاع، والعزيمة على عدم العودة إلى الذنب، وتحقق لديه الإيمان الصحيح، وفعل الطاعات واجتنب المحرمات، واستمر على ذلك حتى مات، فإن الله يتوب عليه ويقبل منه ذلك، ويُجازيه على ذلك أن يدخله الجنة دون أن يبخسه حقه من الحسنات، ولا يُنقصُه شيئًا من الأجر والثواب، بل يأخذ حقه كاملاً تامًا مع الزيادة على حقه فضلاً من الله عليه.!!

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾، ثم وصف الجنة التي يُدخل التائبين الصالحين فيها بأنها جنات متعددة، وأضافها إلى **"عدْن"**، وهو في اللغة اللزوم والإقامة[1]، **أي**: أن من دخلها لا يخرج منها، بل يبقى ملازمًا لها خالداً مُخلداً فيها، وهذه الجنات هي وعدٌ من الرحمن للخلق، فقد قبل توبتهم برحمته، وأضافهم إليه للتشريف لهم، فمن أطاع الله فقد شرّفه الله بالانتماء إلى عباده، وقد أخفى الله الجنة عن أهلها في الدنيا فصارت غيبًا لا ينظرون إليها، ليشتاقوا إليها أكثر.

والباء للمصاحبة، أي أنها مصحوبة بالغيب في الدنيا، فلم يرها أحد منهم إلا نبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، والضمير عائد على الوعد لعباده المؤمنين بدخول الجنة، فهو وعد متحقق وكائن لا محالة ولن يتخلّف، ثم وصف حال أهل الجنة فيها، بأنهم لا يسمعون فيها الكلام الذي لا فائدة منه،

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة: (6/ 2162).

فضلاً عن الكلام الباطل أو الخبيث السيء، فاللغو: فضول الكلام وما لا طائل تحته[1]، و"إلا" أداة استثناء منقطع، لأن السلام ليس من اللغو، **والمعنى**: لكن يسمعون في الجنة سلامًا، حيث يُسلم عليهم ربهم، وتُسلم عليهم الملائكة، ويسلم بعضهم على بعض، ولأهل الجنة الذين دخلوها حظهم من النعيم المطلق فيها، مما تشتهيه أنفسهم من المأكولات والمشروبات والمنكوحات ونحوها، وهذا الذي يحصلون عليه من النعم ليس لحاجتهم إليها، فهم لا يجوعون ولا يعطشون فيها، وإنما للتلذذ بها، ويؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا[2] صباحًا ومساءً، **فالبكور** من الصباح إلى الزوال، **والعشي** من الزوال إلى الليل، **أو أن المقصود به** أنهم مُنعمون في كل الأوقات فلا يوجد ليل ولا نهار في الجنة[3]، فهذا هو وصف الجنة التي سنمنحها ونُعطيها لكل من اتصف بالتقوى في الدنيا من عبادنا، وستكون الجنة ورثًا للمتقين؛ لأنهم يرثون مقاعد الكفار فيها، فإنه ما من أحد من الخلق إلا وقد جعل الله له مقعداً في الجنة ومقعداً في النار[4]، فمن آمن أخذ مقعده من الجنة، ومن كفر أخذ مقعده من النار، فأما المؤمنون فيرثون مقاعد الكفار في الجنة، وأما الكافرون فيرثون مقاعد المؤمنين في النار.!

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 27).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 248).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 401).

(4) ينظر: الحديث في مسند أحمد: (16/ 381)، برقم: (10652)، وإسناده صحيح.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- فضل الأنبياء والرسل على غيرهم من الناس، لاصطفاء الله تعالى لهم.

2- إثبات صفة الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد كلّم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقرّبه وناجاه.

3- بيان أهمية وفضل صدق الوعد ومن اتصف به.

4- بيان أهمية الاقتداء بالأنبياء والرسل في الاستقامة والطاعة والحذر من مخالفتهم.

5- بيان فضل المتقين وأنهم ورثة جنة النعيم.

تفسير المقطع الخامس من سورة مريم

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا
﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن
قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ
جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا
وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ
وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ٱهْتَدَوْا هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾، هذا من كلام جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لنبينا محمد ﷺ حينما أبطأ عليه واشتاق له رسول الله ﷺ، **فقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ**

قال لجبريل: "ما لك لا تزورُنا أكثر من هذا؟، فقال له: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾"[1]، **والمعنى**: أن نزول الملائكة على الرسل ليس بإرادة الملائكة ولا بإرادة الرسل، **وإنما يكون بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** وإذنه لهم، فهي لا تنزل من تلقاء أنفسها، ولا تنزل كلما رغب الرسل بنزولها إليهم، لأن الله هو المدبر لأحوالهم في كل الأوقات، وأمرهم موكول إلى الله يتصرف فيهم كيف يشاء، وأن الله قد أحاط علماً بأحوال الخلق كلهم، فهو يعلم ما بين أيدي الخلق من أمر الآخرة، وما خلفهم من أمر الدنيا، وما بين الدنيا والآخرة ويدخل فيه عالم البرزخ[2]، **ونفي النسيان عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** هو إثبات لعلم الله المطلق، فهو مُنزه عن النسيان الذي يعتري الخلق، فلا يظن ظانٌّ أن تأخر نزول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي أحياناً بسبب أن الله قد نسي محمداً أو تركه[3]، وإنما ذلك لحكمة بالغة يعلمها الله تعالى.

وقوله: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾، فالله مالكُ السموات والأرض وخالقُها، وهو المالك المدبر المتصرف بما فيها من المخلوقات، والفاء هنا تعليلية، فكونه رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقد استحق أن يعبده الخلق، وهذا من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، **والمقصود بالعبادة هنا** المطلقة الشاملة لعبادة

(1) صحيح البخاري: (4/ 112)، برقم: (3218).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 250).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 337).

القلب والجوارح، **والاصطبار**: شدة الصبر على الأمر الشاق[1]، **أي**: اثبت وتحمل أنواع الصبر وشدته، وفرّغ نفسك للعبادة من أجل أن تقوم بها على أكمل وجه، والسؤال استنكاري، فلا يُوجد لله نظير وشبيه ومثيل، ولم يجرؤ أحد أن يُسمي نفسه أو غيره باسم الله[2]، وقد حاول المشركون تعظيم أصنامهم، فاشتقوا اللات من الإله، والعُزى من العزيز، ولكنهم لم يتجرأوا على التسمية بهذا الاسم العظيم، فحفظه الله وجعله خاصاً به سبحانه.!

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾، هذا قول الإنسان الكافر المُكذب بالبعث والنشور[3]، لكن المؤمن لا يُنكره، فإن الكافر يتساءل تساؤل المستنكر المستهزئ بمن يُخبره بذلك، **قائلاً**: هل يمكن أن أخرج من قبري حياً بعد أن تحلل جسدي وصار تراباً؟! **فرد الله عليه، بقوله**: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾، كيف ينكر هذا الإنسان البعث، ويستغرب أن يبعثه الله بعد الموت، ألا يتذكر ويتفكر من أين أتى وكيف وُجد؟! ألم يخلقه الله من العدم، وهي نطفة المني التي قذفها الرجل في رحم المرأة، فمن نفخ فيها الروح وأخرج منها هذا الإنسان؟! لأن النشأة الأولى دليل على الثانية[4]، فالقادر على الخلق الأول من باب أولى قادر على الإعادة له، وكل ذلك على الله يسير.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 142).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 984).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 284).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 985).

وقولـــه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾، ثم أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برب محمد ﷺ، وفي ذلك تشريفه له وإظهار مكانته عند ربه، وفائدة القسم زيادة التوكيد بأن البعث والنشور كائن لا محالة، وأن الله سيبعث الكفار والشياطين، **والمقصود بهم** قرناؤهم من الشياطين الذين أضلوهم، فكل إنسان له قرين من الجن، **كما في الحديث:** **"ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟! قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير"**[1]، فقد يكون هذا القرين شيطانًا يدعو صاحبه إلى الضلال، ثم بعد الحشر يتم إحضارهم وتقريبُهم من النار، فيُساقون إلى أبوابها أذلاء ويلتفون حولها، فيجثون على رُكبهم حين يرونها فزعًا وخوفًا منها قبل أن يدخلوها، لا يستطيعون القيام مما هم فيه[2]، وهو جُثو آخر خاص بالكفار، غير الأول الذي حصل للناس عامة في المحشر خوفًا من الحساب، **كما في قوله:** ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[الجاثية: 28].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾، ثم يبدأ بأكثر الناس عُتواً وجبروتًا، وهم القادة والطغاة الذين أضلوا أممهم، فينزعهم من بين أقوامهم، ويلقيهم في النار قبل غيرهم من أتباعهم الضعفاء، والتعبير بالنزع يفيد أنهم يؤخذون بقوة وشدة، والمقصود بالشيعة هنا الطائفة من الناس التي تتفق على مذهب أو اتباع شخص، وينصر بعضُهم بعضًا، كالنصارى واليهود والبوذيين والهندوس، ونحوهم من أهل المِلل الباطلة.

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 2167)، برقم: (2814).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 338).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾، ثم أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه أعلم بمن يستحق العذاب منهم في جهنم، ونوع العذاب الذي يستحقه، فإن شدة العذاب تكون تبعاً لشدة الإجرام، وهذا من عدل الله تعالى، فليس أهل النار في العذاب متساوين، بل كل شخص يأتيه من العذاب بقدر ذنبه، فإن النار دركات متفاوتة العذاب، لمعاقبة كل مذنب بما يستحقه من العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾، **الخطاب عام لجميع الخلق**، والضمير يعود إلى جهنم، والمقصود بالورود هو المرور على الصراط[(1)]، وهو الجسر المنصوب على متن جهنم، **كما في الحديث**: **"يرد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كعدو الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشد الرجل، ثم كمشيه"**[(2)]، فمن مرّ عليها فقد وردها، **وقيل**[(3)]: الورود هو الدخول إلى جهنم، فأما المسلم فتكون عليه برداً وسلاماً، وأما الكافر فيبقى فيها، والسياق بعده يدل عليه، والقولان محتملان، ولهما أدلتهما من القرآن والسنة[(4)]، **والحتم**: اللازم الواجب الذي لا بد من فعله[(5)]، **أي**: أن

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 143).

(2) مسند الدارمي: (2/ 932)، برقم: (2839)، سنن الترمذي: (5/ 168)، برقم: (3159)، وإسناده حسن.

(3) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 247).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 407).

(5) ينظر: تاج العروس: (31/ 439).

الورود لا بد أن يقع لا محالة؛ فأمره الكوني لا يتخلف، ثم ينجي الله المتقين من عذاب جهنم، فلا يسقطون فيها، على القول بأن الورود هو المرور فوقها، أو أنهم لا يعذبون بحرها، على القول بأن الورود هو الدخول إليها، فجعل النجاة منها مرتبطًا بوصف التقوى، فكل مُتقٍ من أي مِلة وجنس ولون سيُنجيه الله من النار، وهو أمر يستطيع الجميع الحصول عليه والتنافس فيه، ولو جعل الميزان هو الجنس أو اللون لكان في ذلك ظلم للعباد، والله مُنزه عن الظلم، لأنهم لا يختارون جنسهم ولا ألوانهم، ويترك الكفار الظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك بالله في النار لا يخرجون من جهنم، بل يبقون في عذابها، وفي هذا قرينة على أن الورود هو الدخول إليها لجميع الخلق[1]، فالمؤمن يخرج منها، والكافر يبقى فيها جاثيا على ركبته من شدة العذاب والفزع، **والجثي**: شر الجلوس[2].

وقولــه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾، **يخبر الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن حال بعض الكفار في مكة، حين كانوا يُدعون إلى الإيمان، وتتلى عليهم آيات القرآن الواضحة التي تحتوي على الحجج والبراهين لإثبات التوحيد وبطلان الشرك بالله، فيرد الكفار على من يدعوهم من المؤمنين بشبهة: لو كان إيمانكم صحيحًا لكنتم في نعمة ولم تكونوا فقراء ضعفاء، **بمعنى** أن الكفر الذي نحن فيه أحسن من الإيمان الذي أنتم عليه، فالمقام هو محل الإقامة والسكن، **والنَّدِي** من النداوة، وهي جمال

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 348).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 26).

الحال والمنظر، **أي:** أوسع عيشاً[1]، أو من النادي، وهو المجلس الذي يجتمع القوم فيه للمشاورة[2] والشراب، فالنعمة ظاهرة عليهم في مسكنهم وأجسادهم ومحل اجتماعهم، وهذا من جهلهم بسنن الله في الخلق، فقد استدلوا بالنعم الدنيوية على أن الكفر أفضل من الإيمان، وما زالت هذه الشبهة موجودة حتى اليوم، فتجد من يقول: إن الكفار في الغرب أحسن حالاً من المسلمين، فعندهم من الأموال والنعم ما ليس عند المسلمين، فيُقارن أحوال الكفار بأحوال المؤمنين، ويجعل النعم الدنيوية دليلاً على الأفضلية، وهذا من الجهل، فإن الله يعطي الدنيا من أحب ومن لم يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب، ولو أعطى نعم الدنيا للمؤمنين بسبب إيمانهم؛ لآمن الناس كلهم طمعاً في نعم الدنيا، ولو جعل النعم مرتبطة بالكفر؛ لكفر الناس جميعاً طمعاً فيها، ولذلك لم يجعل الله إعطاء النعم للخلق بسبب كفرهم أو إيمانهم.

وقوله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾، "كم" هنا هي الخبرية التي تفيد التكثير، **والمعنى:** أن الله قد أهلك أمماً كثيرة قبل كفار قريش كانوا أحسن حالاً وأكثر نعماً منهم، كقوم عاد وثمود وغيرها من الأمم، فما هي نعم قريش أمام نعم تلك الأمم السابقة؟! فقد كانوا خيراً منهم في البيوت والمساكن وأثاثها، وأفضل منهم منظراً، **والرِّي:** هو أثر النعمة الظاهرة على البدن، فإذا كان هؤلاء المهلَكون أحسن منهم حالاً، ولم يمنعهم ذلك من حلول

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 386).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 348).

العقاب بهم، فكيف يكون بهؤلاء، وهم أقل منهم شأنـًا وأضعف قوة![1].

وقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾، أخبرهم يا محمد! أن من اختار الضلالة ورضي بها، فإن الله يمده منها ويزيده حبـًا لها واغتراراً بها، عقوبة له على ترك اتباع الحق والهدى، وهو نوع من التهديد والوعيد لهم، فإن من علامة خذلان الله للعبد أن يُعطيه النعم مع كفره ليزداد بها ضلالاً وانحرافـًا، وهو نوع من الاستدراج له، كما في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:182]، حتى يأتيهم ما وعدوا به من العذاب الدنيوي، فيرونه بأعينهم، كالقتل والأسر الذي حصل لهم في بدر وغيرها من الغزوات، أو حتى تقوم الساعة فيرون جهنم وما أعده الله لهم فيها من العذاب والخزي والنكال، فهناك سيعلمون الحقيقة، ويتبين لهم بطلان دعواهم بأنهم أفضل حالاً وأحسن مآلاً التي كانوا يتفاخرون بها على المؤمنين المستضعفين في الدنيا، وسيتضح لهم من هو الْمُكرّم عند الله، ومن هو الذليل الحقير بين يديه، ومن هو في منزل ومكان خبيث، قد تفرّق عنه كل من كان معه من الجنود في الدنيا، فلا أحد ينصره ولا يدفع عنه ما نزل به من عذاب.

وقوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾، ومن وفقه الله للهداية ورضي بها زاده منها، وبيّن أن الأعمال

(1) تفسير السعدي: (ص: 499).

الصالحة عموماً وأولها وأعظمها كلمة التوحيد[1]، هي التي يبقى أجرها وثوابها في الآخرة لصاحبها، أما النعم الدنيوية التي كان يفاخر بها الكفار، فإنها تنقطع وتنتهي بالموت، و"**خير**" هنا ليست للتفضيل، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه[2]، فلا مفاضلة بين الباقيات الصالحات وغيرها من أمور الدنيا التي لا تبقى، بل معناها أنها أتم وأكمل نفعاً لصاحبها من غيرها، حيث يمنح الله عليها الثواب والجزاء والأجر العظيم، ويكون مردودها على صاحبها كبيراً يوم القيامة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن نزول الملائكة على الرسل يكون بأمر الله وإذنه، لا بطلب الرسل.

2- أن على المؤمن أن يشتغل بما أُمر به، ولا يشغل نفسه بما لم يُؤمَر به.

3- ورود الخلائق كلهم يوم القيامة على جهنم أمرٌ لا بد منه.

4- أن ميزان الله في العطاء والمنع للنعم غير ميزان البشر، فليس العطاء دليل على الإكرام، ولا المنع دليل على الاحتقار.

5- أن من رضي بالضلالة زاده الله منها، ومن رضي بالهداية زاده الله منها.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 344).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 499).

تفسير المقطع السادس من سورة مريم

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ
عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ
سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ
وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ
عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ
بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ
هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾،

الخطاب لنبيه ﷺ، ويصلح لكل مُخاطَب بعده، هل بلغك يا محمد! نبأ ذلك الشخص الذي كفر بالقرآن الكريم وكذّب به، **وزعم أن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن بعثه في الآخرة سيُعطيه مالاً وولداً؟! والسؤال استنكاري تعجبي، وقد جاء في الصحيح، أن خباب بن الأرَت قال: كان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قال: قلت: لن أكفر به حتى تموت، ثم تبعث، قال: وإني لمبعوث من بعد الموت، فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد، قال: فنزلت هذه الآية[1]، وقد قال هذا على سبيل الاستهزاء به والإنكار للبعث والنشور، والآية على عمومها في كل من يتصف بهذا الوصف.

فرد الله عليه، بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾، من أين علم أنه سيُعطى المال والولد في الآخرة مع كفره بالله في الدنيا، هل كُشف له اللوح المحفوظ فاطلع على ما فيه[2]، فرأى أن الله قد كتب له ذلك؟!، أم هل له عهد عند الله بالإيمان به واتباع رسله والعمل الصالح[3]، فهو يرجو أن يعطيه الله ذلك وفاءً بعهد الله لأوليائه المتقين؟!، **والواقع** أنه لم يحصل من ذلك شيء، بل رد الله عليه، **بقوله: "كلا"**، وهي كلمة ردعٍ وزجر لإبطال ما سبق ذكره، فهو لم

(1) صحيح البخاري: (6/ 94)، برقم: (4735).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 350).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 388).

يطلع على الغيب، وليس من المؤمنين المتقين، بل كل ما يقوله كذب وادعاء باطل، وسيكتب الله كل ما يقوله من الكفر والكلام الباطل في صحائف أعماله، ثم يعذبه الله على كفره، ويزيده عذاباً فوق عذابه[1] بسبب تقوُّله على الله وادعائه بأن له مكانة عند الله، وسيترك المال والولد الذي معه في الدنيا، ووراثتها كناية عن هلاكه وتركها لغيره[2]، ولا يُعطى ما ادعى، بل يسلب ما معه في الدنيا من المال والولد ويبعثه الله يوم القيامة بمفرده خالياً منهما، وقد مات على الكفر وحيداً، وأسلم ابناه عمرو وهشام، وكانا من خيرة الصحابة.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾، يخبر الله عن المشركين الذين اتخذوا لهم آلهة غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يعبدونها ويعتزون بها، لتنقذهم من الهلاك، وتمنع عنهم العذاب، **فرد الله عليهم بقوله: "كلا"**، فهذا الاعتزاز لا وجود له في الواقع؛ لأن ما اتخذوه من آلهة هي عاجزة عن النفع والضر، ولا تُغني عنهم شيئًا، بل إن هذه الآلهة ستتبرأ منهم يوم القيامة، فتكفر بمن عبدها وتتحول إلى الجهة المُضادة المعادية لهم، تخاصمهم وتكذبهم.!

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾﴾، **الهمزة** للاستفهام، والرؤية قلبية وتعني العلم، والخطاب لرسول الله ﷺ، ويصلح لكل مُخاطَب يأتي بعده، والإرسال هنا

(1) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 254).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 989).

بمعنى التسليط[1]، فإن الله يسلط الشياطين على الكافرين فيدفعونهم ويُهيجونهم لفعل المُنكر والمعصية، **والأزُّ**: التهييج والإغراء[2] والتحريك، **ومنه أزيز المِرجَل**، وهو صوت ماء القدر إذا اشتد غليانه، **والمعنى** أنها تحركهم كما يتحرك الماء بالإيقاد تحته[3]، فلا تستعجل يا محمد هلاكَهم، فقد جعل الله لهلاكهم موعداً، فإن سنة الهلاك للكفار تأتي بعد سنة الإمهال لهم، ويصلح الخطاب لكل مُؤمن يتعرض لأذية الكفار بعده، **فمثلاً نسمع الناس اليوم يقولون**: قد طغى اليهود والنصارى والصليبيون في الأرض فساداً، ودمروا الحرث والنسل، فمتى يُهلكهم الله؟!، **الجواب**: لا تعجلوا عليهم، فأمرهم بيد الله، وساعة هلاكهم محددة عنده، وكلما كثُر طغيانهم وبغيهم فقد اقترب أجلهم، فإن الله يحصي الساعات والليالي والأيام والشهور والسنين من أعمارهم[4]، وهم يسيرون إلى نهايتهم المُقدرة لهم، وسيهلكون في الوقت المحدد الذي كتبه الله عليهم، وفي الآية وعيد وتهديد لهم.

وقولــــه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾، واذكر يا محمد! للناس يوم القيامة الذي يتم فيه بعث الناس **وجمعهم إلى ساحة المحشر بين يدي الله على صنفين، الصنف الأول**: المتقون، وهم المؤمنون الذين بلغوا أعلى درجات الإيمان وهي التقوى، فهؤلاء

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 345).

(2) ينظر: تاج العروس: (15/ 15).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 325).

(4) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 255).

يحشرون على هيئة الوفود، وهم القادمون ركبانًا[1]، معززين مُكرمين تستقبلهم الملائكة وتحفهم وتُكرمهم، لأنهم وفد الرحمن، فينزلهم الله جنته التي أعدها لهم، **والصنف الثاني**: الكفار المجرمون الذين يساقون مشاة عطاشًا أفراداً[2]، تدفعهم الملائكة من خلفهم دفعًا إلى جهنم، وهم شديدو العطش، قد مُنعوا من الشراب في المحشر، واشتدت عليهم الحرارة وكثر عرقهم من طول وشدة وهول الموقف، والوِرد هو المسير إلى مكان الماء للشرب منه[3]، والتعبير بلفظ السَّوق يفيد معنى الإهانة والتحقير لهم.

وقوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾، لا يملك العباد الشفاعة، فإنها كلها لله، فهو مالكها وواهبها لمن يشاء من عباده، وهم الذين استثناهم الله، فإذا فسرناها بالشفاعة العامة في الآخرة، فالذي اتخذ عهداً بها عند الله هم المؤمنون، والعهد هو الإيمان بالله وتوحيده والعمل الصالح، فلا يشفع إلا المؤمنون ولا تكون الشفاعة منهم إلا للمؤمنين[4]، فإذا فسرنا الشفاعة هنا بالشفاعة العظمى يوم القيامة؛ فالذي اتخذ عهداً بها عند الله هو محمد ﷺ[5]، فهي خاصة به، **كما في الحديث: "وأعطيت الشفاعة"**[6].

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 263).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 414).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 43).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 265).

(5) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 991).

(6) صحيح البخاري: (1/ 74)، برقم: (335).

وقولــــه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾، **الضمير يعود إلى الكفار الذين نسبوا الولد إلى الله، وهم ثلاثة أصناف: اليهود** الذين قالوا: عزير ابن الله، **والنصارى** الذين قالوا: المسيح ابن الله، **والمشركون** الذين قالوا: الملائكة بناتُ الله، ويلحق بهم غيرهم ممن ينسب الولد إلى الله، تعالى الله عما يقولون عُلواً كبيراً، ثم بيّن عظم قبح هذا القول وبطلانه، وأنه فِريةٌ عظيمة في حق الله، **والإدّ:** الأمر الشنيع الصعب[1]، ومن قبح هذا القول الشنيع تكاد السموات أن تتشقق، والأرض أن تتصدع، والجبال أن تتمزق وتسقط متقطعة غضبًا واستنكاراً له، فما لكم أنتم لا تستنكرونه؟! وهو أسلوب مبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول، بحيث إنه لو بلغ إلى الجمادات العظيمة لغيّر كيانها وأفسد نظامها[2]، وهو نسبة الولد إلى الله، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً.

وقولـه: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾، ولا يصح أبداً ولا يجوز أن يُنسب الولد إلى الله سبحانه؛ لأنه ليس محتاجًا إليه، ولا يليق به، لأن اتخاذ الولد يقتضي المجانسة، والله تعالى منزه من أن يجانس شيئًا أو يجانسه شيء، ومحال في وصفه اتخاذ الولد[3]، بل هو مُنزه عن ذلك كله، لأن اتخاذ الولد يلزم منه اتخاذ الزوجة، فلا ولد إلا من زوجة، وهذه أشد قبحًا من الأولى، فنفي اتخاذ الولد هو نفيٌ لاتخاذ الزوجة.

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 33).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 171).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 338).

وقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾، فالخلق كلهم عبيد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، بمن فيهم الملائكة وعيسى وعزير، خلقهم لعبادته، والإحصاء أبلغ من العد، فالإحصاء معرفة جزئيات المعدود وتفاصيل صفاته، والعد معرفة مجموع عدده، وجمع بين الأمرين للتوكيد والدلالة على إحاطة علم الله المطلق بالخلق عدداً ووصفًا، فلا يخفى عليه من حالهم شيء، وكل الخلق سيبعثهم الله يوم القيامة ويأتونه، كل واحد بمفرده، لا مال معه ولا ولد ولا جاه ولا سلطان، كما وُلد من بطن أمه وحيداً عاريًا، بلا معين ولا ناصر.

وتكرار اسم الرحمن في هذه الآيات عدة مرات يشير إلى عموم رحمته للخلق مهما فعلوا، وأنها شاملة لكل موجود، وأن كل موجود مفتقر إلى رحمة الله تعالى، وأنه لا يحصل عليها كاملة إلا بتحقق العبودية لله سبحانه[1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾، أخبر الله عن تفضله ورحمته بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات، بأنه سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودةً، **وفي الحديث**: **"إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض"**[2]، **وفيها بشارة للمؤمنين الصالحين** بتحبيبهم إلى قلوب العباد؛ لأنهم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 173).

(2) صحيح البخاري: (4/ 111)، برقم: (3209).

أرضوا خالقهم فرضي عنهم وأرضى عنهم الخلق.

وقولــه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾، **الخطاب لمحمد** ﷺ، والضمير يعود إلى القرآن الكريم الذي يسّر الله إنزاله باللسان العربي، من أجل أن يُبشر به المؤمنين الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه، وينذر به كفار قريش الذين يكثرون من الخصام والجدال فيه، والألدّ: الشديد الخصومة[1].

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾، كم الخبرية التي تُفيد التكثير، فقد أهلك الله أممًا كثيرة من الكفار قبل كفار مكة بسبب كفرهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم عاد وغيرهم، هل تشعر بوجود أحد منهم الآن، أو تسمع لهم صوتًا خفيًا؟!، فقد أهلكهم الله جميعًا فلم يبق منهم عين ولا أثر، وبقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين[2].

وفي الآية تهديد ووعيد لكفار قريش إذا استمروا في طغيانهم، فليسوا أكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الكافرة.

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 347).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 501).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان سخافة عقول بعض الكفار الذين يستدرجهم الله بالنعم فيظنون أنهم مُكرمون عند الله.

2- بيان تسلط الشيطان على الإنسان المعرض عن الله وتشجيعه له على الباطل.

3- بيان مكانة المتقين عند الله في الآخرة، حيث يُحشرون على هيئة الوفود تستقبلهم الملائكة وتُدخلهم الجنة.

4- بيان أن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سبب لقبول الخلق للعبد وحبهم له.

5- تكريم الله للعرب بإنزال القرآن وتكليفهم بنشره والدعوة إليه.

تفسير سورة طه

تفسير المقطع الأول من سورة طه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا
مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا
فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ
أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا
ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ
﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن
لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ
عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ
ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة طه؛ سورةٌ مكية[1]، نزلت في مكة قبل الهجرة، **والمقصد العام لها** هو بيان أن السعادة في القرآن واتباعه، وأن الشقاء في مخالفة القرآن الكريم وأحكامه.

وافتُتحت بقوله: ﴿طه ۝١﴾، وهما حرفان من حروف الهجاء، وقد **اختلف المفسرون في تفسيرها على عدة أقوال**[2]، **منها:** أنها اسمٌ من أسماء الله تعالى، **وقيل:** إنها اسم لرسول الله ﷺ، ولم يرد دليلٌ صحيحٌ على هذا، ولعل الذي دفعهم إلى ذلك هو ما جاء بعده من خطاب لرسول الله ﷺ، **وقيل معناها:** يا رجل، **وقيل** غير ذلك، والراجح أنها من الحروف الهجائية التي تتكوّن منها لغة العرب، والحروف لا معنى لها، **وأن الحكمة من ذكرها** هو بيان إعجاز القرآن الكريم الذي يتكوّن من هذه الحروف التي يتكلم بها العرب وقد عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله.

ثم قال سبحانه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾، نفى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يكون قد أنزل القرآن على رسوله محمد ﷺ ليحصل له منه العناء والتعب، أو لمن اتبعه وآمن به في الدنيا وفي الآخرة، بل هو سببٌ ووسيلة لسعادتهم جميعًا في الدنيا والآخرة، **وأصل الشقاء في اللغة:** الشدة والعسر[3]، وقد يكون الشقاء حسيًا

(1) تفسير ابن كثير: (5/ 271).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 420).

(3) تاج العروس: (38/ 386).

بتعب الأجساد، أو معنوياً بتعب النفوس، فنفى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن حامل القرآن المؤمن به الشقاء الحسي والشقاء المعنوي، قيل: إن كفار قريش لما رأوا النبي ﷺ بعد أن نزل عليه القرآن يقوم به الليل هو وأصحابه، قالوا: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأكذبهم الله بهذه الآية[1]، **وقيل**: المقصود به التأسف على كفر الكفار، واللفظ عام في ذلك كله، فقد نفى عنه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة، لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب السعادة[2].

وقوله: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾، "**إلا**" أداة استثناء مُنقطع[3]، **بمعنى**: "**لكن**"؛ لأن التذكرة ليست من جنس الشقاء المنفي، لكن أنزلناه موعظة وتذكرة لمن يُقبِل على الله ويخشاه ويخاف عقابه، وخص الذكرى بأصحاب الخشية؛ لأن قلوبهم مليئة بالتعظيم لله سبحانه، فإن الخشية هي الخوف المصحوب بالتعظيم.

وقوله: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤﴾، نُصب "تنزيلاً" على المصدرية، **أي**: أنزلنا القرآن تنزيلاً[4]، والذي نزّله هو الله سبحانه، وعبّر عنه بالوصف لبيان قدرته وعظمته وجلاله، فهو خالق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخالق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقدّم ذكر الأرض هنا وأخّر السموات وذكر وصفها مراعاة لفواصل الآيات.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 272).

(2) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 5).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 356).

(4) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 350).

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾، وهو سبحانه الذي استوى على العرش وهو أعظم المخلوقات، وعبّر باسمه الرحمن لِيُشعِر العباد برحمته بهم رغم علوّه عنهم، والاستواء هنا بمعنى العلو الذي يليق بجلاله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من غير تحريف ولا تأويل ولا تعطيل، خلافًا لمن يُؤوله بالاستيلاء، وهم عامة الفِرق المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، وهو قول ضعيف، لأنه يقتضي أن يكون هناك إله غير الله قبله فقهره وهزمه، واستولى على عرشه، وهو ضعيف من حيث اللغة، فلم يثبت عند أحد من أهل اللغة أن لفظة استوى يصح استعمالها بمعنى استولى، بل هو قول منكر عند اللغويين، وإنما ذكر في بيت شعر ينسب إلى الأخطل النصراني، وهو من شعراء العصور المتأخرة الذين لا يستدل بشعرهم في اللغة، لو ثبت عنه، وهو غير موجود في ديوانه، وقد أنكره غير واحد من أئمة اللغة[1]، **وهو قوله:**

قد استوى بشرٌ على العراق ... من غيرِ سيفٍ أو دمٍ مِهراقِ

وثبت عن الإمام مالك قوله: "الاستواء معلوم، **أي:** معناه في اللغة، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"[2]، وهذه قاعدة مطردة في جميع أسماء الله وصفاته، فلا تسأل عنها بكيف، بل صدق بمعناها الذي يليق بالله سبحانه، وفوض كيفيتها إلى الله، ولا تشبه ولا تعطل، **قال الله:** ﴿لَيۡسَ

(1) ينظر: العرش للذهبي: (1/ 202).

(2) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: (ص516)، وذكره الحافظ في الفتح: (13/ 406)، وقال: إسناده جيد.

كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾[الشورى:11].

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾، له كل ذلك مُلكًا وتدبيراً، خلقًا وإيجاداً، فهو خالق الكون كله ومالكه والمتصرف فيه والمدبر لشؤونه، ويشمل كل ما بين السماء والأرض من مخلوقات، والثرى هو التراب، وما تحته، **أي**: باطن الأرض كلها[1]، فكل ذلك ملك له سبحانه.

وقوله: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾﴾، **أي**: جهرت أو لم تجهر، فالله يعلم ما جهرت به وما أسررت به، **والسر هو**: ما تُسره النفوس من خواطرها، **والأخفى من السر هو**: ما علمه الله مما أخفاه عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائن ولم يكن بعد[2]، وهو الأشياء الغيبية الجديدة التي تطرأ على النفس، وفي الآية إشارة إلى إحاطة علم الله بكل شيء، وأن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها وجليلها، خفيها وظاهرها، وفي الآية تطمين لرسول الله ﷺ، بأن ربه معه يسمعه، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند، بل هو معه بعلمه وتأييده ونصره وتوفيقه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾، ثم بيّن أنه وحده المستحق للعبادة، فلا إله غيره، ولا رب سواه، وله سبحانه الأسماء الحسنى البالغة في الحسن والجمال والكمال، **وفي الحديث**: **"إن لله تسعةً وتسعين اسمًا**

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 188).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 274).

من أحصاها دخل الجنة"[1]، **أي:** حفظها وعمل بمقتضاها ودعا الله بها، وأسماء الله كثيرة غير محصورة بعدد، ولكن هذه التسعة والتسعين تفضل بها الله على خلقه، وأعلمهم بها ليسألوه بها، **فقد ثبت الحديث:** **"اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا"**[2]، **والشاهد من الحديث** أن ما استأثر الله به في علم الغيب عنده لا يُعلم عدده، فدل ذلك على أنها ليست محصورة بما ذكر.

وقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾، **الخطاب لرسول الله ﷺ**، والاستفهام للتقرير وغرضه التشويق، والهدف منه التسلية لنبيه محمد ﷺ مما يلقى من الشدّة من كفار قومه، ويحثه على الصبر عليهم، وأن يتعظ بما حصل لأخيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قبله مع فرعون وقومه، فخبره من أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم، وقد ذكره هنا بإيجاز، وفصله في سور أخرى، وقد بدأ القصة هنا من حين عودة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من مدين بعد أن مكث فيها عشر سنين يرعى الغنم للرجل الصالح الذي زوجه ابنته، فلما انتهى عقد الإجارة معه؛ خرج

---

(1) صحيح البخاري: (3/ 198)، برقم: (2736).

(2) مسند أحمد: (6/ 246)، برقم: (3712)، صحيح ابن حبان: (3/ 253)، برقم: (972)، وإسناده صحيح.

بزوجته متجهًا نحو مصر[1]، وكان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رجلاً صاحب غيرة، ومن شدة غيرته أنه سافر بأهله دون رفقة، وكان خروجه من مدين في فصل الشتاء، فلما وصل إلى وادي الطور ودخل عليه الليل؛ قدح بزناده عدة مرات فلم يقدح له الزناد ليوقد له ناراً يستضيئ بها ويستدفئ منها، فظهر له في جانب الوادي نار، فلما رآها اطمأنت نفسه إليها وأنست بها، وانشرح صدره بالذهاب إليها، فطلب من أهله أن ينتظروا مكانهم حتى يذهب إلى مكان النار ويعود إليهم بأحد غرضين: إما إن يأتيهم بشعلة من هذه النار لكي يشعل بها ناراً يستدفئون بها، **كما قال في آية أخرى:** ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص:29]، **والقبس هو** العود الذي في رأسه نارٌ مشتعلة[2]، به ضوء يبدد الظلام من حوله، أو لعله يجد شخصًا عند النار يدله على الطريق، مما يدل أنه كان قد ضل عنها، وقد وجد هاديًا يدله على طريق أعظم مما كان يريد، وهذا من لطف الله وإحسانه بعباده! فقد يكون الإنسان يأمل في شيء يسير؛ فيُعطيه الله أعظم مما يطلب.!

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾، فلما وصل قريبًا من النار وجد ناراً تشتعل في شجرة خضراء ليس فيها حرارة النار ولا تُؤثر فيها خضرة الشجرة وماؤها، فوقف متعجبًا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة تلك الشجرة[3]! فسمع صوتًا يناديه: يا موسى! ولا

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 275).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 276).

(3) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 171).

يدري موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من المنادي، فقال: من المنادي؟! فأجابه المنادي: بأنه الله ربه، فشعر بالاطمئنان والراحة، ثم أمره بخلع النعل، فالمكان مقدس قدسه الله ونزهه، وهذا درس في التواضع والأدب المطلوب بحضرة الله واحترام المكان المقدس[1]، ولكي يباشر بقدميه بركة الوادي إذ كان واديًا مقدسًا[2]؛ فيأتيه من بركته وخيره، وهو أدب مطّرد في كل مجلس علم في مكان مقدس، فكلما كان العبد متواضعًا متأدبًا مع الله؛ كلما جاءته البركات والنفحات، **واسم الوادي المقدس "طُوى"، وسمي بذلك** لأنه طويت عليه البركة[3]، أو لأنه واد مستدير عميق مثل البئر المطوية في استدارتها[4].

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾، فلما خلع نعليه وتواضع لربه جاءته من البركات من ربه، فأخبره الله أنه قد اصطفاه واجتباه من بين سائر الناس ليكون رسولاً، فعليه أن يستمع وينصت لما سيوحيه الله إليه بكلامه له من وراء حجاب، وهو أحد أنواع الوحي، **كما قال:** ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[الشورى:51]، فأوحى الله إليه بإقامة التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وترك الشرك ونواقض التوحيد، وأمره بإقامة الصلاة، وهي أحد مفردات العبادات البدنية، وهي من أصول العبادات التي اتفقت عليها جميع الشرائع،

---

(1) ينظر: أضواء البيان، للشنقيطي: (4/ 192).

(2) ينظر: تفسير الطبري (16/ 144).

(3) ينظر: تفسير الثعلبي: (6/ 240).

(4) ينظر: تفسير الخازن: (3/ 202).

وإن اختلفت في تفاصيلها، **وفي تفسير "لذكري" معنيان**[1]**، الأول**: أن اللام لام التوقيت بمعنى عند تذكرك الصلاة فأقمها في ذلك الوقت، **وقد جاء تفسيرها في الحديث**: **"من نام عن صلاة أو نسيها فليصليها إذا ذكرها، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾"**، **والمعنى الثاني**: أن اللام لام التعليل، أي لتذكرني بها، فإن الصلاة صِلة بين العبد وربه، ووسيلة لذكر الله، بل محتوى الصلاة كله ذكر وتسبيح له سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾، وأوحى إليه بوجوب الإيمان بالساعة؛ لأن عموم الكفار والمشركين كانوا يُنكرون قيام الساعة والبعث والنشور، و"**أكاد**" من أفعال المقاربة، و"**أُخفيها**" من الخفاء، **والمعنى**: من شدة إخفائي لموعد وقوعها؛ أكاد أُخفيها عن نفسي، فكيف يعلمها مخلوق؟!‏[2]، ولكن وقوعها كائن لا محالة، وفائدة الإخفاء الشديد للتحذير والتخويف، فمن لم يعلم متى يهجم عليه عدوه كان أشد حذراً منه[3].

والحكمة والغاية من البعث والنشور وقيام الساعة لكي يجازى الله كل شخص بعمله؛ لأن الدنيا لا يتحقق فيها العدل لكل الخلق، فمهما حاولوا ذلك، فسيبقى بعضهم مظلومـًا، ولن يتحقق العدل الكامل إلا في الآخرة، حيث تجازى

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 154).

(2) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 372).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 154).

كل نفس بما عملت من خير أو شر، ثم أوصاه ربه بأن لا يشغله ولا يُبعده الكفار الذين لا يُؤمنون بالساعة عن الاستعداد لها؛ فإن إنكارهم لها سبب لصد الآخرين عن الإيمان بها والاستعداد لها، وليس معهم حجة في ذلك إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من الباطل، ومصير من يفعل ذلك هو الهلاك والسقوط في جهنم، والعياذ بالله، وفي هذا الآية إشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل يصد عن الإيمان بالله والعمل الصالح.

وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾، ثم سأل الله تعالى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سؤال تقرير، فالله يراها ويعلم أنها عصى، وإنما سأله عما بيده ليوقن أنه ممسك بعصاه حتى إذا انقلبت حية لم يشك في أن تلك الحية هي التي كانت عصاه[1]، وهو سؤال تلطف وتطمين لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن الحديث مع الشخص يدخل الأُنس عليه، ويدل على ذلك إجابة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ المفصلة بذكر العصا وفوائدها ليستأنس بالحديث مع ربه، والتوكؤ: هو الاعتماد عليها عند المشي[2]، **والهش**: هو ضرب الشجرة وهزها بها لكي يتساقط ورقها فتأكله الأغنام[3]، ثم ذكر أنه له حاجات أخرى كثيرة، يستخدم العصا لتحقيقها، ومنها ضرب السباع والهوام بها، وسوق الغنم، وأن يضعها على كتفه ويحمل عليها

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 205).

(2) ينظر: لسان العرب: (8/ 4904).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 379).

بعض الأمتعة، ونحوها من المنافع.

وقولـــه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ٢١﴾، فأمره الله أن يرميها من يده، فرماها، فتحولت إلى حية ضخمة تتحرك وتجري، فلما رأى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك خاف وفر هاربًا منها، **كما في قوله:** ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[القصص:31]، فلما هرب ناداه الله بأن يرجع، فرجع وما زال خائفًا، فأمره الله أن يأخذها وهي حية ونهاه عن الخوف منها، فوضع يده في مدرعته، وكان له جُبة من صوف، فمسكها بها من جهة رأسها[1]، فلما مسكها أعادها الله إلى هيئتها وحالتها الأولى فصارت عصا من الخشب كما كانت، فهذه المعجزة الأولى التي منحها الله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا المكان.

وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ٢٢﴾، ثم أمر الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يُدخل يده من فتحة القميص وهو الجيب الذي يكون في الصدر، **كما قال:** ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾[النمل:12]، ويضمها إلى أن تصل إلى إبطه، فكل خائف مرعوب من ظلمة أو نحوها فإنه إذا ضم يده إلى جناحه ذهب خوفه ورعبه[2]، **واليد للإنسان** بمثابة الجناح للطائر، **ثم أمره** أن يخرجها فخرجت بيضاء عليها نور وبياض كقطعة من القمر[3] ليلة البدر من

(1) ينظر: تفسير ابن كثير:(5/ 280).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 42).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير:(5/ 280).

غير برص ولا مرض، وجعلها برهانًا ثانيًا ومعجزةً أخرى له بجوار العصا.

وقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾، اللام للتعليل، فإن الحكمة والغاية من ذلك أن يري الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعضًا من معجزاته الكبرى التي لا يقدر عليها مخلوق، وهي تحوّل العصا إلى ثعبان وخروج اليد بيضاء من غير مرض؛ لتدريبه عليها لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون[1]، وقيل: إن المقصود بالآية الكبرى هنا هي آية اليد[2] حين خرجت بيضاء من غير مرض، والأول أرجح، فلم يكن في اليد إلا تغير اللون فقط، بخلاف العصا فإن فيها مع تغير اللون الزيادة في الحجم، وخلق الحياة فيها، والقدرة على الأمور الخارقة[3].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل القرآن الكريم لتحقيق السعادة والاطمئنان للبشرية، وفي هذا رد على الملحدين والمجرمين الذين يقولون: إن الإسلام سبب للفقر والتخلف في أمة الإسلام.

2- إثبات معاني جميع أسماء الله وصفاته على المعنى الذي يليق بالله سبحانه، وتفوض كيفيتها إلى الله من غير تشبه ولا تعطل ولا تحريف.

3- مشروعية التواضع والتزام الأدب في مجالس العلم وحِلق الذكر وأماكن قراءة القرآن وتطهيرها من النجاسة والأقذار.

---

(1) ينظر: تفسير البغوي: (5/ 270).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 191).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 428).

4 – أن حسن الاستماع نصف العلم، وهذا من آداب طلب العلم، فلا بد لطالب العلم أن يكون منتبهاً أثناء حضور الدرس بجسده وقلبه.

5 – أن الله أرى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعضاً من معجزاته العظيمة التي لا يقدر عليها مخلوق قبل أن يذهب بها إلى فرعون من باب التدريب له؛ لئلا يفزع منها إذا ألقاها عنده.

تفسير المقطع الثاني من سورة طه

﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾
وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ
بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا
﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ
مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ
وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن
يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ
فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾
ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا
لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ
إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾، أمر الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن كلّمه وأراه بعضاً من آياته الكبرى، وهي تحول العصا إلى حية تسعى، وإخراج يده من تحت جناحه بيضاء من غير مرض، أن يذهب إلى فرعون، وهو

من أكبر الطغاة في الأرض ذلك الوقت، وكان حاكم مصر؛ ليدعوه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يترك الطغيان، وهو تجاوز الحد في الكفر والفسوق والإجرام، وهو تكليف عظيم من شأنه أن يدخل الخوف في نفس المأمور به، ويحتاج إلى عوامل ومؤهلات تعينه على ذلك، **فلذلك طلبها من الله سبحانه، بقوله:** ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾، لأن المهمة عظيمة والمسؤولية كبيرة، وتوفير هذه المؤهلات تُعينه على النجاح فيها، ولم يعتذر عن تنفيذ الأمر مع رهبته منه؛ لأنه لا يجوز لأحد أن يعتذر عن العمل مع الله، فالرسالة والنبوة اصطفاء من الله، والدعوة إلى الله وإبلاغ دينه تشريف للعبد، والعلماء هم ورثة الأنبياء، فإذا يسر الله لك أن تكون طالب علم أو داعية إلى الله؛ فهذا اصطفاء لك وتشريف، فلا تعتذر عن العمل مع الله، واطلب منه أن يُعينك ويوفقك، كما فعل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **فقد طلب من ربه عدة أمور، أولها:** أن يشرح له صدره؛ لأن مهمة الدعوة والبلاغ وتحمل أمانة الرسالة أمر يحتاج إلى سعة صدر وانشراح، **وهو ما يطلق عليه اليوم بمصطلح "الصحة النفسية العالية"**، حتى تتحمل الأذى والإزعاج من المخالفين لك، ويكون صدرك واسعًا مع كل المدعوين؛ فتُقابلهم بالعفو والصفح وسعة الصدر عن كل ما يصدر منهم من أذى وإعراض، وأن تستمر في دعوتهم والصبر عليهم، وإياك أن تُصاب بالإحباط واليأس والقنوط والغضب والحماقة من أول خطوة، فإن ذلك سبب لفشلك في مهمة الدعوة والبلاغ والتعليم، وتذكر حال الأنبياء والرسل مع أقوامهم وصبرهم عليهم، فموسى

طلب من الله أن يشرح له صدره، فاستجاب له، **وأعطاه الله لمحمد ﷺ بدون طلب منه، فقال:** ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾[الشرح:1]، **وثانيها:** أن ييسر له أمره، والمقصود به الشأن كله، **أي:** اجعل شأني كله يسيراً، فيشمل كل شأن له في الحياة، فيكون يسيراً لا صعوبة فيه ولا عسر، وهذا أيضاً مطلب مهم للداعية لكي ينجح في دعوته؛ لأن العقبات في طريقه كثيرة، فطلب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الله أن ييسر له ويُمهد له كل العقبات في حياته، وهو الشيء الذي امتن الله به على محمد ﷺ بدون طلب منه، **كما في قوله:** ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الأعلى:8]، **وثالثها:** أن يحلل له عقدة من لسانه، وهي الصعوبة في نطق بعض الحروف، وسببها أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان في حجر فرعون وهو صغير، فجرَّ لحية فرعون بيده، فتوجس منه وهمَّ بقتله، فقالت زوجته: إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك، قدّمْ إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل، فقدَّم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه(1)، فأثرت الجمرة على لسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فأدى ذلك إلى ضعف النطق لديه، فطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُصلح له لسانه؛ لكي يفهم الناس قوله، فالدعوة إلى الله حوار ونقاش وكلام، وكلما كان الداعية إلى الله فصيحاً بليغاً متمكناً من أسلوب الحوار والنقاش والخطابة؛ كلما تأثر به الناس وانفتحت له القلوب قبل الآذان، ولأن مهمة الرسل هي البلاغ، **كما قال:** ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[الشورى:48]، وهي تحتاج إلى لسان منطلق غير متلعثم، ليتحقق به البلاغ المبين.

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 192).

وقولـــه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾، ثـــم طلـــب موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من ربه طلبًا رابعًا بأن يصّير له وزيراً من أهله، يُؤازره ويُعاونه في الدعوة والبلاغ، والوزير مأخوذ من المؤازرة، وهي المعاونة[1]، وخص بهذا الطلب هارون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أخو موسى الأكبر منه، فقد وُلد في السنة التي كانت قبله، وكان فرعون يترك فيها قتل مواليد بني إسرائيل، وبيّن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الهدف والغاية من إشراك هارون معه، وهو أن يكون مُعاونـًا ومؤازراً له في الدعوة والبلاغ، والشد هو التقوية للشيء بغيره، والأزر يأتي بمعنى القوة والظهر[2]، **أي**: قوِ به معنوياتي وقدراتي، لكي يعاونني في مهمتي، كما طلب من ربه طلبًا خامسًا وهو: إشراك هارون معه في النبوة وتبليغ الرسالة، وهذا من حبه الخير لأخيه، فشفع له عند ربه، وهي شفاعة من أعظم وأفضل الشفاعات في الدنيا، لتعلقها بأمر ديني، فإن النبوة منّة ورحمة وفضل من الله يصطفي لها من يشاء من خلقه. وبيّن الحكمة من هذه الطلبات الخمسة السابقة كلها، وهي أن تكون هذه الأمور معينة لهما على القيام بتنزيه الله وتقديسه والإكثار من ذكره سبحانه، فإن توفر هذه النعم للعبد من أعظم ما يعينه على عبادة الله وذكره وتعظيم أمره ونشر دينه.

ثم ختم طلباته بالثناء على الله وتفويض الأمر إليه، وأنه أعلم بما فيه

---

(1) ينظر: أساس البلاغة: (2/ 331).

(2) ينظر: تاج العروس: (10/ 42).

صلاحهم، ويعلم حاجتهم إلى تحقيق تلك الطلبات، ويعلم نيته وهدفه من طلبها، والبصير هو العالم بتفاصيل جزئيات الأشياء سبحانه.

وقوله: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾، فرد الله عليه بأنه قد استجاب لطلبه وحقق له رغبته وأعطاه كل ما سأله من ربه سبحانه، فشرح له صدره، ويسر له أمره، وحلّ له عقدة لسانه، وجعل هارون أخاه وزيراً له، وأشركه في النبوة معه، وبقي على موسى وأخيه هارون العمل الذي من أجله سأل ربه، وهو كثرة التسبيح والذكر لله والقيام بالدعوة إلى دينه على أكمل وجه.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾، **ثم ذكر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بما سبق من النعم العظيمة التي منحه إياها قبل هذه النعم التي طلبها، فقد أعطيناه نعماً أخرى غير هذه النعم وسابقة عليها لم يتعب في طلبها ولا تحصيلها، فعليه أن يتذكرها، ثم بدأ بتعديد هذه النعم عليه، فأول هذه النعم أنه أنعم على أمه بنعمة الإلهام الصادق وهو ما يلقى في النفس من خبر تطمئن النفس إليه وتجزم بصدقه[1]، فقد كان الذباحون من آل فرعون يمرون على بيوت بني إسرائيل يبحثون عن أي مولود ذكر ليذبحوه كائناً من كان، فألهم الله أم موسى بأن تأخذ ولدها الرضيع وتضعه في تابوت، وهو المهد الذي يصنع للطفل لينام فيه، ثم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 216).

أمرها أن تضع التابوت في البحر، والمقصود به هنا نهر النيل[1]، فقد كانت منازل بني إسرائيل على إحدى ضفتيه ومنازل آل فرعون على الضفة الأخرى، وبيّن لها أن الماء سيسوقه بموجه الهادئ حتى يُوصله إلى ساحل الجهة الأخرى حيث منازل آل فرعون وقصورهم، والساحل هو طرف النهر من الضفة الأخرى، وسُمي ساحلاً؛ لأن كثرة حركة الماء عليه ذهابًا وإيابًا تسحل التراب منه وتسحبه[2]، فيصير ترابه ناعمًا، وعندما وصل التابوت إلى ذلك الساحل رآه أحد خدم فرعون القريبين منه فذهب به إلى زوجة فرعون، وهي آسية بنت مزاحم، وسمى فرعون عدوا لله؛ لأنه ادعى الألوهية والربوبية، وهو عدو لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه هو الذي أصدر أمر قتله، ومن أجل حماية موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من القتل ألقى الله عليه المحبة، فلا يراه أحدٌ إلا أحبه، بسبب جماله، وما يقذفه الله من حب له في القلوب، وهو ثمرة لحب الله للعبد، **كما في الحديث**: **"إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل أني أحب فلانًا فأحبه، ثم يوضع له القبول في الأرض"**[3]، فلمّا رأته امرأة فرعون أحبته، وأعجبت به، وقالت لزوجها: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾[القصص:9]، فتركه فرعون لها ولم يقتله، وأذن لزوجته أن تُربيه في قصره، فتم تربيته تربية مُكتملة تحت رعاية الله وعنايته، في قصر عدوه وبين يديه، يحظى بكل رعاية وعناية من حاشية فرعون وخدمه.

(1) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 394).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (2/ 1645).

(3) صحيح البخاري: (8/ 14)، برقم: (6040).

وقوله: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾، وهذه من النعم التي أنعم الله بها على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في صغره، وهي: نعمة إرجاعه إلى أمه، فقد ذكر الله موسى بها فأخبره بقصة أخته التي دلها الله على مكانه والتعرف عليه، حين أمرتها أمها بتتبع أثره ومعرفة مكانه، فلحقت أخته به تبحث عنه، وكانت كبيرة تعقل[1]، وكان الله قد منع عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبول الرضاعة من غير أمه، **كما قال:** ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص:12]، وكان ذلك سبباً لوصول أخته إليه؛ لأنهم اضطروا إلى أن يخرجوا به إلى السوق، ليبحثوا له عن مُرضعة يقبل الرضاع منها[2]، فرأته أخته فعرفته؛ فدلتهم على أمه لتكون مرضعة له، فقبل الرضاعة منها؛ فعاد إلى حضنها؛ ففرحت به وسرت بعودته إليها، وذهب عنها ما أصابها من خوف وحزن، ثم ذكره بما حصل منه من قتله لأحد الفراعنة بالخطأ، فتآمر الفراعنة على قتله، فخاف منهم وأصابه الغم الشديد؛ فنجاه منهم، وأذهب عنه الغم الذي أصابه بسبب ذلك.

واختبرناك اختباراً بعد اختبار حتى ظهر منك أنك تصلح للنبوة والرسالة، ويحتمل أن يكون المعنى وخلصناك من ذلك الابتلاء وتلك المحن التي وقعت لك، فقد خلصه من الذبح، ثم من البحر، ثم من القصاص بالقتل[3]، **فالفتون في**

(1) ينظر: تفسير الطبري: (19/ 324).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 286).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1016).

اللغة يأتي بمعنى التخليص أو الاختبار[1]، ولا تعارض بين المعنين، فالله خلّصه من تآمر الفراعنة عليه ونجاه بالهروب إلى مدين وهي مدينة لم يكن الفراعنة يحكمونها، بل كانت تحت حكم غيرهم، فاستقر فيها آمنـًا على نفسه، وعاش فيها عشر سنوات، وهي مدة العقد التي بينه وبين الرجل الصالح الذي زوجه ابنته، ورعى له الغنم، ثم لما انتهت مدة العقد اشتاق إلى أهله في مصر، فعزم على السفر إليهم، فسار حتى وصل إلى وادي الطور، وهناك كان الموعد المقدر له لملاقاة ربه، وهو شيء قد كتبه الله وقدره ووضع له موعداً وعمراً محدداً. فوافيت الموعد الذي أردنا إرسالك فيه، فقد بلغ موسى في تلك اللحظة أربعين سنة من عمره[2]، وهو العمر الذي يُنبّأ فيه الرسل، ووافق الزمن المحدد للقاء الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾، **أي:** استخلصتك وجعلتك موضع صنيعتي وإحساني[3]، واخترتك من بين الخلق لتقوم بإبلاغ الرسالة وتكون واسطة بيني وبين الخلق في إقامة حجتي عليهم، ثم أمره أن يذهب هو وأخوه هارون لبلاغ الرسالة إلى فرعون مصحوبين بالمعجزات الباهرة والحجج الدامغة لكل الشبهات، ونهاهما عن الضعف والتأخر والكسل في تنفيذ المهمة، بل ينطلقان فيها بكل جد واجتهاد وحيوية

(1) ينظر: لسان العرب: (13/ 319).
(2) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 198).
(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1017).

ونشاط، **والونى**: هو الضعف والفتور[1].

وقوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾، الخطاب لموسى وهارون عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، يحتمل أن **الخطاب الأول** كان لموسى وحده وهو في الطور، وأن **الخطاب الثاني** كان لهما معًا بعد مدة من الزمن في مصر بعد أن التقى موسى بأخيه هارون، ويحتمل أن الخطاب الثاني كان لموسى وحده في الطور، على أن يُبلغ أخاه به إذا لقيه[2]، والأول أقوى لأن الخطاب مباشر لهما بضمير التثنية، وكانت المهمة الموكلة لهما هي الذهاب إلى فرعون لدعوته وإرشاده وأمره بالتوحيد وترك الطغيان، فإنه كان قد تجاوز الحد في الكفر والفساد في الأرض، وادعى لنفسه الألوهية والربوبية، وقد وجّههما الله إلى الأخذ بالأسلوب الأمثل في دعوته، وهو أن يخاطبوه بالكلام اللين واللفظ الحسن والعبارات اللطيفة؛ حتى لا ينفر من سماع الحجة قبل أن تبلغه.

والتذكّر هنا بمعنى الاتعاظ، وهو ناتج عن الرغبة في الحصول على الشيء والاستفادة منه، والخشية هنا بمعنى الخوف، وهو ناتج عن الرهبة والحذر من العقوبة بسبب المخالفة، وهذان المعنيان هما محتوى الموعظة، فهي إما ترغيب للنفس بالأجر والثواب أو ترهيب لها من العقوبة والعذاب.

وقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾، فشكى موسى وهارون إلى ربهما بطش فرعون وجبروته بهما

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 199).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 224).

عند رؤيته لهما، ومبادرته ومباغتة لهما بالقتل قبل أن يسمع منهما ويرى حجتهما، **والإفراط**: إعجال الشيء في الأمر قبل التثبت[1]، أو أن يستمع منهما ولكن يُقابلهما بالنفور وعدم القبول ويتجاوز الحد في الإساءة إليهما بالتحقير والإهانة، بسبب كبره وطغيانه، فأجابهما الله بنفي حصول كلا الأمرين منه لهما، فهما في رعاية الله وعنايته الخاصة، **والمعية هنا** هي معية الحفظ[2] والتأييد، والمعنى: أنتما بحفظي ورعايتي؛ أسمع أقوالكما، وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه، فلما سمعا هذا الوعد من الله؛ زال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد الله[3].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أهمية تعلم المهارات الدعوية، وأساليب إيصال العلم والدعوة إلى الناس، ومنها: أسلوب الإلقاء، والخطابة، والحوار، والإقناع، وغيرها من الأساليب.

2- بيان أهمية تهيئة الداعية لتحمل مسؤولية الدعوة إلى الله وتوفر الصفات اللازمة فيه، مثل: سعة الصدر، والقدرة على النطق والإقناع، والمرونة مع المدعوين والتيسير عليهم.

---

(1) ينظر: العين: (7/ 419).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 227).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 506).

3- بيان أهمية العمل الجماعي في الدعوة إلى الله، وضرورة التعاون مع إخوانك الدعاة في تبليغ الدعوة وحمايتها.

4- بيان أهمية وضوح الهدف والغاية من تعلم العلم والمهارات، وهو الدعوة إلى توحيد الله وتعبيد الناس لربهم، وترك الدعوة إلى الذات أو الحزب أو الجماعة والتعصب لها.

5- بيان أهمية الدعوة إلى الله بالقول اللين وأثره على الاستجابة، فالكلمة الطيبة صدقة، ولها أثر كبير على من سمعها .

تفسير المقطع الثالث من سورة طه

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ
مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠
قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا
مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤ ۞ مِنۡهَا
خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ
٥٦ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ
بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن
يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ
لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم
بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم
بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ
ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾.

قول الله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾، **سبق أن أمر الله موسى وهارون** بالذهاب إلى فرعون، ثم كرر هنا اللفظ بأسلوب آخر، **فما الفرق بين الذهاب والإتيان؟**، **الذهاب** يستخدم لقطع المسافة البعيدة، **والإتيان** لقطع المسافة القريبة، فحين كانا في مكان بعيد عنه أمرهما بالذهاب إليه، فلما اقتربا منه أمرهما بالإتيان إليه، كما أن الذهاب متعلق بالحركة والانطلاق إليه، **والإتيان** متعلق باللقاء والمواجهة له، وأمرهما أن يخبراه بانهما رسولان من الله إليه، ويظهر أن المتكلم بهذا اللفظ مع فرعون هو موسى، وأن هارون كان معه مقراً بما يقول، وفي الخطاب تصريح بربوبية الله لفرعون؛ لأنه كان لا يُؤمن برب غيره، فأرادا إشعاره بأنه عبد لله، وليس برب كما كان يدعي، وكانت مهمة إرسال موسى وهارون إلى فرعون، هي دعوته إلى الإيمان بالله وتوحيده، واستنقاذ بني إسرائيل من طغيانه واستعباده لهم، فدعواه إلى التوحيد وطلبا منه أن يطلق لهما بني إسرائيل، وأن يترك استعبادهم، وأن يتوقف عن تعذيبهم بالعذاب الحسي المتمثل بالقتل والتشريد والسجن، وبالعذاب المعنوي المتعلق باستعبادهم وإذلالهم، وأثبتوا له رسالتهم إليه بأن الله قد أيدهم بمعجزات ظاهرة تدل على صدقهم، وهي آية العصا واليد، وختموا خطابهم معه ببيان أن السلامة من العذاب خاصة بمن اهتدى إلى الحق واتبعه[1]، وأن العذاب نازل بمن ترك الهداية وأعرض عنها،

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 358).

وفي العبارة تلميح بالتهديد والوعيد له لو أعرض عن الحق وكفر به، ثم صرحوا له بأن عندهم خبر من الله قد جاءهم بواسطة الوحي بأن العذاب في الدنيا والآخرة سينزل بمن كذّب بالآيات البيّنات والمعجزات الواضحات التي تأتي بها الرسل، وأعرض عن الإيمان بالله واستمر في كفره وعناده.

وقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾، والذي يظهر من الحوار أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي وجه الخطاب إلى فرعون بحضور هارون، **ولذا كان الرد من فرعون عليه بسؤاله:** من ربكما الذي أرسلكما إليّ؟!، وهو سؤال يدل على أنه كان ينكر وجود الصانع الخالق سبحانه، فأجابه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذكر بعضٍ من صفات وأفعال ذلك الرب العظيم الذي خلق كل شيءٍ من المخلوقات، وأوجدها وأعطى كل مخلوق منها خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه في خلقه، ثم هداه إلى كل ما يحتاج إليه في حياته[1]، وهداهم إلى الحق بعد أن خلقهم، وأفاض عليهم النعم، وفيه تعريض بفرعون؛ لأنه أدعى الربوبية وهو لا يملك من الخلق والإيجاد شيئاً.

وقوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾، **يُسمى هذا الأسلوب في باب البحث والمناظرة** بأسلوب التشغيب، وقد كان يتقنه فرعون، وهو الانتقال بالخصم من نقطة إلى أخرى بسبب فشل المحاور في الرد للتشغيب على من يحاوره وإخراجه من محل النزاع إلى قضية أخرى، فهنا نقل فرعون الحوار من قضية الربوبية إلى السؤال عن شأن

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 47).

الأمم السابقة التي كانت على الكفر، فأجابه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن هذا موضوع آخر غير قضيتنا، فإنهم أفضوا إلى ما قدموا، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فإن خبرهم معلوم عند الله، فقد أحصى أعمالهم من خير وشر، وسيجازيهم عليها، فإن الله قد كتب كل مقادير الخلق في اللوح المحفوظ وأحاط بها علماً وخبراً، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾، ثم رد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فرعون إلى محل النزاع مرة أخرى، وهو ذكر الأدلة التي تثبت قدرة الله واستحقاقه للألوهية، فهو الرب الخالق المتصرف في الكون، فهو الذي مهَّد الأرض وهيأها لهم وجعلها صالحة للحياة عليها، وأوجد فيها طرقاً آمنة للسير عليها من مكان إلى آخر، **والسُبُل**: جمع سبيل وهو الطريق، **والسبيل من الطّرق** مَا كان معْتاد السلوك عليه[2]، وأنزل من السحاب ماء المطر، فأخرج به أصنافاً متعددة من النباتات ومختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم، وأباح للبشر أن يكلوا مما يصلح لهم من ثمرات وأوراق تلك النبات، وأن يرعوا أنعامهم منها، واسم الإشارة يعود على سبق من إنزال المطر وإخراج النباتات والثمار بسببه، حيث ذكر لهم دليلين عقليين واضحين على الإعادة والبعث، وهما: إخراج النبات

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 507).

(2) ينظر: الكليات: (ص: 513).

من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين وإيجادهم منها[1]، والآية هي الحجة والبرهان والعلامة الدالة على قدرة الله، و"**النُهى**" هي العقول، وسميت بذلك؛ لأنها تنهى صاحبها عن فعل القبيح[2]، وبها يتفكر ويتأمل أصحابها في نعم الله؛ فتدلهم على عظمة خالقها المستحق وحده للألوهية.

وقوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾، هذا تعقيب من الله على ما ذكره موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من نعمة خلق الله للأرض، والضمير يعود عليها، **والمعنى:** أن الله خلق أبانا آدم من تراب الأرض، ثم تناسل الخلق بعد ذلك منه ومن ذريته، وإذا مات أحد منهم دفن فيها، ثم يوم القيامة يبعثهم ويخرجهم من قبورهم إلى ساحة المحشر للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦﴾، ولقد أظهر الله سبحانه لفرعون حججه الدالة على انفراده بالألوهية، وهي التسع المعجزات التي جاء بها موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لفرعون وقومه على فترات متتابعة، فجحدها وكذّب بها وامتنع عن الإيمان بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وبرسالة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والآية جملة اعتراضية لبيان موقف فرعون من المعجزات كلها، وأنه لم يستفد منها رغم وضوحها.

وقوله: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧﴾، ثم ذكر الله جواب فرعون على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين عجز عن المناظرة والمحاورة معه، والاستفهام إنكاري، والقصد منه اتهام موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأنه ساحر، وأن هدفه

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 508).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 437).

الاستيلاء على نظام الحكم وإخراج فرعون وقومه من الأرض التي يحكمها، وهي أرض مصر، وأنه طالب سلطة وملك، وليس رسول هداية للبشرية وداعية إلى الله، وهي تهمة متوارثة بين الطغاة والمفسدين في الأرض حتى اليوم حيث يوجهونها للدعاة والمصلحين في الأرض، وبسببها يسجنونهم ويستحلون دمائهم، وينفرون الناس منهم ومن دعوتهم، رغم وضوح حجتهم وصفاء دعوتهم وبعدها عن هذه التهمة.

وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾، فنحن مستعدون لإبطال سحرك، ونأتيك بسحر مثله يقوم به سحرة ماهرون في السحر، فاضرب بينا وبينك موعداً زمانياً وموعداً مكانياً لذلك، **واختلف المفسرون في تفسير كلمة "سُوًى" على أقوال**[1]**، فقيل:** بمعنى مستوي ليس فيه ارتفاع ولا انخفاض، **وقيل:** في منتصف المسافة بيننا وبينك، **وقيل:** مُتفق عليه، ولا مانع من اجتماع الثلاثة المعاني لعدم تعارضها.

وقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾، فوافق موسى على اقتراحهم وحدد لهم موعداً زمانياً ومكانياً، وهو وقت الضحى من يوم عيد الفراعنة الذي كان الناس يتزينون فيه ويتجمعون فيه في مكان معلوم لهم جميعاً[2]، **واختار موسى يوم العيد**؛ لأنه يوم يتفرغ فيه الناس من أعمالهم وأشغالهم ولا يمنعهم مانع عن الحضور، وأراد موسى بذلك أن يطّلع على

---

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 408).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 370).

حجته أكبر عدد من جمهور الناس، لكي توصل الحجة إلى جماهير الناس مباشرة، فدعوة الرسل في الأصل دعوة جماهير وليست دعوة نُخب، وطلب من فرعون أن يجمع الناس لهذا اللقاء، ولا يمنع أحداً من الحضور، فوافق فرعون على ذلك ظناً منه أنه منتصر على موسى لا محالة.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾، فأدبر فرعون معرضاً عما جاء به موسى من الحق، وانصرف من مكان النقاش ليُصدر قراراته لمن حوله بجمع السحرة، وجمع الناس لحضور المناظرة، وأحكم مكره وخداعه، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأن موسى ليس على شيء، ووعد السحرة بمناصب وأموال وتقريب لهم عند فوزهم عليه، ثم حضر معهم في الموعد المتفق عليه.

وقوله: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾، فلما جمع فرعون كبار السحرة في مملكته لمناظرة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعظهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بأن حذرهم ونهاهم عن إنكار المعجزات الواضحات واختلاق الكذب بسحرهم الباطل لصد الناس عن الإيمان بالله سبحانه، فإن عاقبة تلك الأعمال أن يستأصلكم الله بعذاب عظيم فيهلككم به جميعاً ولا يترك لكم عقباً، **والسَّحت في اللغة:** استقصى الحَلْق[1]، وقد خسر من كذب على الله ونسب إليه باطلاً[2].

(1) ينظر: مقاييس اللغة: (3/ 143).

(2) ينظر: فتح القدير: (3/ 533).

وقوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢﴾، فلما سمع السحرة هذه الموعظة من موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، جمعوا رؤوسهم وتشاوروا سراً فيما بينهم خوفًا من فرعون ومن حوله، فأخفوا الكلام الذي جرى بينهم سراً، واتفقوا على النتيجة، وهي إن غلبنا موسى اتبعناه[1]، ولذلك لم يتخلف أحد منهم عن الإيمان لله والسجود بين يديه.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾، **الأصل في** "إنّ" أنها تنصب المبتدأ وترفع الخبر، فما تخريج الرفع هنا؟ **قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم** بالسكون "إنْ"، **وقرأ الباقون** بالتشديد "إنّ"[2]، **معناها على قراءة عاصم** نعم[3]، ثم ما بعدها مبتدأ وخبره، **وعلى قراءة الجمهور** هي لغة بعض قبائل العرب كبني الحارث وغيرهم، فإنهم ينطقون المثنى بالألف دائمًا، ولو سبقه أدوات النصب[4]، **ويحتمل** أن يكون هذا القول من ضمن ما تناجوا به وهو: أن يكون موسى وهارون ساحرين يريدان الاستئثار بصناعة السحر في أرضكم فتخرجوا من الأرض بإهمال الناس لكم وإقبالهم على سحرهما، فيفوز موسى وهارون ويستوليا على سيرتكم الحسنة[5] ومكانتكم التي كانت لكم في قلوب الناس، فلا بد من الاستعداد

(1) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 437).

(2) ينظر: الحجة للقراء السبعة: (5/ 229).

(3) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 363).

(4) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 184) والبحر المحيط، لأبي حيان: (6/ 255).

(5) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1030).

لهزيمتهما، فأرادوا من هذا إثارة حمية بعضهم غيرة على مكانتهم في المجتمع، وحرصاً على استمرار منافعهم من السحر[1].

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾، **الإجماع**: الإحكام والعزيمة على الشيء[2]، **أي**: أحكِموا أمركم ولا تختلفوا ولا تتركوا من كيدكم شيئاً إلا جئتم به، وسموا عملهم كيداً؛ لأنهم تواطئوا على أن يظهروا للعامة أنهم قادرون على أن يأتوا بمثل ما جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو أشد منه؛ ليصرفوا الناس عن سماع دعوته[3]، واتفقوا أن يكون حضورهم للمناظرة مجتمعين بصفوف منتظمة لقذف الرعب في نفسه، **ثم قال بعضهم لبعض**: إن الفلاح اليوم لمن فاز وانتصر، والألف والسين والتاء في "استعلى" للمبالغة في العُلو[4]، **أي**: إن مكانتكم عند فرعون ستكون عالية بفوزكم على موسى.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الأسلوب المناسب في الدعوة إلى الله هو استخدام اللين والرفق مهما كان حال المدعو.

2- أن الرسل يُوحى إليهم ببعض الغيب، وأنهم لا يعلمون الغيب كله.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 255).

(2) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 185).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 256).

(4) ينظر: المصدر السابق: (16/ 257).

3 - من وسائل الحوار الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فالخالق القادر هو المستحق للعبادة.

4 - أن كفر فرعون كفر عناد؛ لأنه أعرض عن الإيمان بعد رؤية الآيات البينات.

5 - أن يهتم الداعية بدعوة الجماهير مباشرة ولا ينشغل بدعوة كبار القوم فقط.

6 - أن حال السحرة كان قديماً مع ملوكهم كحال الإعلام المستأجر اليوم مع الطغاة والمفسدين، فهو يمدحهم بما ليس فيهم، ويقوم بتشويه المصلحين والتنفير عنهم.

تفسير المقطع الرابع من سورة طه

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ
حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي
جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا
خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنٗا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾
جَنَّٰتُ عَدْنٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقٗا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾، **قال السحرة لموسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: هل تُلقي أنت سحرك، أم نبدأ نحن فنلقي سحرنا؟!،

وهو أسلوب يدل على اعتدادهم بأنفسهم، وثقتهم بسحرهم، وأنهم في كلا الحالتين منصورين، وهذا من تدبير الله تعالى لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكي يبرزوا ما معهم من مكايد السحر، فيظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه، فيصير آية للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين[1].

وقوله: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾، فأمرهم موسى بأن يُلقوا سحرهم أولاً، فألقى السحرة سحرهم، وكان عبارة عن حبال وعصي، قد عقدوا عليها السحر من أجل أن تتحول إلى حيات وثعابين في عيون من يراها، والفاء فصيحة، وإذَا للمفاجأة أو الظرفية، **والمعنى:** فألقوا، فلما رآها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تفاجأ حين خُيّل إليه من شدة سحرهم أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى[2]، وهذا التخييل الذي وجده موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من سحر السحرة هو أثر عقاقير يدهنون بها تلك الحبال والعصي، مثل الزئبق ونحوه، فإذا لاقت شعاع الشمس اضطربت تلك العقاقير فتحركت الحبال والعصي[3]، وهذا أحد أنواع السحر، **فإن السحر نوعان**[4]**، الأول:** سحر حقيقة، **كما في قوله:**

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 372).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 442).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 258).

(4) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 35).

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة:102]، فهذه الآية تدل على أن السحر له حقيقة موجودة، ويكون سبباً للتفريق بين الرجل وامرأته، **والثاني**: سحر تخيل، لا حقيقة له في الواقع، مثل الذي جاء به سحرة فرعون، فإنهم سحروا أعين الناظرين إليه، فتخيلوا الحبال والعصي ثعابين وحيات تسعى، فلما رآها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحس بشيء من الخوف في نفسه، وهو خوف طَبَعِي يحصل للنفس البشرية إذا رأت ما يزعجها، والتوجس فزع القلب[1]، فأوحى الله إليه بعدم الخوف، ووعده بعلو مكانته بالظفر والغلبة على السحرة وعلى فرعون وجنوده.

وقوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾، وأمره الله تعالى أن يُلقيَ عصاه التي كان يُمسكها دائماً بيده اليمنى، وإنما أبهمها تعظيماً وتفخيماً لشأنها، فألقاها فتحولت إلى حية عظيمة فاتحةً فمها، تبتلع كل ما ألقوا بين يديه من الحبال والعصي التي خيلوا للناس أنها حيات تسعى، والحقيقة أن الذي صنعوه هو كيد ومكر ساحر وليست ثعابين وحيات في الواقع، ثم حكم على فعل كل ساحر في كل مكان وزمان بعدم الفلاح والنجاح، فالسحرة فاشلون محرومون من الفلاح في الدنيا والآخرة، وكيدهم دائماً إلى زوال، وعلّق الحكم بوصف الساحر ليقتضي نفي الفلاح عن الساحر في أمور السحر فقط دون أعماله الأخرى من تجارة ونحوها[2]، **وتدل الآية على**

(1) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (3/ 987).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 261).

إبطال أفعال السحرة ووجوب معاقبتهم بما يستحقون شرعـًا.

وقوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾، فلما رأى السحرة ما فعلته العصى بسحرهم العظيم أيقنوا أنها معجزة وليست سحراً، فسارعوا إلى السجود بين يدي الله، خاضعين مؤمنين بما جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الحق، سبحان الله! كيف تعمل الحجة والبرهان بمن تأملها بحق، فقد أتى بهم فرعون لينصروا باطله، ويهزموا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلما رأوا هذه الآية البيّنة تحولوا إلى مؤمنين بها مناصرين لمن أتى بها، **وعبَّر بـ "أُلْقِيَ"** لبيان سرعة سجودهم بسبب شدة قناعتهم بما رأوا، وهل نطقوا بالإيمان قبل السجود أم بعده؟، كلاهما مُحتمل، وقدّم هارون على موسى، لأن الواو لا توجب ترتيبـًا، ومراعاة لتناسق فواصل الآيات[1].

وقوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ٧١﴾، لو كان فرعون صادقـًا في اتباع الحق لاتبع السحرة الذين أتى بهم، لكن الطاغية لا يقبل الحق والحجة، بل يبحث عن الأعذار الباطلة التي تُخالف العقل والواقع ليهرب من التصديق، فأنكر على السحرة إيمانهم بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبما جاء به قبل أن يطلبوا الإذن بذلك منه، وهو خطاب يدل على كبره وغروره وشدة طغيانه وجهله بأن العقول إنما تستسلم للطغاة والمفسدين حين تحرم أنوار الهداية، أما إذا قذف الله فيها أنوار الحق وهداها إليه، فإنها تترك العبودية

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 374).

لغير الله وتستسلم لله وحده!، ثم اتهمهم بأن لهم صلة بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنه أستاذهم ومعلمهم[1]، فهو الذي علّمهم السحر، وأنهم إنما أطاعوه لذلك بدون حجة ولا برهان، وهو قول باطل عقلاً وواقعًا، فإن فرعون هو الذي اختارهم وأتى بهم من أماكن مختلفة لمقابلة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يعرفوا موسى من قبل، ولم يلتقوا به، بل وعدهم فرعون أن يقربهم من القصر ويعطيهم الأموال والعطايا حال فوزهم عليه، ولكنه اختلق هذه التهمة لهم؛ ليتخلص من وعده لهم، وأن يدخل الشبهة على الناس حتى لا يؤمنوا بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[2]، ثم طلب منهم التراجع عن الإيمان، وهددهم إن لم يفعلوا ذلك أن يحكم على كل واحد منهم بقطع يده اليمنى مع رجله اليسرى، ثم يربطهم ويصلبهم في جذوع النخل، ليكونوا عبرة لغيرهم، **وأتى بحرف** "في" التي تفيد الظرفية، بمعنى أن تكون جذوع النخل بمثابة القبور لأجسادهم، وخص النخل لطول جذوعها، ثم أطلق أشد عبارات التخويف والتهديد لهم، وستعلمون إذا حل بكم بطشي من هو أشد عذابًا، أنا أم رب موسى[3]، وهذا من شدة طغيانه وسخافة عقله، فمن أنت أيها المخلوق الحقير مهما كان عندك من وسائل التعذيب في مقابل عذاب الله العظيم الشديد؟!.

وقوله: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾، فرد عليه السحرة المؤمنون بثبات وقوة إيمان:

---

(1) ينظر: مجاز القرآن: (2/ 23).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 444).

(3) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 168).

لن نُفضلك ونختارك على ما علمناه من الحق الذي جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكلامك باطل، وادعاؤك قبيح، وأدلتك سخيفة، وما رأيناه من آياتٍ بينات ومعجزات عظيمة هي سبب لإيماننا، ولن نُفضلك ونختارك على الله الذي خلقنا وخلقك، فنحن نُفضل عبادته والإيمان به على الإيمان بك وعبادتك، **وقيل**: الواو للقسم[1]، **أي**: فأقسموا بالله الذي خلقهم أنهم لن يختاروا فرعون ويفضلوه على الله سبحانه، والمعنيان متقاربان، وردوا عليه بأنهم لا يبالون به، فليفعل بهم ما شاء مما توعدهم به من القطع والصلب والعذاب!، فكل ما يفعله بهم لن يتجاوز بهم هذه الحياة الدنيا فينقضي ويزول بموتهم، بخلاف عذاب الله العظيم الدائم عليهم لو استمروا على كفرهم بعد ظهور الحجة لهم، فإنه أشد وأدوم، وفي جوابهم هذا دليل على رجاحة عقولهم، فإنهم وازنوا بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختاروا الأكثر منفعة والأقل ضرراً.

وقوله: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾، ثم علّلوا إيمانهم بالله بسبب ما رأوا من الحجج والبراهين ولكي يغفر الله لهم ما اقترفوه من الكفر والشرك به، وما دفعهم إليه فرعون من أفعال السحر المعارضة للمعجزة، وهذه الآية تنص على أن فرعون أكرههم على السحر، **وفي قوله**: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[الأعراف:113]، ما يدل على أنهم فعلوا ذلك برضاهم، فكيف الجمع؟!، **وللمفسرين فيها عدة**

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 414).

أقوال[1]**، أرجحها:** أنه أكرههم على الحضور من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلما أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أتوه طائعين، فإكراههم كان في أول الأمر، ورضاهم كان في آخر الأمر، وختموا كلامهم بأن عطاء الله خيرٌ من عطاء فرعون، ونعمه أبقى من نعمه، فما وعدهم به فرعون زائل، وثواب الله باقٍ، كما أن عذاب الله أشد وأبقى من عذاب فرعون.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾، هل هذا من كلام السحرة لفرعون على جهة الموعظة له والبيان فيما فعلوه، أم هو تعقيبٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على القصة، الظاهر الثاني[2]، فهي قاعدة مطردة، فالأمر والشأن أن كل من يأت ربه يوم القيامة وهو مرتكب لجريمة الكفر ومات على ذلك؛ فإن عقوبته جهنم يعذب فيها، فلا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة فيها راحة[3]، مما يدفع أهل جهنم إلى تمني الموت للتخلص من هذا الحال، **كما في قوله:** ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾[الزخرف:77].

وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾، **وهذا الجزء الآخر من القاعدة المطردة** بأن من كان على الإيمان والعمل الصالح في الدنيا ومات على ذلك؛ فإنه موعود من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدخول الجنة والتنعم بالدرجات

---

(1) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 66).

(2) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 269).

(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 68).

العليا فيها، وفي الآية إشارة إلى أن التنافس في درجات الجنة العليا يكون بمقدار العمل الذي يفعله العبد، أما دخول الجنة فيكون برحمة الله وتوفيقه للعبد إلى الإيمان والطاعة، **كما جاء في الحديث**: **"لن ينجي أحداً منكم عملُه، قال رجل: ولا إياك يا رسول الله!؟ قال: ولا إياي، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سددوا"**[(1)]، **ثم بيّن مكان هذه الدرجات** وأنها في جنات عدن، **وعدن في اللغة**: هو الملازمة للشيء والإقامة فيه[(2)]، وهذه الجنان تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لمزيد من السعادة والراحة للساكن فيها، وهم موعودون بالخلود فيها، فكل من دخل الجنة فلا يخرج منها، بل يبقى مُخلداً فيها، واسم الإشارة يعود إلى ما سبق ذكره من الجزاء الذي يمنحه الله في الجنة لعباده، وأنه خاصٌ بمن تطهر من الشرك والنفاق وسيء الأخلاق، وزكَت نفسُه وقلبُه وسائر جوارحه بالإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾، وبعد أن مكث موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقتاً طويلاً يدعو فرعون إلى الله وهو مصر على كفره وإعراضه؛ أذن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأوحى إليه أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً؛ لأن فيه ستراً لهم عن أعين فرعون وقومه، وإشعاراً لهم بعدم نشر الخبر لكي لا يعلم بخروجهم عدوهم، وأضافهم إلى نفسه تشريفاً لهم، كما أوحى إليه بكيفية نجاتهم منه حينما

(1) ينظر: صحيح مسلم (4/ 2169)، برقم: (2816).

(2) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (6/ 2162).

يلحقهم وجنوده عند ساحل البحر الأحمر، بأن يضرب بعصاه سطح البحر الذي أمامه، فانشق له طريقًا يابسًا لا طين فيه ولا ماء[1]، ولا زلَق ولا وحَل يمنع الحركة عليه، ويحتمل أن يكون طريقًا واحداً لهم جميعًا[2]، **ويحتمل** أن يكون أريد بالطريق الجنس، وكان متعدداً حسب تعدد الأسباط[3]، ووعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمرين يحققهما له خلال هروبه وقومه من مصر، وهما: عدم الخوف من فرعون وجنوده فإنهم لن يدركوهم، وعدم الخشية من الغرق في البحر، فإن الله سيحفظهم وينجيهم إلى ساحله الآخر.

وقولـه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾، فلحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل مع شروق الشمس، فرآه بنو إسرائيل وراءهم وهم على ساحل البحر، فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾، [الشعراء:61] **فقال موسى:** ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: 62]، فضرب موسى البحر بعصاه، فانشق لهم وخرج بنو إسرائيل منه سالمين، فجاء فرعون فوجد طريقًا مفتوحًا في البحر، فدخل فيه هو وجنودُه، فرجع البحر كما كان، فأصابهم هولاً عظيمًا وغرقًا كبيراً فأهلكهم الله فيه جميعًا، ولم ينج منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، وقد أقر الله أعينهم بهلاكهم، وأضل فرعون قومه في الدنيا عن طريق الحق والهدى، وأضلهم كذلك عن طريق النجاة من الغرق بإدخالهم في طريق

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 227).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (18/ 343).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 55)، وتفسير الألوسي: (8/ 546).

خاص لنجاة غيرهم، فأضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة من هلاك، فهو الذي ورط جنوده وتسبب في هلاكهم، وفي الآية تهكم بفرعون[1]؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر: 29].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن السحر نوعان: سحر له حقيقة موجودة، ويكون سبباً للتفريق بين الرجل وامرأته، وسحر تخيل لا حقيقة له في الواقع، مثل الذي جاء به سحرة فرعون.

2- أن الله علّق الحكم بوصف الساحر ليقتضي نفي الفلاح عن الساحر في أمور السحر فقط دون أعماله الأخرى من تجارة ونحوها.

3- أن العقول إنما تستسلم للطغاة والمفسدين حين تحرم أنوار الهداية، أما إذا قذف الله فيها أنوار الحق وهداها إليه، فإنها تترك العبودية لغير الله وتستسلم لله وحده!.

4- أن كل ما يفعله الطغاة من عذاب بالمخالفين لهم لن يتجاوز بهم هذه الحياة الدنيا، بل ينقضي ويزول بموتهم، بخلاف عذاب الله الدائم العظيم في الآخرة لمن كفر به.

5- أن كل من يأت ربه يوم القيامة وهو مرتكب جريمة الكفر ومات على

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 78).

ذلك، فإن عقوبته جهنم، يعذب فيها فلا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة فيها راحة.

6 - أن التنافس في درجات الجنة العليا يكون بمقدار العمل الذي يفعله العبد، أما دخول الجنة فيكون برحمة الله وتوفيقه للعبد إلى الإيمان والطاعة.

7 - أن فرعون أضل قومه عن الرشد وما هداهم إلى خير في دين ولا نجاة من هلاك.

تفسير المقطع الخامس من سورة طه

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ
وَٱلسَّلۡوَىٰ (٨٠) كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ
عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ (٨٢) ۞
وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ
(٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ
غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ
أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ
بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ
عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ
إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا (٨٩) وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا
فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ
يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي
(٩٣) قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾، يذكر الله بني إسرائيل بنعمه ويمتن بها عليهم، وهي نعم دنيوية ودينية، **فمن النعم الدنيوية:** أنه أنقذهم ونجاهم من عدوهم فرعون الذي كان يعذبهم ويظلمهم، وأغرقه وجنوده وهم ينظرون، **ومن النعم الدينية:** مواعدته لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه التوراة، التي فيها الأحكام العظيمة والأخبار الجميلة، التي تشرح لهم دينهم وشريعتهم، وهل كانت المواعدة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع من اختارهم معه من نقباء بني إسرائيل كي يحضروا معه إلى جانب الطور الأيمن ليستمعوا كلام الله، أم كانت لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحده، وإنما خوطبوا بها لأن الوعد كان لأجلهم؟!، قولان للمفسرين[1]، والراجح الأول[2]، **ومن النعم الدنيوية التي منّ الله بها عليهم:** نعمة إنزال المنّ والسلوى عليهم وهم في صحراء سيناء في فترة التيه، **فأعطاهم الله المَنّ،** وهي حلوى تُشبه العسل كانت تنزل عليهم من السماء، **والسلوى:**

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 230).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 308).

طائر يُشبه طائر السُّمّان يسقط عليهم، فيأخذون منهما قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله ورحمة بهم وإحسانًا إليهم.

وقوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾، ثم أمرهم أن يأكلوا من ذلك الرزق الطيب الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وهو حلال محض لا صنع فيه لآدمي، وأمرهم أن يشكروا الله عليه، ونهاهم عن استخدامه في معصيته، **فالطغيان هنا** عام، وهو مجاوزة الحد في فعل الشر، ومنه الطغيان في الطعام والشراب وهو الإسراف فيه، لأن من طبيعة الإنسان الإسراف في الأشياء المجانية، التي حصل عليها بدون تعب ولا قيمة، وحذّرهم من مخالفة أمره وشرعه حتى لا ينزل بهم غضبه ومقته، فإن من ينزل به غضبُ الله فقد هلك وسقط في الهاوية، وهو وصف لنار جهنم، **كما قال:** ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾[القارعة:9]، سمّيت بذلك لبُعد قعرها.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾، ثم بيّن حال من تاب من ذنبه وآمن بالله وعمل صالحًا ثم استقام على الهداية والطاعة إلى أن مات، فإن الله يغفر له ذنوبه ويقبل توبته، وهذا من طرائق وأساليب القرآن في الترهيب من الشر والترغيب في الخير، فحين يحدثنا عن المعرض الكافر وجزائه، يردفه بالحديث عن المؤمن الصالح وجزائه ليتضح للناس حال الفريقين.

وقوله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾، **سبق أن رجحنا أن المواعدة كانت لموسى** ومن اختارهم من نقباء قومهم، وتبيّن الآية هنا أن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ استعجل وتقدم على قومه

للقاء ربه، فسأله الله سؤال عتاب، لماذا لم تنتظر قومك وتأتي معهم؟!، فأجابه بأنهم سيلحقون به، وأنه تقدم من أجل أن يزداد رضى الله عنه بمسارعته إليه، وما فعله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان رأياً منه على سبيل الاجتهاد بأن يتقدم وحده مبادراً إلى أمر الله تعالى، وحرصاً على القرب منه وشوقاً إلى مناجاته[1]، ومعلوم أن العجلة مذمومة في كل شيء إلا في فعل الخير، **وفي الحديث: "التأني من الله، والعجلة من الشيطان"**[2]، أي منشأ العجلة وسببها والدافع لها هو الشيطان.

وقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾، فأعلمه الله تعالى أنه قد فتن بني إسرائيل، واختبرهم بما صنعه السامري لهم من إله، وصيرهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل[3]، وكان السامري ابن خال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[4]، وكان رجلاً عظيماً مقبولاً في بني إسرائيل[5]، فدعاهم إلى الضلالة، وهي عبادة العجل فأطاعوه واتبعوه فيها.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾، وبعد أن مكث موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الطور ثلاثين ليلة، وأتمها الله له بعشر أخرى،

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 57).

(2) مسند أبي يعلى الموصلي: (7/ 247)، برقم: (4256)، وشعب الإيمان للبيهقي: (6/ 211)، برقم: (4058)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (3011).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 448).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 57).

(5) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 488).

وهي شهر ذي القعدة، وعشر ذي الحجة[1]، حيث أتم الله له بها وحي التوراة إليه؛ رجع إلى قومه وقد أصابه الحزن الشديد والغضب العظيم بسبب كفرهم وإشراكهم بالله سبحانه أثناء فترة غيابه عنهم، فبدأ بوعظهم والاستفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم، والوعد الحسن أن الله وعدهم أن يعطيهم التوراة التي فيها الهدى والنور، ولا وعد أحسن من ذلك ولا أجمل منه[2]، وهل طالت عليكم فترة غيابي عنكم فتصابون باليأس من الوفاء فتكفرون؟! فكلها أربعون يومًا!، أم أردتم أن تفعلوا فعلاً يكون بسببه حلول غضب الله عليكم؟! فأخلفتم موعدكم إياي، بأن تستقيموا على الأمر الذي أمرتكم به وتركتكم عليه، وهو عبادة الله وتوحيده حتى أرجع إليكم، فلم توفوا بما وعدتم، بل سارعتم بالانحراف وعبدتم العجل.!

وقوله: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾، فقال كبراء القوم وأهل الصلاح منهم الذين لم يعبدوا العجل: نحن ما أخلفنا موعدَك بإرادتنا واختيارنا، وإنما أخلفها دهماء القوم، وكانوا أكثر منا، وهو اعتذار منهم بأنهم ما أخلفوا الموعد باختيارهم، ولكنهم مغلوبون على أمرهم من جهة السامري وكيده[3]، ثم بينوا له سبب ذلك.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 448).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 82).

(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 81).

والأوزار جمعُ وزر، وهي الأثقال من الذهب والفضة، وهي الأمانات التي كان يضعها آل فرعون عند بني إسرائيل، أو العارية التي كان يستعيرها بنو إسرائيل من الفراعنة، ولما كان خروجهم سراً لم يكن لديهم وقت لإرجاعها لأصحابها، وسميت أوزاراً؛ لأنها آثام لم يحل لهم أخذها[1]، **وفي الآية إشارة** إلى أن الفراعنة كانوا يثقون ببني إسرائيل ويضعون أماناتهم عندهم، كما كان المشركون في مكة يثقون بمحمد ﷺ ويضعون أمانتهم عنده، لذلك تأخّر عليٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في هجرته مع النبي ﷺ، وكان من أسبابها رد الأمانات إلى أهلها قبل أن يذهب، والأصل في الفِكر اليهودي هو التجسيم للرب والآلهة، فحين خرج بنو إسرائيل من البحر مروا على قوم يعبدون إلهـًا لهم، **فقالوا لموسى**: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾[الأعراف:138]، فنهرهم موسى عن هذا الطلب الباطل، ولكنهم ظلوا متطلعين إلى إلهٍ مُجسم يرونه بأعينهم، فلما غاب موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عنهم، واستضعفوا هارون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ جاء لهم السامري بفكرة الإله المجسم وهو صناعة العجل، فطلب منهم هارون أن يأتوا بأمانات آل فرعون من الحلي فتوضع في النار ليذوب فيصير قطعة واحدة ليسهل حفظه حتى يرجع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ويرى فيه رأيه، ولكن السامري دبر خطة أخرى لم يطلعوا عليها، فلما ألقى القوم ما عندهم من الحلي في النار؛ ألقى السامري عليه تلك القبضة من التراب التي قبضها من أثر جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقال له: كن عجلاً جسداً له خوار، والجسد هو الذي لا روح فيه[2]، **أي**: صنع لهم صورة عجل مجسدة بشكله

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 272).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 58).

وقوائمه وجوانبه، فيكون خواره بسبب الريح الخفيفة التي تدخل من دبره وتخرج من فمه، فتحدث صوتًا يُشبه صوت البقر، **ويحتمل** أنه كان له خوار حقيقي، وذلك فتنة لهم[1]، والأول الراجح؛ لأنه شيء ممكن[2]، فقال السامري ومن وافقه لبني إسرائيل: هذا العجل هو إلهاكم وإله موسى، ليسرعوا إلى عبادته، **وفي معنى ضمير "فنسي"، قولان**[3]، **الأول**: أنه يعود إلى موسى، **أي**: ونسي موسى إلهه هنا، وذهب يبحث عنه في الطور، **والثاني**: أنه يعود إلى السامري، **أي**: أنه ضل وانحرف بفعله هذا، وارتد إلى الكفر وعبادة غير الله، والراجح الأول، ومعنى النسيان في القول الأول الذهول، وهو من قول عبّاد العجل، ومعناه في الثاني الترك، وهو من تعقيب الله على فعلهم هذا[4].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾، الاستفهام إنكاري لبيان فساد فكرتهم، وسخافة عقولهم، فكيف صار العجل إلهًا وهو لا يتكلم، ولو سألوه لما استمع لهم كلامًا، ولا رد لهم جوابًا، وهو لا يضرهم إن لم يعبدوه، ولا ينفعهم إن عبدوه، فهذه كلها صفات الجماد العاجز الذي لا يستحق أن يعبد، بل هو أكثر نقصًا من عابديه.!

وقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾، ثم بيّن أنه لا عذر لهم في ذلك؛ لأن هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 235).

(2) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 372).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (2/ 379).

(4) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 59).

أنكر عليهم هذه الفعل القبيح حين دعاهم إليه السامري ومن معه في أثناء غياب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عنهم، ونصحهم وحذرهم من عبادة العجل، وأن ذلك كان فتنة لهم واختباراً، وبسببه وقعوا في الضلال وابتعدوا عن الإيمان والتوحيد، فربهم الحق هو الله الرحمن الذي خلقهم وأوجدهم، وليس هذا العجل، وأمرهم أن يتبعوه في ترك عبادة غير الله، والاستمرار على عبادة الله وحده لا شريك له، الذي أنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾، فلم يقبلوا نصيحته، ولا أطاعوا أمره، بل أجابوه بأنهم لن يتركوا عبادة العجل وسيبقون ملازمين لها حتى يرجع إليهم موسى، ويسمعوا كلام موسى فيه، وخالفوا أمر هارون في ذلك، وحاربوه وكادوا أن يقتلوه(1)، فلما عجز عن ردهم عن ذلك؛ تركهم وشأنهم.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾، فلما رجع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى بني إسرائيل ورأى ما وقعوا فيهم من الأمر العظيم والشرك بالله رب العالمين، اشتد غضبه عليهم، وألقى ما في يده من ألواح التوراة وعاتبهم على فعلهم، وانتقل إلى أخيه هارون فأخذ بلحيته ورأسه غضباً منه عليه وجره إليه، وبدأ بلومه ومعاتبته وتوبيخه على بقائه بين عبدة العجل، ولماذا لم يقم بمحاسبتهم على ما فعلوا ومنعهم من ذلك؛ فإن هذا مُقتضى كونه خليفته عليهم، فإن لم يستجيبوا له فما الذي منعه من أن يلحق به

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 312).

إلى الطور ويخبره بما وقع منهم؟! وكرر له السؤال الاستنكاري مرة أخرى ليشعره أن مقامه بينهم وقد عبدوا غير الله عصيان منه لمقتضى ما أمره به حين استخلفه عليهم.

وقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾، فأجابه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ بتلطف وأدب وناداه برابطة الأمومة، مع أنه شقيقه من أبيه وأمه ليُثير فيه حنان الأم ولطفها، لكي يخفف من آثار اشتداد غضبه عليه، وطلب منه أن يفك يديه عن رأسه ولحيته، ليخبره بعذره، فقد كان موسى يمسك رأس هارون بيده اليمنى ولحيته بيده اليسرى[1]، ثم بيّن له أن تركه لهم كان ناتجاً عن عجزٍ منه وضعفٍ، **كما في قوله:** ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف:150]، **أي:** لقد بذلت وسعي في كفّهم عن فعلهم ذلك، فلما قهروني واستضعفوني وتآمروا على قتلي تركتهم وشأنهم، ولسبب آخر بيّنه هنا وهو: أنه لو فارقهم ولحق بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لازدادوا فرقة واختلافاً بسبب غيابه عنهم، وأنه لم يحفظ وصيته له فيهم حين قال له: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:142]، **فانتظم عذره في أمرين:** عجزه وضعفه عن منعهم من عبادة العجل، وعدم فراقه لهم لتحقيق مصلحة اجتماعهم وعدم تفرقهم؛ حتى يرجع إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فينظر في أمرهم، فلما سمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك، قَبِل منه الاعتذار، وزال عنه ما كان قد توهمه من تقصيره، ودعا الله له ولأخيه بالمغفرة والرحمة.

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 504).

وقوله: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾، ثم انتقل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى لوم ومعاتبة السامري، فسأله ما شأنك الخطير والعظيم فيما فعلت؟! **وأصل الخطب**: الجليل من الأمر(1)، فرد عليه السامري بأنه رأى شيئًا لم يره أحد غيره، فقد رأى جبريل على ظهر فرس بعد إغراق فرعون، وأنه أبصر أثر قدم فرسه على الأرض، فقبض قبضة من تراب ذلك الأثر ووضعها في ثوبه وربط عليها، وألقى الله في نفسه أنه إذا ألقاها على شيء صار حيوانًا(2)، وأنه احتفظ بها، فلمّا ألقى بنوا إسرائيل حليّهم في الحفرة لصهرها؛ ألقى معهم السامري تلك القبضة من التراب على تمثال العجل فصار له خوار، ففُتِن بنو إسرائيل به، واعترف بأن نفسه الأمارة بالسوء هي التي زينت له هذا الفعل القبيح وحسنته له.

وقوله: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾، فلما اعترف السامري بفعله القبيح؛ عاقبه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن منع الناس من مخالطته ومجالسته ومؤاكلته والحديث معه، وجعله يهيم في البرية مع الوحوش والسباع، وجعله يقول طول حياته: لا يمسني أحد ولا أمس أحداً، فصار هو يبتعد عن الناس وصار الناس يبتعدون عنه(3)، فعاش منفرداً عن الناس كالذي

(1) ينظر: لسان العرب: (2/ 1194).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1037).

(3) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 423)، وتفسير ابن جزي: (2/ 13).

أُصيب بحالة نفسية، كلما رأى ناساً فرّ منهم، وهي عقوبة دنيوية له طول حياته، وبخلاف العقوبة الأخروية التي تنتظره في الآخرة ولن تتخلف عنه، وقبل أن تنصرف وتعيش وحيداً في البراري والقفار؛ انظر كيف نفعل بإلهك المزعوم الذي بقيت ملازماً لعبادته من دون الله أثناء فترة غيابنا عنك، وأضاف الإله إلى ضمير السامري تهكماً بالسامري وتحقيراً له[1]، ثم أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بإحراق العجل حتى صار رماداً، ثم أخذه وذرّه في البحر، فلم يبقى له أثر، **والنسف هو:** نقض وتفريق وذر الشيء لتذهب به الريح[2].

وقوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىۡءٍ عِلۡمًا ﴿٩٨﴾﴾، ثم التفت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى من حوله من عبدة العجل وغيره، وترك مخاطبة السامري تحقيراً له، فأخبرهم بأن إلههم الحق هو الله وحده لا شريك له، المحيط علماً بكل شيءٍ، الذي لا يضيق علمه عن شيء، ولا يغيب عن علمه شيء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن العجلة مذمومة في كل شيء، إلا في فعل الخير.

2- بيان سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان لمن عجز عنه.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 299).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (4/ 3561).

3 - بيان أن من أساليب أهل الضلال استخدام أسلوب الخداع للناس وتزوير الحقائق.

4 - بيان جواز الغضب المحمود، وهو الغضب من أجل الله.

5 - بيان جواز نفي وهجر أصحاب الباطل والبدع والخرافات حتى لا يتأثر بهم الناس.

تفسير المقطع السادس من سورة طه

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ
عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي
ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ
أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ
يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾
يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ﴿١٠٨﴾
يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾ ۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا
وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ
بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن
قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ
إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ

ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ ﴾، **يخبر الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نبيه محمداً ﷺ أنه مثل ما قص عليه خبر موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقومه، يقص عليه من أخبار الأمم السابقة، وقد منحه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كتاباً مستقلاً فيه حِكَم وأحكام غير أخبار الأمم السابقة، وهو القرآن الكريم، وجعله وسيلة للتذكر والاتعاظ، بما فيه ترهيب وترغيب ووعد ووعيد، **ونكّر** "ذكراً" للتعظيم، **أي**: آتيناك كتاباً عظيماً[1]، **وفي الآية إشارة** إلى بيان الحكمة من قصص القرآن، وهو العظة والعبرة ممن جرى للأمم السابقة بسبب كفرها.

وقوله: ﴿ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ ﴾، ثم بيّن أن من تولى عن سماع القرآن والاتعاظ به، وكفر ولم يؤمن به، ولا عمل بما فيه فإنه يحمل يوم القيامة إثماً عظيماً، وحملاً ثقيلاً، وينال بسبب ذلك عقوبة شديدة، وهي الخلود في عذاب جهنم، وبئس الحمل حملهم، وبئس العذاب عذابهم، فلا أحد أسوأ حملاً ولا أشد عذاباً منهم.

وقوله: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 302).

لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾، واذكر لهم ذلك اليوم العظيم حين ينفخ الملك إسرافيل بالصور، وهو القرن، **النفخة الثانية**، وهي نفخة البعث والنشور، لأن الله ذكر بعدها الحشر، والمقصود بالمجرمين عموم الكفار الذين وقعوا في الجرم العظيم، وهو الكفر بالله وسائر الكبائر والمنكرات، حيث يحشرهم الله في ذلك اليوم زرقًا، قد تُشوه خلقتُهم بزرقة عيونهم وسواد وجوهم من شدة خوفهم وفزعهم[1]، كل واحد منهم يقول لصاحبه سراً: ما لبثنا في الدنيا إلا عشر ليال، وكل هذا تخرص منهم، فلم يعيشوا عشر ليال في الدنيا، بل لبثوا فيها عمراً طويلاً، ولكنهم نسوه من شدة الفزع.!

وقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾، فمهما تخافتوا وحاولوا إخفاء سرهم فيما بينهم، فالله مُطلع على سرهم ونجواهم وما تُخفيه صدورهم، حين يقول أعدلهم وأقربهم إلى التقدير وأعلمهم عند نفسه بالحقيقة: إنهم ما لبثوا في الدنيا إلا مثل مقدار يوم واحد، وهذا ليس دليلاً على أن كلامه صحيح في الواقع، ولكنه الأقرب إلى رواج الاعتذار، **وعبّر عنه بـ "أمثلهم طريقة"** تهكمًا به[2]، والذي دفعهم إلى هذا القول هو شدة الفزع والهول الذي أصابهم يوم القيامة، حتى ذهب من أذهانهم قدر المدة التي عاشوا بها في الدنيا[3].

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 244).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 306).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 64).

وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾، ويسألك يا محمد! بعض قومك عن الجبال ما حالها يوم القيامة؟! فأخبرهم أن الله يقتلعها من أماكنها ويفرقها إلى أجزاء صغيره متناثرة تطير في الهواء ويدع أماكنها أرضاً ملساء مكشوفة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض[1]، **والصفصف**: المستوي من الأرض[2]، فلا يرى فيها الرائي مكاناً مرتفعاً ولا مكاناً منخفضاً، بل تتساوى فيها التلال والنجود المرتفعة بالوديان المنخفضة، **وفي الحديث**: **"يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد"**[3]، **أي**: بيضاء على هيئة قرص خبز البر الدائري، والحكمة من ذلك حتى لا يختبئ فيها أحد.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾، يوم ينفخ إسرافيل في الصور فيتبع الناس كلهم صوت البوق الذي يصل إلى كل مخلوق، فيلحق به ولا يتخلف عنه أحد، ولا يقدر أحد منهم على أن يزيغ عنه أو ينحرف منه، بل يسرعون إليه[4]، ويسيرون وراءه إلى ساحة المحشر وهم في حالة صمت وخضوع لله الرحمن سبحانه، وذكر اسم الرحمن هنا فيه إشعار للخلق برحمته التي من تعرض لأسبابها في الدنيا نالها في الآخرة،

---

(1) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 525).

(2) ينظر: المصباح المنير: (ص: 179).

(3) صحيح مسلم: (4/ 2150)، برقم: (2790).

(4) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (3/ 456).

والهمس الصوت الخفي، وهو صوت نقل أقدام الناس وهم يمشون حفاة إلى ساحة المحشر[1].

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾، وفي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة عند الله إلا بشرطين: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع، ولا يتحقق هذان الشرطان إلا في المؤمن، فهو الذي ينتفع بالشفاعة، أما الكافر فلا ينتفع منها، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر:48]، وبهذا تنتظم نصوص الشفاعة المثبتة لها والنافية لها، ولا تتعارض، وتقع الشفاعة بإذن الله من الملائكة والأنبياء والشهداء والمؤمنين الصالحين للمؤمنين الذين ماتوا على التوحيد، ولكنهم دخلوا النار بسبب وقوعهم في المعاصي وماتوا من دون توبة منها، ثم أخبر الله سبحانه أنه يعلم أعمال الخلق الظاهرة والخفية، ويعلم ما هم قادمون عليه من حال ومصير في يوم القيامة، ويعلم ما كانوا عليه من أحوال وأعمال في الدنيا، فقد أحاط علماً بكل أحوال الخلائق ظاهرة وخفية، ودنيا وآخرة، والخلق لا يُحيطون بالله ولا بعلمه شيئًا.!

وقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾، خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت ولا ينام، الكامل في نفسه، القائم على كل شيء من خلقه يدبره ويحفظه، فكل شيء فقير إليه، ولا

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 192).

قوام له إلا به، وعبّر بالوجوه لشرفها، والمقصود كل الأجساد تخضع وتسلم لله يوم القيامة ويصير حالهم كحال الأسير الذليل بين يدي من أسره، ثم بيّن حال الظلمة في يوم القيامة وأنهم خائبون، ليس لهم فلاح ولا نجاة من شدة عذابه، بل هم في ظلمات وشدة، **كما في الحديث: "الظلم ظلمات يوم القيامة"**[1]، وأعظم الظلم هو الشرك بالله، ويلحق به ظلم الخلق، فله أثر عظيم في تحديد مصير العبد يوم القيامة، فقد يكون من العُبَّاد الذين أكثروا الصلاة والصيام وسائر العبادات ولكنه فرط في حقوق الخلق وظلمهم، فيُؤخذ لهم من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ووضعت عليه، ثم يُقذف بسبب ذلك في النار، كما في حديث المفلس[2]، وهذا من عدل الله في خلقه، فلينتبه المسلم لحسناته فلا يضيعها بسبب التفريط في حقوق الآخرين، وعليه أن يتحلل من مظالم الخلق في الدنيا حتى لا يكون من الخائبين يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾، لما بيّن حال الظلمة وخيبتهم في الآخرة؛ بيّن حال المؤمنين العاملين للصالحات الذين **اتقوا الظلم بنوعيه**: الشرك بالله، وظلم العباد، فهؤلاء لا يخافون يوم القيامة من الزيادة في سيئاتهم بحملهم إثم ذنوب غيرهم، ولا يخافون النقص في حسناتهم[3]، بل يعطونها كاملة، ويضاعف لهم فيها، وهذا من

(1) صحيح البخاري: (3/ 129)، برقم: (447).

(2) ينظر: صحيح مسلم: (4/ 1997)، برقم: (2581).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 318).

فضل الله على عباده الصالحين.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾، ومثل ما ذكرنا لك من قصص السابقين وأعلمناك بها؛ أنزلناه إليك كتابًا، وهو القرآن الكريم، تقرأه بلغة العرب ليفهموه، ونوَّعنا فيه من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد والثواب والعقاب؛ كل ذلك رحمة بالعباد، لعلهم أن يتقوا سخط الله وعذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، أو يُنشئ لهم القرآن بآياته ومواعظه تذكراً وتفكراً واتعاظًا بحال الأمم الكافرة من قبلهم وبمصيرهم؛ فيتوبون ويرجعون إليه قبل أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾، تعاظم الله وتقدس وتنزه عن كل نقص وعيب، الملك الذي قهر بسلطانه الخلق أجمعين، الحق في ذاته وقوله وفعله، وأمره ونهيه، وحكمه وشرعه، ووعده ووعيده، وكل شيء منه حق، ثم نهى الله رسوله ﷺ عن الاستعجال في أمر القرآن، **وقد ذكر المفسرون في الاستعجال ثلاثة أقوال**[1]، **الأول**: لا تستعجل بقراءة الآيات مع جبريل خشية النسيان، **والثاني**: لا تستعجل بإبلاغه لأصحابك قبل أن يعلمك الله معناه وتفسيره، **والثالث**: لا تستعجل في طلب نزول الآيات إليك قبل أن يأتيك الوحي من الله، **وأرجحها القول الأول، وهو المشار إليه في قوله:** ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[القيامة: 16]، والسياق يؤيده، فقد أمره الله بعد ذلك أن يدعو ربه أن يزيده علمًا إلى ما أعطاه

(1) ينظر: تفسير الماوردي: (3/ 429).

من علم سابق، وهو أمر له ولأمته من بعده، فاحرصوا على طلب العلم، وادعو الله أن يرزقكم العلم النافع، فالعلم بحرٌ لا ساحل له.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾، ولقد وصى الله آدم بعدم الأكل من الشجرة، ولا يقترب منها، من قبل أن يأكل منها[1]، و"نسي" هنا ليس المقصود به السهو فهو معفو عنه، بل معناه ترك العزيمة[2] والصبر على مغالبة وساوس إبليس، فأطاعه وترك وصية ربه له.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾، واذكر يا محمد! لقومك قصة تكريم الله لآدم حين علم أسماء الأشياء ولم تعلمها الملائكة، فأمر الله الملائكة أن يسجدوا تشريفًا وتكريمًا له، فسجدت الملائكة، وامتنع إبليس عن السجود لآدم كبراً وحسداً، ونصح الله آدم وأوصاه بأن هذا، أي: إبليس عدو له ولزوجته حواء، وعبّر عنه باسم الإشارة احتقاراً له، فلا تطيعانه في وسوسته، فإن طاعتكما له ستكون سببًا لإخراجكما من الجنة، وسبب للشقاء في الأرض بالعمل والبحث عن الرزق، ولم يقل: فتشقيا؛ حفاظًا على الفاصلة، ولأن الشقاء والتعب في طلب المعاش غالبًا يتحمله الرجل.

وقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾، الخطاب موجه لآدم، وحواء تابعة له فيه، أي: لا يحصل لك في الجنة جوع ولا يُصيبك العُري، مما يدل على

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (11/ 251).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 66).

أن العُري صفة مذمومة في كل الأحوال حتى في الجنة، بالرغم أن الله قد أباح فيها ما كان محرماً على الناس في الدنيا، إلا العري فلم يأذن لهم فيه حتى في الجنة؛ لأن كشف العورة قبيح ويُسيء إلى صاحبه، ولذلك سميت العورة بالسوءة، وكل من يدعو الناس اليوم إلى التعري فهم يريدون بالناس شراً، ولا يريدون بهم خيراً.

وقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾، **أي:** ولا يُصيبك فيها الظمأ، وهو العطش، ولا يُؤذيك حر الشمس في وقت الضحى، بل تعيش في راحة وسعادة لا شقاء فيها، فلا تعطش فيها كما يعطش أهل الدنيا، ولا يصيبك فيها حر كما يصيب أهل الدنيا، **والمقصود بهذا** بيان نعم الله العظيمة في الجنة على آدم وحواء قبل أن يهبطا منها إلى الأرض التي تختلف طبيعة الحياة فيها، وتكثر فيها المصائب ويعيش فيها الخلق بين الجوع والعطش، والحر والبرد، والتعب والنصب.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾، لكن إبليس لم يدع آدم وشأنه، لعداوته له، والعدو لا يروق له صلاح حال عدوه، فاستخدم أسلوب الوسوسة معه، وهي الكلام الخفي للنفس، فإبليس لم يدخل الجنة بعد أن أُخرج منها، وإنما أغوى آدم بوساوسه التي أعطاه الله القدرة على إيصالها إلى قلبه[1]، حيث قذف في قلبه أن هذه الشجرة التي منعه الله من الأكل منها أنها شجرة الخلد، لأن من طبيعة الإنسان أنه يحب الحياة ويكره الموت، كما أنه يحب استمرار النعمة عليه وعدم انقطاعها

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (1/ 129).

عنه، وهذا مما علمه إبليس عنه، فأتى لآدم من هذا الباب لإقناعه بالأكل من الشجرة، فإنه إن أكل منها لم يمت أبداً، ولم تنته النعمة عنه أبداً، وسيبقي في ملك لا ينقطع، بل وأوهمه أنه سيصير هو المالك للجنة المتصرف فيها، واقتصر الشيطان على الوسوسة لآدم، وهو يريد إغواء آدم وحواء، لعلمه بأن اقتداء المرأة بزوجها مركوز في فطرتها[1].

وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾، فعمل آدم بوسوسة الشيطان فأكل من الشجرة وأكلت حواء معه، فظهرت عوراتهما، وزال عنهما اللباس،، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر[2]، فشعرا بالخطر وفزعا فزعاً شديداً لهذا الحادث، ولم يستمرا في الأكل، وانتقلا للبحث عن ستر لعورتهما، فأقبلا يأخذان من ورق شجر الجنة وجعلا يرقعان الورق ويلزقانه على عورتهما؛ ليستترا به[3]، ووقع آدم بهذه المخالفة في معصية ربه حين خالف أمره، وأطاع الشيطان الذي دله على الخلد والملك، فلم يصل إليهما، بل ضل عن الطريق الصحيح، ولم يتحقق له شيء من ذلك، ولا يستدل بهذه الآية على تجويز المعصية على الأنبياء ولا لمنعها، لأن آدم لم يكن نبياً آنذاك وكان في عالم غير عالم التكليف[4].

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 326).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 495).

(3) ينظر: تفسير البغوي: (2/ 184).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 327).

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾، ثم اصطفاه ربه وقرّبه وهداه إلى التوبة وقبلها منه، وتاب عليه وغفر له، وغفر لزوجته معه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن الله سبحانه ذكر في القرآن الكريم قصص الأمم السابقة للعظة والاعتبار بما حصل لهم.

2 - أن الشفاعة تكون في الآخرة بشرطين: الرضى عن المشفوع، والإذن للشافع.

3 - بيان حال الكفار يوم القيامة، وأنهم يُبعثون في ذل وخوف شديدين.

4 - بيان فضيلة العلم، وأهمية الازدياد منه يوميًا، وعدم العجلة في تلقيه.

5 - بيان أن الله قدر على آدم النسيان؛ فنسيت ذريته، والمعصية؛ فعصت ذريته، ابتلاءً واختباراً لهم.

6 - بيان فضيلة التوبة والمبادرة إلى الطاعة بعد المعصية.

تفسير المقطع السابع من سورة طه

﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ
ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ (١٢٣) وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا
وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا (١٢٥) قَالَ
كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ
وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ (١٢٧) أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى (١٢٩)
فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ
فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ (١٣١) وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا
نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ (١٣٢) وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم
بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ
أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ (١٣٤) قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ
فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ (١٣٥) ﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾، **ألم تعلم أن الله** سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يسوق السحاب بالرياح سوقًا خفيفًا لطيفًا[1]، ثم يجمع بين هذا السحاب المتفرق ويضمه إلى بعضه، ثم يركم بعضه فوق بعض، وهو وصفٌ لمراحل تكوين السحب؛ حيث يبدأ متفرقًا ثم تسوقُه الرياح لينظم بعضُه إلى بعض ثم يتراكم فوق بعضه حتى يتكثف، فإذا تكثف صار طباقًا، وهذه الطباق يضغط بعضُها على بعض وترتفع في طبقات الجو، وكلما ارتفعت كلما تكثف المطر داخلها، فالسُحب الدنيا تكون أمطارُها خفيفة، والسُحب الأعلى تكون أثقل، فإذا ارتفعت إلى طبقات الجو العليا صارت ثلجًا، فإذا ارتفعت أكثر صارت برداً، **والودق:** هو المطر الذي يخرج من خلال السحاب، **والخِلال:** جمع خلل، وهي الثقوب التي ينزل منها المطر، وهذا من نعم الله وفضله على خلقه أن جعل في السحاب ثقوبًا ينزل منها المطر على شكل قطرات، إذ لو نزل المطر على شكل قطع كبيرة أو نزل صبًا، كما تُصب أفواه القِرب؛ لكان أثرُه خطيراً على المخلوقات في الأرض، ثم بيّن أن السحاب يتكثف في أعلى السماء المرتفعة حتى يصير ثلجًا كالجبال من ضخامته وشدة تجمده، وأنه يُنزِّل من هذه الجبال شيئًا من البرد على شكل كريات صغيرة، وهذا من لطف الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، إذْ لو نزل البرد على شكل أحجار كبيرة، لأهلك الحرث والنسل والبُيوت، ويصيب بهذا البرَد من يشاء من

---

(1) ينظر: تاج العروس: (38/ 211).

خلقه، فجعل نزول البرد إصابة لأنه يفسد الزرع والثمرة، وجعل صرفه نعمة ورحمة بهم، فالصرف له عنهم نعمة والإصابة لهم به نقمة، وكلاهما بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكونية النافذة، فلا راد لقضائه ولا مُعقب لحكمه، **والسنا**: ضوء البرق، **والمعنى**: يكاد ضوء البرق الذي يخرج من بين السُحب من شدته وقوته لو تبعه البصر أو نظر إليه الناظر؛ لخطف البرق بصره، وفي هذا سبقٌ علمي في علم الطب أن من يتعرض لضوءٍ شديد بعد ظلمة، فإنه ربما يُصاب بالعمى، ولذلك هذا ما يفعله بعض المجرمين في بعض السجون، حيث يجعلون المسجون في غرفةٍ مظلمةٍ ظلمة شديدة، ثم فجأة يفتحون عليه أنواراً شديدة الإضاءة، فيذهب جزء من بصره وربما يذهب بصرُه كاملاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، **وفي الحديث**: "أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: **ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله**، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: **زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر**"(1) **ويقول علماء الفلك**: إن السحاب يحتوي على شحنات موجبة وشحنات سالبة، فيحصل تماس بينهما فيتكوّن ضوء البرق وصوت الرعد، وفي كل الأحوال فإن ذلك كله يحدث بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾، بعد أن تاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

(1) سنن الترمذي: (5/ 145) برقم: (3117)، والسنن الكبرى للنسائي: (8/ 218) برقم: (9024)، وإسناده حسن.

على آدم وزوجه لمخالفتهما أمره بسبب وسوسة الشيطان لهما، أمرهما أن يخرجا من الجنة، ويهبطا منها إلى الأرض عقوبة لهما، وأهبط معهما إبليس، فصاروا جميعًا في الأرض التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتكون مكانًا للابتلاء والاختبار، وجعل العداوة بين آدم وإبليس مستمرة إلى يوم القيامة، فالحق مع آدم ومن اتبعه، والباطل مع إبليس ومن اتبعه.

وفي هذا تنبيه وإشارة لآدم وذريته أن إبليس خُلق عدواً لكم، فاحذروا من التعامل معه وتصديقه، ولن يترك الله الخلق بدون هداية وإرشاد، بل سيرسل لهم الرسل وينزل عليهم الكتب تدعوهم إلى الحق، ويُبين لهم سبيل الهداية والضلالة، فمن اتبع الهدى وعمل به ولم ينحرف عنه فقد سلم من الضلال وعدم الشقاء، ووفق للهداية والسعادة في الدنيا والآخرة، وغالبًا يكون الضلال للعقول، والشقاء للأجساد، ولا تشقى الأجساد إلا بضلال العقول، **وقيل**[1]: لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، لأن الشقاء في الدنيا قد يقع للمؤمن من مرض وفقر وسجن وابتلاء ونحو ذلك، فهذه لا يسلم منها المؤمن، بل إن الابتلاء يكون على المؤمن في الدنيا أكثر من غيره، **كما في الحديث**: **"أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم"**[2]، وأعظم الهدى هو ما جاء به محمد ﷺ؛ لأنه خلاصة ما جاءت به الأنبياء والرسل قبله، ومن اتبعه اتباعًا صحيحًا فإنه موعودٌ بعدم الضلال في الدنيا وعدم الشقاء في الآخرة.

---

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 278).

(2) مسند أحمد: (45/ 10)، برقم: (27079)، وإسناده حسن.

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾، ومن أعرض عن قبول الحق والهدى وما جاءت به الرسل، وكل ما يُذكر بالله؛ فإنه متوعدٌ بالمعيشة الضنك، **والضَّنْك في اللغة**: الضيق والشدة[1]، **وقد جاء تفسيرها عن النبي ﷺ، بأنها**: **"عذاب القبر"**[2]، ونكّر المعيشة لتشمل حالة المعرض في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة[3].

وقد يقول قائل: نحن نرى الكفار اليوم أحسن حالاً من المسلمين؛ يعيشون في رغد من العيش، وفي دول مستقرة، ونعم كثيرة، بخلاف حال المسلمين، فأين الضنك؟!، **والجواب**: أن الضنك حالة نفسية، فالكافر يعيش في قلق واضطراب وتعاسة في نفسه، مع توفر رغد العيش لديه، ولذلك يكثر الانتحار في دول الكفر، ويقلّ في دول المسلمين مع فقرهم وحاجتهم، فالضنك ليس مجرد تعب للجسد، بل الضنك الأعظم هو تعب الروح وشقاؤها، وهذا حال كثير من الكفار، فإن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، كما أن الضنك أيضًا متحقق للكافر قبل المحشر في القبر، فإنه يعيش في حفرة من حفر النار حتى يبعثه الله ويحشره أعمى البصر؛ لأنه أعمى بصيرته عن قبول الحق في الدنيا، فالجزاء من جنس العمل.

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ

---

(1) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (3/ 378).

(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم: (2/ 413)، برقم: (3439)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (4/ 127).

﴿وَأَبْقَىٰٓ ١٢٧﴾، فلما بعثه الله وحشره أعمى البصر؛ سأل ربه على سبيل الاعتراض والاستغراب، لماذا بُعثت أعمى وقد كنت مبصراً في الدنيا؟!، فرد الله عليه: لقد أعمينا بصرك اليوم؛ لأنك أعميت بصيرتك في الدنيا عن رؤية الحق وبراهينه ولم تتأمل فيها، فكان الجزاء له من جنس العمل، فقد جاءته الآيات والحجج والبراهين التي تدعوه إلى الإيمان فتركها وأعرض عنها ولم يقبلها، فتركه الله وأعرض عنه وأعمى بصره؛ لحاجته الماسة إليه في ذلك اليوم العصيب، الذي يمر فيه الناس على الصراط، وهو جسر فوق جهنم، وهو مدحضة مزلة، يحتاج فيه الإنسان إلى بصر دقيق لينظر أين يضع قدمه عليه، حتى لا يسقط في قعر جهنم، وهذا الجزاء الذي يقع في الدنيا وفي القبر وفي الحشر لمن أعرض عن الإيمان في الدنيا، يقع مثله لكل من تجاوز الحد في الكفر وفعل المعاصي والمحرمات، ولم يُصدق بآيات الله الكونية والشرعية الدالة على وحدانية الله واستحقاقه للألوهية، وما ينتظرهم في جهنم من عذاب هو أشد منه وأدوم، فعذاب الآخرة فوق كل عذاب يتخيله الإنسان أو يقع في الدنيا أو في القبر[1]، وفي الآية تذكير وموعظة للسامعين لكي يحذروا من مثل هذا العمل حتى لا يصيروا إلى مثل ذلك المصير المشؤم.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾، **الخطاب لكفار قريش، والهمزة** للاستفهام التعجبي الاستنكاري، فقد كانوا يُسافرون إلى الشام وإلى اليمن ويمرون في طريقهم على

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 69).

ديار من سبقهم من الأمم الكافرة، وقد اتضح لهم واستبان كيف أهلكهم الله بسبب كفرهم، و"**كم**" هنا الخبرية التي تُفيد الكثرة، والقرون جمع قرن، وهو مائة سنة في الحساب، **والمقصود به هنا** الأمة من الأمم التي تعيش فيه، وفي هلاك كثير من الأمم المكذبة عظة وعبرة وعلامة وبرهان لمن أتى بعدهم، يستفيد منها ويعتبر بها أصحاب العقول السليمة، والنُّهى جمع نهية، وهو ما ينهى الإنسان عن فعل القبيح(1)، **وفي الآية** تعريض بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم لا عقول سليمة لهم(2).

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾، "**لولا**" حرف امتناع لوجود، فقد امتُنع معاجلة الكفار بالعقوبة بسبب سنة الإمهال، والوقت المقدر الذي كُتب أن يعاقبوا فيه، وفي الآية تقديم وتأخير مراعاة للفاصلة، **والمعنى:** ولولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم وأجلٌ مسمى للزم أن ينزل بهم عذابهم الدنيوي عند حصول التكذيب منهم، والأجل المسمى هو ما وقع لبعضهم من قتل وأسر في يوم بدر(3).

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾، **الخطاب لرسول الله ﷺ** بالصبر، وهو استفراغ الجهد وحبس النفس على ما تكره مما تسمع من الأقوال السيئة

(1) ينظر: المصدر السابق

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 335).

(3) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1055).

التي يقولها الكفار فيه مثل ساحر وكاهن وشاعر ومجنون ونحوها، وأمره بالتسبيح، وهو تنزيه الله عما لا يليق، وأن يكون مصحوبًا بالحمد، مثل **قوله:** سبحان الله وبحمده، وقد يطلق التسبيح أيضًا على الصلاة؛ لكثرة التسبيح فيها، **وقد ذكر هنا** أوقات الصلوات الخمس[1]، فقبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة الظهر والعصر، **وآناء الليل:** هي ساعاته[2]، وفيها صلاة المغرب والعشاء، ويلحق بها قيام الليل، ولا مانع من اجتماع المعنيين هنا، **فقد جُمعا في قوله:** ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾[الحجر:97-98]، لنفس الغرض، وهو ذهاب ما أصابه من ضيق وهمّ بسبب الأذية له والتكذيب به من قومه، **والمعنى:** لا تفكر بما أصابك من تكذيبهم وأذيتهم لك، ولا تنشغل بالانتقام منهم، بل اصبر عليهم واشغل نفسك بالتسبيح والذكر والصلاة؛ لترتاح نفسك ويذهب غمك وينشرح صدرك، **والمعنى:** فسبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله سبحانه من الثواب والمكانة والدرجة الرفيعة ما ترضى به نفسك[3].

وفي الآية توجيه لكل مؤمن يتعرض للإيذاء من عدوه؛ فعليه بالتسبيح والصلاة والذكر للتخلص من ضيق الصدر وذهاب الهمّ والغمّ.

---

(1) ينظر: تفسير البغوي: (3/ 280).

(2) ينظر: تهذيب اللغة: (3/ 2181).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (14/ 559) وفتح القدير للشوكاني: (3/ 465).

وقولــه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾، **الخطاب لرسول الله ﷺ**، وهو خطاب لأمته، فنهاه عن إطالة النظر في أصناف المُنعمين في الدنيا على سبيل الإعجاب والتمني لما عندهم من مال أو جاه أو أولاد، ونحوها من النعم، فما هم فيه فهو من زهرة الحياة الدنيا، وهي بهجتها ونضارتها وحسنها، وأصلها من زهرة الشجرة[(1)]، وهي مرحلة مؤقتة تكون في الشجرة، ثم تسقط وتنتهي، وهكذا نعم الحياة الدنيا لا تبقى كثيراً مع أصحابها، بل يتمتعون بها وقتًا محدداً وتذهب عنهم، وقد جعل الله هذه النعم فتنةً وابتلاءً واختباراً لأصحابها، وأخبره أن ما رزقه الله به خير مما متّع به هؤلاء الناس من متاع الدنيا الزائل، وأنه أدوم عند الله فلا ينقطع ولا ينتهي، وفي الآية إشارة إلى العناية بأمور الآخرة من الصلاح والاستقامة والزهد والعبادة والطاعة، والنظر في أحوال أهلها، فهذا هو محل التنافس المأمور به، **كما في قوله**: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين:26]، أما النظر في أحوال أهل الدنيا، والتنافس عليها فليس عمل العقلاء الصالحين، وليس المقصود بالرزق هنا الأمور المادية فقط، فقد يُعطي الله العبد الصالح مالاً وجاهًا وأولاداً، فهذا من رزق الله له، ولكن أعظم رزق للعبد هو الهداية والاستقامة والإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالطاعة التي تكون بها راحة النفوس وانشراح الصدور، وهي جنة الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة، ومن لم يدخل جنة الدنيا لم يدخل جنة الآخرة[(2)].

(1) ينظر: لسان العرب: (3/ 1877).

(2) نقلها ابن القيم عن شيخه ابن تيمية، ينظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب: (ص: 48).

وقولـــــه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾، **الخطاب لرسول الله** ﷺ، وهو خطاب لأمته، فمطلوب من كل مسلم أن يأمر أهله بالصلاة ويُلزمهم بها ويدعوهم إليها، ويدخل في ذلك أمرهم بكل ما يلزم للصلاة من الطهارة وستر العورة ونحوها، فكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، **والضمير في "عليها"** يعود على الصلاة، **أي**: استمر على أدائها، وصبّر نفسك وأهلك حتى تُؤدوا الصلاة بنشاط وحيوية؛ لأن المحافظة على الصلاة أمر ثقيل على النفس، حتى تتعود عليها، **كما قال**: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة:45]، ولم نكلفك أيها العبد أن ترزق نفسك، فالرزق يأتي به الله إذا أخذت بالسبب، فلا يشغلك طلب الرزق عن أداء الصلاة وعبادة الله، وهذا الذي وقع فيه كثير من الناس اليوم، فقد انشغلوا بطلب الرزق عن الصلاة وعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فشتت الله عليهم شملهم ولم يأتهم من الدنيا إلا ما كتب الله لهم، ولو أنهم أصبحوا وهمهم الآخرة واهتموا بصلاتهم وعبادتهم وأخذوا بالسبب لرزقهم الله من فضله، فهذا أمر مشاهد ومجرب، فهذا شخص يصلي الفجر بخشوع وحضور قلب ثم يقرأ أذكار الصلاة وأذكار الصباح ثم يخرج من المسجد قائلاً: بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك، فيوفقه الله إلى العمل المناسب الذي يحصل من ورائه على رزقه دون عنت ولا مشقة، وآخر يخرج من بيته قبل أذان الفجر تاركًا الصلاة، باحثًا عن العمل، منشغلاً بالبحث عن الرزق، فربما يأتي الظهر ولم يجد عملاً، ولا أحد يلتفت إليه عقوبة له، فلا يترك العبد صلاته وينشغل

بطلب الرزق، فإن فضل الله واسع لمن عبده حق عبادته ووثق به وتوكل عليه حق توكله، **كما قال ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتعود بطاناً"**، **أي:** كونوا مثلها، فقد أخذت بالسبب وجاءها رزقها الموعود المكتوب لها، ثم أخبر أن النهاية الحسنة دائماً لأهل التقوى، فمن فعل الطاعات واجتنب المحرمات، فلينتظر عاقبة حسنة في رزقه وشأنه كله في الدنيا، وعاقبة حسنة في الآخرة وهي دخول الجنة(1).

ثم قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾، **وقال كفار قريش:** لولا يأتينا محمد بمعجزة من ربه، كما أتى بها الأنبياء من قبله، مثل الناقة والعصا، ونحوها، وقولهم هذا من باب التعنت وليسوا صادقين في ذلك، ولذا رد الله عليهم قولهم، بأنهم قد جاءتهم الآيات ولم يؤمنوا بها، فلماذا يطلبون آية أخرى؟!، والاستفهام إنكاري، فقد نزل القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ وهو أُميّ لا يحسن الكتابة والقراءة، وفيها من العلوم والقصص وبيان ما في الكتب من أنباء الأمم التي أهلكناهم ما يدل على إعجازه وبلاغته، وكفى به آية لو كانوا يعقلون، **وفي الحديث: "ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"**(2)، **فالقرآن الكريم** أعظم الآيات التي أعطيها نبينا محمد ﷺ، وله من المعجزات الأخرى ما لا

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 328).

(2) صحيح البخاري: (6/ 182)، (4981).

يعد ولا يحصى(1).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾، ولو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أهلك كفار قريش وأنزل بهم العذاب قبل أن يُبعث محمد ﷺ فيهم ونزول القرآن الكريم عليه؛ لكان لهم على الله يوم القيامة حجة أنه عذبهم وأهلكهم في الدنيا قبل أن يُرسل إليهم رسولاً، وأذلهم وأخزاهم بعذاب جهنم في الآخرة، وهذا الحجة موافق لمقتضى سنة الله المطردة في الخلق، كما في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:15]، ولذلك قطع الله عليهم هذه الحجة، وأرسل إليهم رسولاً، وأقام عليهم الحجة، فإن استمروا في كفرهم حقّ عليهم الهلاك في الدنيا ولحقهم الخزي والعذاب المذل لهم يوم القيامة.

وختم الله السورة بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾، قل يا محمد! لكفار قريش: أنتم تنتظرون موتي وهلاكي، وأنا أنتظر نزول عذاب الله بكم وهلاككم، وكلٌّ منا منتظر لمن يكون النصر والفلاح، والتربص بالشيء أن تنتظر به يومًا ما(2)، وهو الانتظار المحسوب وقته بدقة، فانتظروا لمن تكون العاقبة الحسنة لنا ولكم، وستعلمون في المستقبل أي الفريقين هم أصحاب الصراط المستقيم ومن وفقه الله للهداية وقبول الحق والعمل به، وهذا الخطاب من باب التنزل مع الخصم، لعلهم أن يفيقوا من

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (5/ 329).

(2) ينظر: لسان العرب (7/ 39).

غفلتهم ويعرفوا أنهم على الضلال، وفي الآية تعريض بأن المؤمنين هم أصحاب الصراط المستقيم المهتدون[1]، وأن محمداً ﷺ هو إمام المهتدين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان أن الاهتداء والاستقامة على دين الله والعمل به سبب للسعادة والراحة في الدنيا والآخرة، وأن الإعراض عن دين الله والكفر به سبب للضنك في الدنيا والآخرة.

2- أن من أعظم العلاج لما يصيب النفوس من الضيق والتعب بسبب أذية الأعداء هو الصبر عليهم والإكثار من التسبيح والصلاة والإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

3- كراهية أن يُطيل الإنسان النظر في نعم أهل الدنيا حتى لا تذهب نفسُه حسرات عليها.

4- بيان أهمية الصلاة والمحافظة عليها والصبر على أدائها ووجوب الأمر بها من يعول من أهله وأولاده ومن له عليهم سلطة.

5- بيان أن العاقبة الحسنة الحميدة الطيبة المباركة في الآخرة للمتقين.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (16/ 348).

فهرس المحتويات

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الإسراء والكهف
(١٥ - ١٦)



تأليف
أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب